١٩٩٠

١٤١٠

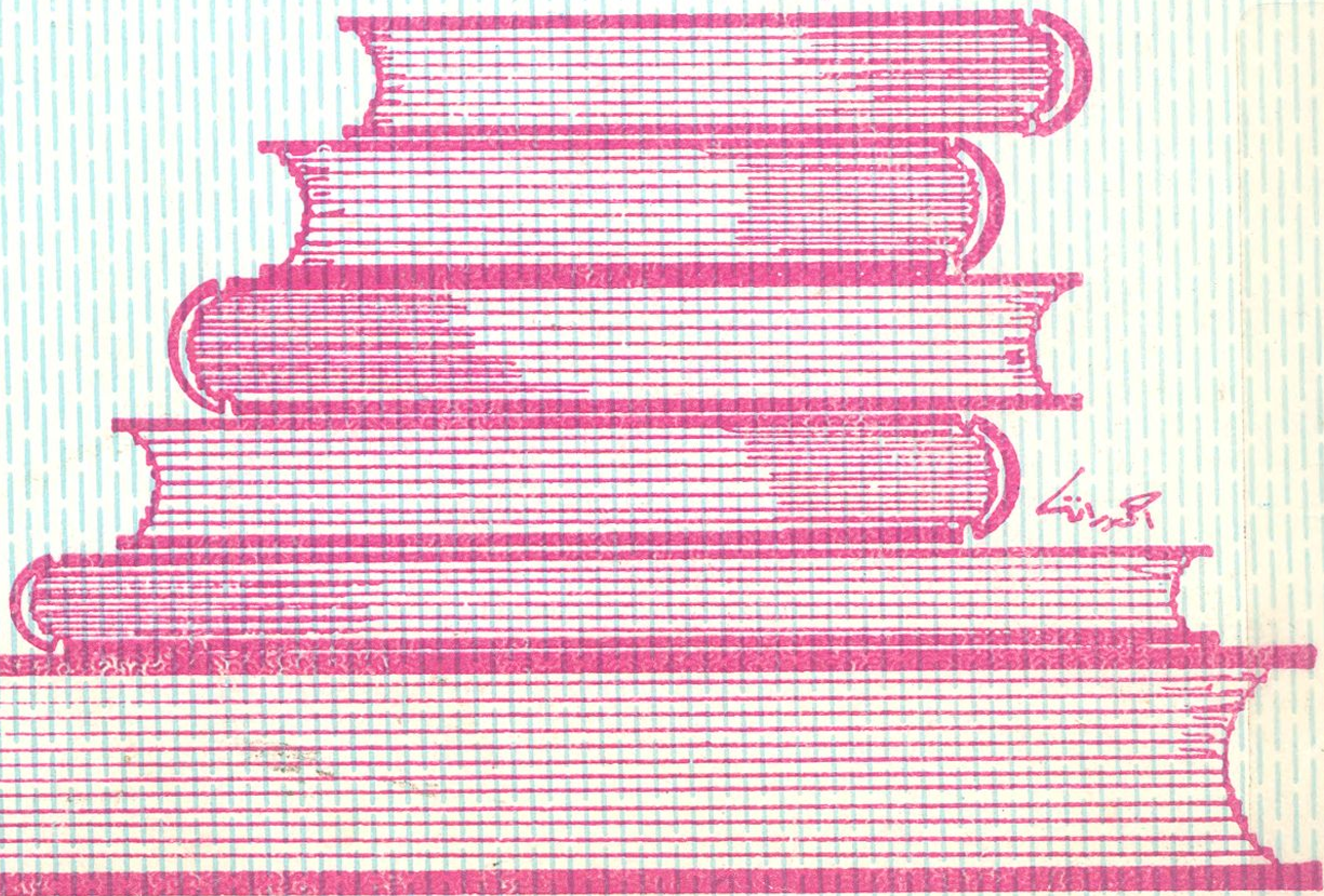
د. صابر عبد الدايم

أستاذ الأدب والنقد

بجامعة الأزهر

الأدب الإسلامى

بين النظرية والتطبيق



الأدب الإسلامي

بين النظرية والتطبيق

د. صابر عبد الدايم
أستاذ الأدب والنقد
بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



١٦ شارع منصور (مولد النبي) الزقازيق

ص.ب : ٢٠٣ ت : ٣٢٠٦٨٣(٠٥٥)

الإهداء

* إلى أصحاب الرؤى الإبداعية الدائرة فى فلك التصور الإسلامى

* وإلى الوطن الإسلامى الكبير

وهو على أبواب مدائن الفجر الجديد

د. صابر عبد الدايم

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين الذى لا ينطق عن الهوى ... وعليه أنزل القرآن بلسان عربى مبين .

وبعد :

فإن الرغبة فى التنقيب عن القيم الإسلامية فى أدبنا العربى قديماً وحديثاً ومحاولة البحث عن نبض الإسلام فى النص الأدبى .. شعراً كان أم نثراً .. تعد علامة مضيئة على طريق طويل .. يصلنا بمنابع مقومات الشخصية الإسلامية ، ويرد إلينا ما ضاع من هذه المقومات التى قامت عليها حضارة الإسلام الراقية المؤثرة فى كل الحضارات .

ويأتى هذا الكتاب إشارة خضراء على هذا الطريق العسير .. وآمل أن يؤتى ثمرته المرجوّة فى حقل الدراسات التى تُعنَى بتأصيل الأدب الإسلامى وإبراز قيمته الموضوعية والفنية فى فنون الأدب كلها .

والكتاب يتكون من قسمين :

القسم الأول : (من معالم التأصيل)

ويتضمن دراسات تنظيرية . تطمح إلى تأصيل معالم الأدب الإسلامى اتكاءً على القيم الإسلامية وموقف الإسلام من الكون والإنسان والحياة ، واتجه جهد الباحث إلى استكشاف الأبعاد الفنية والجمالية فى النص الأدبي ، فالمضمون الجيد لابد من أن يقدم فى إطار فنىّ مؤثر يوقظ فى الإنسان ما خمد فى كيانه من وهج المشاعر النبيلة ، والقيم الإنسانية التى تنبع من فطرة الله التى فطر الناس عليها .

وهذا القسم التنظيرى ... يتضمن ثلاث دراسات .

تتجه الدراسة الأولى إلى تأصيل معالم التجربة الأدبية وفلسفتها فى ظل خصائص التصور الإسلامى ، وهذا التأصيل منبثق عن كتاب «سيد قطب» **(خصائص التصور الإسلامى)**.

فالأديب المسلم فى ظل هذا التصور ؛كما قلت فى مقدمة هذه الدراسة . تنطلق تجاربه من نبع إيمانه الفياض بالتسليم المطلق لخالق الكون جل وعلا ، وهو يمزج هذه الانطلاقة الإيمانية بالتأمل فى مشاهد الكون ، والنظر فى ملكوت السماوات والأرض ، واستجلاء معالم القدرة الإلاهية فى صنعة هذا الكون البديع المتناسق. وهو فى غمرة تجاربه الإيمانية والتأملية لا يكون بمعزل عن واقع الحياة ، ومشاغل الإنسان وآماله وأحلامه ، فهو فى إيمانه يتأمل ما خفى من أسرار الكون ، وهو فى تأملاته يستجلى أسرار الحياة ، ويبحث عن منافذ الخلاص للإنسان عبر رؤية إسلامية متميزة متفردة تصاغ معالمها فى قالب فنى مؤثر .

وفى معرض إرساء هذه الخصائص فى حقل التجارب الأدبية ناقش الباحث كثيراً من المواقف والآراء التى شاعت فى حقل النقد القديم والحديث ، وكشف كذلك عن زيف بعض القيم الفنية والموضوعية التى خلّفتها المذاهب الأدبية والنقدية .

والخصائص التى تؤسس لمعالم التجربة الأدبية فى ظل التصور الإسلامى هى :
(الربانية - الثبات - الشمولية - التوازن - الإيجابية - الواقعية - التوحيد)

وترصد الدراسة الثانية : أبعاد الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر . وهى تستخلص المعالم التأصيلية والفنية للرؤية الإسلامية من النصوص الأدبية ... فهى مزج بين التنظير والتطبيق ، والنص الأدبى هو المنجم الفياض بالقيم والمعايير التى يؤصل لها النقاد فى كل العصور .

وقد رصدت هذه الدراسة أربعة أبعاد للرؤية الإسلامية فى الشعر الحديث، فأما البعد الأول فيكشف عن تأثر الشعراء المعاصرين بالبيان القرآنى ، وجاء هذا التأثر كما ورد بالبحث - متعدد الاتجاهات .... ،

فبعض الشعراء جاء تأثره بالبيان القرآنى تأثراً كلياً شمولياً .. صياغة وفكراً وشعوراً والتزاماً بمنهج التصور الإسلامى وخصائصه .

وفريق من الشعراء جاء تأثره شكلياً أدائياً .. بعيداً عن نسيج الرؤية الإسلامية الطامحة إلى فعالية الوجود الحضارى المسلم ، فالتأثر حدث بالمعجم

القرآنى.. وبالأساليب الموجودة فى النصوص القرآنية ... وكذلك فى القصص القرآنى ...

وفريق ثالث : جاء تأثره سلبياً مضاداً ، وذلك لأن شعراء هذا الاتجاه أساءوا استخدام الألفاظ والتراكيب والمعانى القرآنية ، وكثير من الشعرآء المحدثين تورطوا فى هذا المزلق الفنى ، وبعضهم لا يدرك أبعاد خطورته ، ولا يدرى كيف انساق إليه .

والبعد الثانى من أبعاد الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر يرصد تأثير التراث الإسلامى فى تشكيل التجربة الشعرية ومحاور ذلك التأثير ، وآثر الباحث أن يقتصر البحث فى هذا البعد على محورين تاركاً الباب مفتوحاً للباحثين ...

والمحور الأول : يدور حول استدعاء الشخصيات التراثية الإسلامية ، وقد رصد الباحث منهج الشعراء وأسلوبهم فى استدعاء الشخصيات وبعثها فى الأعمال الشعرية الجديدة ، فالشخصية التراثية فى النسيج الشعرى - كما ورد فى ثنايا البحث - ليست تاريخاً يروى، وليست سيرة يحكيها الشاعر ، وانما استدعاؤها يكون فى إطار شعرى غير محدد بأسوار التاريخ ، وغير خاضع لمنطقه الحكم، وهذا الاستدعاء يسلط الشعور الناقد أو الرافض أو المتعاطف مع حركة الحياة المعاصرة ، وقد يقتصر هذا الاستدعاء على رصد بعد واحد من أبعاد الشخصية مثل البعد السياسى أو الاجتماعى ، وقد يتجاوز هذا البعد إلى الرؤية الشمولية للشخصية كلها ، وقد يخاطب الشاعر الشخصية من الخارج ولا يتوغل فى أعماقها، وقد يحصر استدعاءه للشخصية فى قالب مذهبى ، ويصوغ رؤيته لملامح هذه الشخصية انطلاقاً من هذا التصور المذهبى .

والمحور الثانى : من محاور تأثير التراث هو « الأمكنة الإسلامية وأثرها فى تشكيل النسيج الشعرى والمكان فى مدار الرؤية الإسلامية يصبح نقطة انطلاق للالتفاف حول مبادىء محدده مؤثرة يلتف حولها الشباب المعاصر الذى لم يعثر على هويته بعد .

أما المحور الثالث من أبعاد الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر فهو بعد زمنى يتمثل فى السفر إلى الماضى لبعث الحاضر وإحيائه وفق التصور الإسلامى ،

والسفر إلى الماضى لبعث الحاضر لا ينحصر داخل حدود الأحداث التاريخية ذات الإيقاع الحماسى مثل المعارك وغيرها ، بل يتجاوز هذه الأحداث إلى التغلغل فى صميم الحياة الإسلامية الناطقة بالوجه الحضارى للإسلام .

وأما البعد الرابع للرؤية الإسلامية : فيتمثل فى دور الطبيعة وتوظيفها فى تشكيل التجارب الشعرية ، فالطبيعة حين توظف فى تشكيل الرؤية الشعرية فى ظلال الإسلام لا تمثل مصدراً خارجياً ، ولا تمثل حالة نفسية كابية ، ولا رمزاً واقعياً منفراً ، وإنما تعد الطبيعة رافدا أساسياً فى حقل التجربة الشعرية ، وتعد نسيجاً يدفع بالتجربة خارج دائرة الرصد المباشر ، والتقريرية النثرية ، والنبرة الوعظية ، وتعطى للتجربة مذاقاً تأملياً إيمانياً وتدفع بها إلى رحاب الشمولية بعيداً عن التقوقع داخل أسوار الذات .

وقد رصد الباحث فى دراسة هذا البعد تجربة ثلاث شعراء لهم نتاجهم الممثل لهذه الظاهرة ، وهذه التجربة هى :

أ - تجربة عبد العليم القبانى فى ديوان « لله وللرسول »
ب ـ تجربة محمد بنعماره « وموقف الشاعر المسلم من الطبيعة رؤية وفناً »
ج - التجربة التأملية وإضاءات الطبيعة فى ديوان «مسافر إلى الله» لأحمد شبلول .

***

وأما الدراسة الثالثة فى هذا القسم فهى دراسة موجزة تحتاج إلى تفصيل وتحليل، وإنها دعوة حارة دفعت إليها الغيرة على قيمنا وتقاليدنا .. إن هذه الدعوة توقظ السادرين فى غيهم المقلدين لكل قيم الغرب الواردة إلينا ، ولا تتفق مع منهجنا فى الحياة ، ويرفضها التصور الإسلامى ، فواقعية الإسلام تقوم على أساس من العدالة والتقوى والتسامح والعمل الصالح ،

وليست قائمة على الصراع والتنافس والسعى إلى التفوق مهما كانت الوسائل حتى لو دُمِّر الآخرون .

ولا تقوم الواقعية الإسلامية على أسس العقد النفسية ، ومحاولة التفكك عن الخطيئة كما يشيع فى الأسس الفكرية والفنية للمذاهب الوافدة .

ولا تقوم واقعية الإسلام على محاربة القيم الروحية ورفض الغيبيات كما تنادى بذلك الواقعية المحزنة بكل اتجاهاتها (الأوروبية - والاشتراكية - والطبيعية) .

فواقعية الإسلام غير هذا كله إنها تقوم على أسس وخصائص التصور الإسلامى وقد جلت الدراسة الأولى قيمة هذه الخصائص وأوضحت أثرها فى التجربة الأدبية .

وتطمح هذه الدراسة إلى البحث عن معالم بصمات الشخصية الإسلامية والعربية فى أعمالنا الأدبية ، ولا تدعو إلى إعادة صياغة فكرنا وأدبنا بما يتفق مع ملامح هذه الشخصية حتى لاتفترسنا الواقعية المريضة المحزنة .

***

وأما القسم الثانى من هذا الكتاب . فهو دراسات نصّيه تطبيقية، تحلل بعض النماذج الأدبية .

والبيان النبوى يعد قمة البيان العربى بعد القرآن الكريم ، ومن هنا كانت الدراسة الأولى - من أسرار البيان النبوى فى خطبة حجة الوداع . وهى كنز من الأساليب المضيئة بالإيمان الناطقة بأدق أسرار لغتنا العربية الفصحى « لغة القرآن الكريم » .

ورصدت الدراسة الثانية « غزوة الخندق بين شاعرين » رؤية شاعر مسلم حظى بلقب « شاعر الرسول » فشعره نموذج للشعر الإسلامى رؤية وأداء .
وقصيدة « حسان بن ثابت » جاءت رداً على موقف مناهض لشاعر من شعراء المشركين وقتها .

وأعظم ما يقدمه الشعر الإسلامى هو الوقوف فى وجه المد الطاغى لموجات الرؤى المعادية للإسلام شريطة أن يقدم هذا الشعر فى ثوب فنى يحمل كل خصائص الشعر وأبعاده الجمالية .

أما الدراسة الثالثة ... فترصد تجربة شاعر معاصر لم يقدر لشعره الذيوع والانتشار ولكنه ينطوى على شاعرية سامقة ، وصوت الإسلام فى شعره قوى مؤثر، والدفاع عن الإسلام قضيته .. وهى منبع روافده الشعرية ومصبها ، فهو إما أن يبدأ منها ، وإما أن يعود إليها ، إنه يتحرك فى قلب هذه الدائرة مهما

تعددت اتجاهات شعره من ذاتية واجتماعية ، ووطنية ، ودينية ، وتأملية .

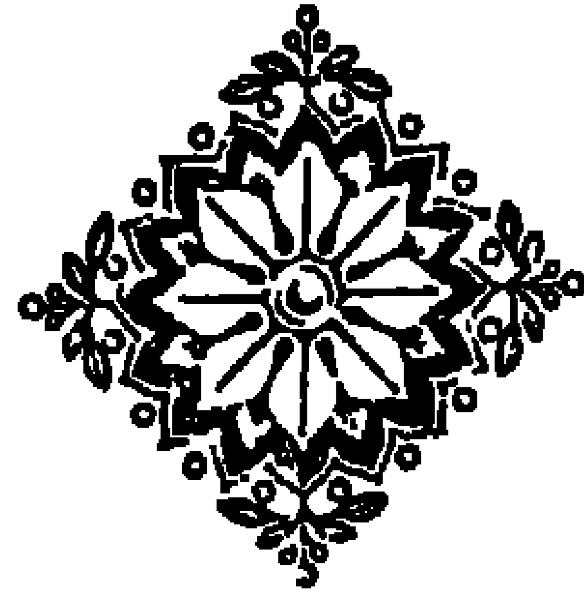
وأرجو من الحق سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه .. ففكرته وبعض دراساته أشرقت فى ظلال البلد الأمين « مكة المكرمة » .

وآمل أن يجد متذوقو الأدب ودارسوه ، ومبدعوه فى هذا الكتاب ما يحبون ، وأن يعثروا فيه على ما يرغبون انطلاقاً من المنهج الربانى فى قوله سبحانه: **﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾** صدق الله العظيم .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . صابر عبد الدايم

الزقازيق / غرة المحرم سنة ١٤١٠هـ - ٢ من أغسطس سنة ١٩٨٩م



القسم الأول
من معالم التأصيل

ويتضمن ثلاث دراسات :

أولا : معالم التجربة الأدبية فى ظل خصائص التصور الإسلامى .

ثانيا : أبعاد الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر .

ثالثا : يا أدباء الإسلام انتبهوا : هذه هى ملامح الواقعية المحزنة .

أولا : معالم التجربة الأدبية فى ظل خصائص التصور الإسلامى*

إن الشخصية الإسلامية لها مقوماتها التى لا تتجزأ ، ولها تصوراتها التى لا تقبل التشتت ، وهذه المعالم تنطلق من منظور كلى شامل ، فى العقيدة والكون والأدب والحياة ، فموقف المسلم من هذه المعالم . موقف متماسك غير مجزأ ، وحين ندرس خصائص التصور الإسلامى التى جلاها « سيد قطب » فى كتابه الذى حدده لطرح هذا التصور لا نكون بمنآى عن حقل التجربة الأدبية فى ظل التصور الإسلامى ، فكل ما حدده فى هذا الكتاب من خصائص لا يختص بالتصورالدينى فقط . بل يعالج ويدرس فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان ، وقد أشار إلى ذلك فى هامش الصفحة الخامسة من الكتاب .

والأديب المسلم فى ظل هذا التصور تنطلق تجاربه من منبع إيمانه الفياض بالتسليم المطلق لخالق الكون جل وعلا ، وهو يمزج هذه الانطلاقة الإيمانية بالتأمل فى مشاهد الكون ، والنظر فى ملكوت السماوات والأرض ، واستجلاء معالم القدرة الإلهية فى صنعة هذا الكون البديع المتناسق .

وهو فى غمرة تجاربه الإيمانية والتأملية لايكون بمعزل عن واقع الحياة ومشاغل الإنسان وآماله وأحلامه ، فهو فى إيمانه يتأمل ماخفى من أسرار الكون، وهو فى تأملاته يستجلى أسرار الحياة ، ويبحث عن منافذ الخلاص للإنسان عبر رؤية إسلامية متميزة متفردة تصاغ معالمها فى قالب فنى مؤثر .

والإمام الشهيد « سيد قطب » لم يكتف بالتنظير للتصور الإسلامى فى مجال التجارب الأدبية ، بل وجدناه يترجم هذه التصورات إلى واقع عملى أسلوبى فى مؤلفاته المتعددة ، فهو فى « ظلال القرآن » يستجلى بمعالم هذا التصور ،

---

* إضاءة : هذه الدراسة قراءة أدبية لكتاب « سيد قطب » [خصائص التصور الإسلامى] ويقع فى ٣٤٢ صفحة من الحجم المتوسط : إصدار الإتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية فى عام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م .

نشرت هذه الدراسة بجريدة « المسلمون بالسعودية » عام ١٩٨٧ م .

ويستنبط هذه الخصائص من خلال تحليله لأسلوب القرآن الكريم ومعانيه السامقه، وكذلك تحليله للقصص القرآني ، وكأنه يلقن الجيل الإسلامى الفريد فى هذا العصر وفى العصور المقبلة أسرار العربية والخصائص الفنية والشعورية والتعبيرية والصوتية لأرقى أسلوب وأسمى بيان ، وهو بهذا يقدم نموذجًا تحليلياً فى دراسة النص واستكشاف أبعاده الفكرية والجمالية ، وقد أشرق هذا التوجه فى كتابه « مشاهد القيامة » .

وفى كتابه « النقد الأدبى : أصوله واتجاهاته » يصوغ رؤيته للأدب الإسلامى قائلاً : « ...والأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى للحياة قد لا يحفل كثيراً بتصوير لحظات الضعف البشرى ، ولا يتوسع فى عرضها ، وبطبيعة الحال لا يحاول أن يبررها فضلاً على أن يزينها بحجة أن هذا الضعف واقع فلا ضرورة لإنكاره أو إخفائه ، وقد يلم - هذا الأدب أحياناً . بلحظات الضعف البشرى ، ولكنه لا يلبث عندها إلا ريثما يحاول رفع البشرية من وهدة هذه اللحظات وإطلاقها من عقال الضرورة وضغطها ، وهو لا يصنع هذا متأثراً بالمعنى الضيق لمفهوم « الأخلاق »إنما يصنعه متأثراً بطبيعة التصور الإسلامى للحياة ، وبطبيعة الإسلام ذاته فى تطوير الحياة وترقيتها وعدم الاكتفاء بواقعها فى لحظة أو فترة ، ... ثم يقول « وأخيراً فإن الإسلام لا يحارب الفنون ذاتها ولكنه يعارض بعض التصورات والقيم التى تعبر عنها هذه الفنون . ويقيم مكانها . فى عالم النفس . تصويرات وقيماً أخرى قادرة على الإيحاء بتصورات إبداعية ، وعلى إبداع صور فنية أكثر جمالاً وطلاقة، تنبثق انبثاقاً ذاتياً من طبيعة التصور الإسلامى ، وتتكيف بخصائصه المميزه »[1] .

وقد بنى « سيد قطب » كتابه (خصائص التصور الإسلامى)على الأسس التالية :

أولاً : كلمة فى المنهج

ثانياً : تيه وركام

ثالثاً : خصائص التصور الإسلامى وهى :

[الربانية - الثبات - الشمول - التوازن - الإيجابية - الواقعية - التوحيد]

---

(١) أنظر نص المقال بكتاب « النقد الأدبى » لسيد قطب من[ص ٩٩ - ١٠٢]

وهو فى تحديده لطبيعة المنهج الإسلامى يؤكد أنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود يتعامل على أساسه مع هذا الوجود ، لا بد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التى يتعامل معها ، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق : حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية . وهذه تشتمل على حقيقة الكون وحقيقة الحياة وحقيقة الإنسان وما بينها جميعاً من تعامل وارتباط » ص ٥

والأديب المسلم حين يمتزج وجدانه بأضواء الحقائق السابقة وتتشرب مشاعره معالمها، تأتى تجاربه شاملة متنوعة مؤثره ، تتجاوز الخاص إلى العام ، تسمو فوق الرغبات الدنيا ، تشتاق إلى معانقة الوجود - المثال - الوجود المسلم بكل ما يحمله من خير للإنسان ، وخصوبة للمشاعر ، ونقاء للأحاسيس ، وبذلك تدرك أهمية تعرف الشباب المسلم على هذه الخصائص ، والسير فى ظلها ، وفى أضوائها حين يسافر فى مدائن التجارب الإبداعية محملاً بشحنات العواطف وثمار الأفكار .

وفى تحديد معالم المنهج يأخذ « سيد قطب » بيدنا إلى تأمل أسمى ظاهرة فى التاريخ الإنسانى وهى « ظاهرة انبثاق أمة من خلال نصوص كتاب » وهى ظاهرة فريدة تؤكد أن «القرآن الكريم » به عاشت هذه الأمة ، وعليه اعتمدت فى الدرجة الأولى ، والسنة ليست شيئاً آخر سوى الثمرة الكاملة النموذجية للتوجيه القرآنى» ص٨ .

وتحديداً للمنهج يدعو الكاتب إلى ما نسميه فى تقويم التجارب الأدبية بـ «المعاناة» ومعايشة التجربة ،فيقول « فالقرآن لا يدركه من يعيش خالى البال من مكابدة الجهد والجهاد لاستئناف حياة إسلامية حقيقية ، ومن معاناه هذا الأمر العسير الشاق ، وجرائره وتضحياته وآلامه ، ومعاناة المشاعر المختلفة التى تصاحب تلك المكابدة فى عالم الواقع فى مواجهة الجاهلية فى أى زمان » .

وبعد الدعوة إلى معايشة البيئة الإسلامية الأولى زماناً ومكاناً ، يدعو « سيد قطب » إلى تجاوز دائرة الثقافة والمعرفة إلى آفاق الحركة المؤثرة ، فالوقوف عند حد « المعرفة الباردة » هدف « تافه ورخيص » « إنما نبتغى الحركة من وراء المعرفة . نبتغى أن نستحيل هذه المعرفة قوة دافعة لتحقيق مدلولها فى عالم الواقع ، نبتغى استجاشة ضمير الإنسان لتحقيق غاية وجوده الإنسانى ، كما يرسمها هذا التصور الربانى » ص ١٣ .

ويحذر « سيد قطب » من الوقوع فى شرك المؤثرات الثقافية الأجنبية فالتعامل معها يكون تعاملاً فاحصاً ، مقوماً ، بحيث لا يستحيل الإنسان المسلم - مفكراً أو فقيهاً - إلى جهاز استقبال فقط يحكى ما يسمعه أو يراه ، فإذا به بعد حين من الدهر يتلاشى ولا يعود شيئاً مذكوراً !!

وما مأساة الجيل الحاضر عنا ببعيد ، حيث تاه فى دروب الفلسفات المتباينة ، وتاهت عنا معالمه الحقيقية ، المعالم التى حددها القرآن العظيم (١) .

والكاتب يقرأ حركة التاريخ الإسلامى ، ويضع يديه على حقيقة الداء حيث اصطدم التطور الإسلامى بالفلسفات والثقافات الأخرى . واشتغل الناس بالفسلفة الإغريقية وبالمباحث اللاهوتية ، التى تجمعت حول المسيحية ، والتى ترجمت إلى اللغة العربية ، ونشأ عن هذا الاشتغال الذى لا يخلوا من طابع الترف العقلى فى عهد العباسيين وفى الأندلس أيضاً انحرافات واتجاهات غريبة على التصور الإسلامى الأصيل » ص ١٤ .

ويدين الكاتب الفلسفة الإسلامية لأن رجالها فتنوا بالفلسفة الإغريقية. وبالمباحث اللاهوتية وظنوا أن الفكر الإسلامى لا يستكمل مظاهر نضوجه واكتماله أو مظاهر أبهته وعظمته إلا إذا ارتدى هذا الزى . زى التفلسف، والفلسفة وكانت له فيه مؤلفات ، وأكد موقفه هذا الرافض لتغريب الفكر الإسلامى كما نقول فى هذا العصر بذكر ثلاث حقائق وهى :

أولاً : أن الفلسفة الإسلامية كما نقول لم تكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية منقولة نقلاً مشوهاً مضطرباً ، فى لغة سقيمة مما ينشأ عنه اضطراب كثير فى نقل هذه الشروح .

ثانياً : عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامى كانت تنم عن سذاجة كبيرة وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية وعناصرها الوثنية العميقة

---

(١) تفاصيل هذه المأساة تجدها مجلوة فى كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للشيخ أبو الحسن الندوى .

ثالثاً : أن انقسام المسلمين إلى فرق واعتناقهم لهذه الفلسفات جعلهم يبتعدون بالنصوص عن مرادها .

وينتهى الكاتب باقتناعه قناعة تامة بأنه يجب « عزل ذلك التراث جملة عن مفهومنا الأصيل للإسلام ودراسته دراسة تاريخية بحتة لبيان زوايا الانحراف فيه ، وأسباب هذا الانحراف ، وتجنب نظائرها فيما نصوغه اليوم من مفهوم التصور الإسلامى » ص ١٩

وأعتقد أن حماس « سيد قطب » وإخلاصه لقضية تصفية التصور الإسلامى من كل شائبة ، قد دفعا به إلى هذا الموقف الرافض لثمار الفكر الإسلامى فى أزهى عصور الحضارة الإسلامية ، وفى الحقيقة إننا لا نستطيع أن نلغى كل هذه الجهود الفكرية لعلماء الإسلام ، فهم لم يكونوا نسخاً مشوهة من فلاسفة الإغريق، وإنما وجدناهم يصفون ما يترجمونه ويحاولون الانتفاع بما يجدونه نافعاً فى مجالات التفكير ، فقد وقف علماء الإسلام فى وجه الملاحدة والزنادقة ، وأتباع « مزدك » و « مان » و « زرادشت » وناظروهم وأفحموهم ، ففكرهم برغم ما شابه من تأثر بالفلسفات الأخرى كان صورة لمقومات الشخصية الإسلامية ، ومكونات التصور الإسلامى ، ومن منا يستطيع أن ينكر جهود ابن رشد والكندى والفارابى وابن سينا والغزالى ، وكذلك جهود المحدثين والمفسرين والفقهاء وعلماء اللغة والأدب والبلاغة ، وكتب التراث حافلة بالمناظرات والحوارات والمناهج التى دافع من خلالها علماء الإسلام وفلاسفته عن عقيدة الإسلام الصافية .

وفى المجال الأدبى لم يقلد النقاد والشعراء الأدب الإغريقى « الوثنى » لأنه لم يترجم لهم كاملاً ، وكذلك لا يتوافق هذا الأدب بما يحوى من تصورا أسطورى ، ورؤية وثنية مع وجدان الشاعر المسلم ، وبرغم هذا الحذر لم ينج الشعراء والكتاب من إصابتهم بسهام هذه الثقافات الملحدة، فظاهرة المجون فى الشعر العباسى وسريان الخيط الفلسفى فى النسيج الشعرى عند أبى تمام والمتنبى وأبى العلاء يعد أثراً من آثار هذه الثقافات « اليونانية والفارسية والهندية » .

وبرغم هذه السمات السلبية للتأثر بالثقافات الأجنبية فى الفكر الإسلامى ، لا نستطيع أن نتوافق مع الكاتب فى عزل التراث جملة عن التصور الإسلامى ، لأن التأثير سمة كل حضارة زاهية مشرقة . والحضارة الإسلامية لها سماتها المميزة فى

الفكر والأدب والعماره والفنون ، وقد أثرت فى ازدهار الحضارات الأوروبية فى العصر الحديث .

وموقف « سيد قطب » من الفكر الفلسفى ومن التراث الإسلامى فى هذا المجال هو موقفه نفسه من مناهج التفكير الأوروبية حيث يرفضها ويؤكد على أنها لا تصلح أساساً للفكر الإسلامى وتصوره .

وفى أكثر من موضع فى كتابه يذكر بهذه الحقيقة ، فهو يردف رأيه فى الفلسفة الإسلامية ودعوته إلى عزل التراث الفكرى برأيه فى مناهج الفكر الغربى ويصفها بأنها « سارت فى طريقها الوثنى مستمدة ابتداء من الفكر الإغريقى وما فيه من لوثة الوثنية ثم مستمدة أخيراً من عدائها للكنيسة وللتفكير الكنسى فى الغالب » ثم يبين أن الفكر الأوروبى رفض منهج التفكير الدينى بجملته ، واتجه إلى ابتداع مناهج ومذاهب للتفكير .

ولنتأمل هذه الحقيقة الواقعة التى ذكرنا بها الأديب المسلم « سيد قطب » لنكشف أن هذه المناهج والمذاهب الفلسفية وجهت أدباء الغرب ، فإذا بالنتاج الأدبى بفنونه المختلفة تجسيد فنى لمبادىء هذه المذاهب على اختلافها وتباين مراحل تطورها من مثالية عقلية ، ووضعية حسية ، وجدلية مادية ولا تنتهى موجات هذه المذاهب ، وأحدث مولود تمخضت عنه « الجدلية المادية » هو « البنيوية » حيث أعلن أصحابها عن موت الإنسان وأصبحت الآلة هى مركز الكون الجديد فى منظور « البنيويين » !!.

فالأديب المسلم مطالب بالوعى التام ، والحذر الشديد وهو يقرأ التراث الإنسانى، مطالب بهضم ذلك التراث وتصفيته من الشوائب حتى لا تتحول تجاربه إلى مسخ شائه ، لا طعم لها ولا لون ولا رائحة فتجربة الأديب المسلم موشاة بإطار العقيدة السمحاء ، فالعقيدة - إطلاقاً - والعقيدة الإسلامية - بوجه خاص - تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص ، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع ، واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق الكبرى التى لا تتمثل كلها فى العبادة ، ولكن توحى بها العبادة ، كما يمتاز- هذا الأسلوب - بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها ، ولايخاطب الفكر وحده فى الكائن البشرى ص ٢٣

وثقافة كل أمة وكل « لغة » هى حصينة أبنائها المثقفين بقدر مشترك من أصول وفروع ، كلها مغموس فى الدين المتلقى عن النشأة كما يقول العلامة « محمود شاكر » ويتابع قوله عن ضرورة ارتباط اللغة بالدين وهما غير قابلين للفصل « فهو لذلك صاحب السلطان المطلق الخفى على اللغة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً ، سلطان لا ينكره إلا من لا يبالى بالتفكر فى المنابع الأول التى تجعل الإنسان ناطقاً وعاقلاً ومبيناً عن نفسه ، ومستبينًا عن غيره [1] .

والأديب المسلم ثمرة هذا التكوين الإسلامى المميز ، فأسلوبه شعاع من ذلك الأسلوب الذى كونه وامتاز بالحيوية والإيقاع واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق الكبيرة التى لا تتمثل كلها فى العبارة ، ولكن توحى بها العبارة .

وهذه السمات من أدق الخصائص التى يجب أن توشى التجربة الأدبية فى ظلال التصور الإسلامى .

وفى صدد إيضاح « سيد قطب » لخاصية « الثبات » فى التصور الإسلامى يعطينا المقابل فى الفكر الغربى القائم على النقيض لكى يكبر فينا الحذر ، ويتعمق الوعى ونحن نتعامل مع هذا الفكر فيقول :

« وحين نطالع مذاهب الفكر الغربى فنرى الطابع الغالب عليها هو اعتبار « التطور المطلق » دون الرجوع إلى أى أصل ثابت ، فيجب أن نكون واعين للعوامل التاريخية التى جعلت هذا الفكر يجنح أو يجمح هكذا ، ويجب أن نفطن لما اندس فى هذا الفكر من غذاء عميق كامن للتفكير الدينى على الإطلاق ، والأسباب القابعة وراء هذا العداء ، ويجب أن ندرك أن مناهج هذا الفكر - بما اندس فى صلبها من هذا العداء - لا تصلح للتطبيق على مناهجنا الإسلامية ، ولا تصلح للاستعانة بها فى تجربتنا الإسلامية كذلك » ص ١٤٧

ويتكرر الموقف نفسه من محاولات إقحام التصورات الأخرى فى دائرة التصور الإسلامى ، وهو يحلل خاصية « الشمول » إحدى خصائص هذا التصور فيؤكد أن

---

(١) أنظر رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا . للأستاذ محمود شاكر ص [١١١] « كتاب الهلال العدد ٤٤٢ أكتوبر سنة ١٩٨٧م

« هذا التصور من الشمول والسعة ، ومن الدقة والعمق ، ومن الأصالة والتناسق ، بحيث يرفض كل عنصر غريب عليه ، ولو كان هذا العنصر « اصطلاحاً» تعبيرياً من الاصطلاحات التى تقتضيها أزياء التفكير الأجنبية ، وللتصور الإسلامى اصطلاحاته الخاصة المتفقة فى طبيعة اشتقاقها اللغوى ، وفى ملابساتها التاريخية والموضوعية مع طبيعته وإيحاءاته ، وهذه ظاهرة دقيقة تحتاج إلى حس لطيف يدرك مقتضيات هذا التصور فى الشعور ومقتضياته كذلك فى التعبير » ص ١٦٥

وفى مجال توضيح خاصية « التوازن » فى التصور الإسلامى يوضح « سيد قطب» العلاقة بين الله والإنسان فهما ليسا كفوين ولا ندين ، ولا متصارعين ، ولا يرجع أحدهما ليشيل الآخر ، ولا يغلب أحدهما ليهزم الآخر ، ثم يوازن « الكاتب » بين التصور الإسلامى . حيث الإله متصف بكل كمال منزّه عن كل نقص « ليس كمثله شيء » وبين التصورات التافهة التى استقرت فى أذهان الأوروبيين تأثراً منهم بالأساطير الإغريقية والأساطير العبرية ، وتعاليم « نيتشه» الذى أعلن موت « الإله » ومولد الإنسان الأعلى « السوبر مان » !!!

ومن العجيب أن هذه الأساطير المرفوضة فى التصور الإسلامى تسللت فى غيبة الوعى الدينى عند كثير من المبدعين إلى حقول الابداع ، فإذا بصورة الإله تشوه فى أعمالهم الإبداعية ، ولفظ « الجلالة » لا تصان قداسته فى النسيج الإبداعى، وأصبحت التجربة الأسطورية القائمة على تشويه صورة « الإله » من أرقى التجارب الأدبية فى معيار النقد الحديث !!!

وهذا المنحى الفنى والمعيار النقدى أثر بارز مؤثر من آثار بريق الفكر الأوروبى الخادع الذى غمر بزيفه وخيالاته المريضة عقول المفكرين وقرائح الأدباء ، وأسطورة « سارق النار » بروميثيوس كم كانت .. ولا تزال وحياً لكثير من الشعراء ، وكم أشاد بها النقاد مثل غيرها من الأساطير القائمة على تشويه التصور الدينى فهى « تصور كبير الآلهة » « زيوس » غاضبًا على الإله «بروميثيوس » لأنه سرق النار المقدسة « سر المعرفة » وأعطاه للإنسان من وراء ظهر كبير الآلهة الذى لم يكن يريد للإنسان أن يعرف ، لئلا يرتفع مقامه فيهبط مقام كبير الآلهة ، ويهبط معه مقام « الإلة » ومن ثم أسلمه إلى أفظع انتقام وحشى رعيب ! ص ٢٢٦

وهذا التصور الأسطورى لحقيقة « الإله » عند الأوروبيين يعد صدى لما حفلت به ديانة بنى إسرائيل اليهودية من تصورات وثنية ، حيث « أثبتوا فى كتبهم المقدسة » ! وفي صلب العهد القديم أساطير وتصورات عن الله - سبحانه - لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين ، الذين لم يتلقوا رسالة سماوية ، ولا كان لهم من عند الله كتاب . ص ٣٩ - ٤٠.

وأسطورة « سارق النار » « برومثيوس » لا تبتعد كثيراً فى رؤيتها وهدفها عما جاء فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين (بعد ارتكاب آدم لخطيئة الأكل من الشجرة وهى كما يقول كاتب الإصحاح : « شجرة معرفة الخير والشر » وقد جاء النص التالى مصورا الإله فى صورة الخائف على نفسه من تفوق الإنسان عليه، ولا يخفى ما فى هذا الصراع من سخرية بالإله ، ومن وصفه بالحقد والشرور والانتقام !!!

يقول صاحب الإصحاح « وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله ، فى وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإله آدم . وقال له أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة ، فخشيت لأنى عريان . فاختبأت . فقال من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها؟

« وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا ، عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ! ويأكل ويحيا إلى للأبد . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ، ليعمل فى الأرض التى أخذ منها ، فطرد الإنسان . وأقام شرقى جنة عدن « الكروبيم » ولهيب سيف متقلب « لحراسة شجرة الحياة » ص ٤٤

فهذه التصورات «الوثنية » التى كمنت فيها التصورات الأسطورية المختلفة « تحمل فى صميمها عداء طبيعياً للتصور الإسلامى وللفكر الإسلامى ولا تصلح بتاتاً للاقتباس منها أو الاستعانة بها ، هى كالسم الذى يتلف الأنسجة ، ويؤذى الأعضاء ، ويقتل فى النهاية إذا اكثر المقدار » ص ٢٢٧

وفي مجال المقارنة بين منهج الإسلام المعتدل المتوازن في تلبية مطالب الروح

ومطالب الجسد ، وبين ما ذهبت إليه النصرانية كما صنعتها الكنيسة من أن الشر كله ممثل فى عالم الجسد ، أى عالم المادة ، والخير كله فى عالم « الروح » ومن ثم اقتضى الأمر احتقار كل ما هو مادى ، والهروب منه : يقول بعد ذلك كاشفاً عن الخلط والفساد فى التصور الفلسفى فى القرن التاسع عشر حيث قام من يجعل من الطبيعة إلهاً ، ويجعل من العقل البشرى مخلوقاً من مخلوقات هذا الإله كما فعل « كونت » و « نيتشه » من زعماء المذهب الوضعى ، ومن يجعل جانبا من عالم المادة وهو « الاقتصاد » إلهاً يخلق العقول والأدباء والفلسفات و «الأدب» والأخلاق كما فعل « كارل ماركس » ! ويحط من قيمة الإنسان تجاه هذا الإله ، فيجعله عاملاً سلبياً لا يقدم ولا يؤخر، إنما يتلقى فقط ويتأثر » ص٢٤٣

وحين يعرض « سيد قطب » «لإيجابية التصور الإسلامى »معتقداً وفكراً وأدباً وحياة وسلوكيات فى هذه الحياة يحرض على المقارنة بين إيجابية هذا التصور فى علاقته بخالق الكون ، وبين سلبية التصورات الأخرى ، وهذه الإيجابية فى التصور نراها سارية فى تجارب الأدباء الإسلاميين رؤية وأداءً أو من شأنها أنها تسرى وتصبغ إبداعهم بصبغه السمو الروحى ، والتفاؤل المشرق حيث لا تغرق الرؤى فى ضباب الأحزان ولا تحرق بنار الألم المبدعة ، ولا تستعذب الألم لذاته ، وإذا لم تجده تخيلته وصورته شبحا لا يفارق كما يقول « شاتو بريان » « فالصفات الإلهية فى التصور الإسلامى ليست صفات سلبية ، والكمال الإلهى ليس فى الصوره السلبية التى جالت فى تصور أرسطو ، وليست مقصورة على بعض جوانب الخلق والتدبير كما تصور الفرس فى صفات « هرمز » إله النور والخير، واختصاصاته ، وليست محدودة بدرجة من درجات الخلق كتصور أفلاطون ، وليست محدودة بحدود شعب كتصورات بنى إسرائيل ، وليست مختلطة أو متلبسة بإرادة كينونة أخرى كبعض تصورات الفرق المسيحية ، وليست معدومة على الإطلاق كما تقول المذاهب المادية التى تنفى وجود الإله الحى المريد - إلى أخر هذا الركام » ص ٢٤٦

وانطلاقاً من هذا التصور يخالف « سيد قطب » رائدين من رواد الفكر الإسلامى فى العصر الحديث وهما « محمد إقبال » والشيخ « محمد عبده » .

فأما اختلافه مع إقبال فيرجع إلى أن إقبال « حاول أن يصوغ التصور الإسلامى

فى قالب فلسفى تأثراً منه بالمناهج الفكرية فى أوروبا ، ورغبة منه فى « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام » وقد أراد أن ينفض عن « الفكر الإسلامى » وعن الحياة الإسلامية ذلك الضياع والفناء والسلبية كما أراد أن يثبت للفكر الإسلامى واقعية « التجربة » التى يعتمد عليها المذهب التجريبى ثم المذهب « الوضعى » ولكن النتيجة كما استخلصها « سيد قطب » تمثلت فى عدة ظواهر :

أ - الجموح فى إبراز الذاتية الإنسانية حيث اضطر إقبال إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلاً تأباه ، طبيعتها كما تأباه طبيعة التصور الإسلامى .

ب - ذهب إقبال إلى أن الموت ليس نهاية التجربة - ولا حتى القيامة ، فالتجربة والنمو فى الذات الإنسانية مستمران أيضاً عنده بعد الجنة والنار ، وهذا التصور لا يفرق بين دور الإنسان فى الحياتين - الدنيا والآخرة - فحياة الإنسان لا تسمى تجربة لأنها من صنع مدبر حكيم . فهو يتحرك فى دائرة المشيئة الإلهية ، وكذلك الدنيا دار ابتلاء وعمل ، والآخرة دار حساب وجزاء ، وهذا الغلو في التصور إنما من الرغبة الجارفة في إثبات وجود «الذاتية» واستمرارها أو ال«أنا» كما استعار إقبال من اصطلاحات «هيجل» «الفلسفية» .

ج - اصطلاح « التجربة »الذى استعاره « إقبال » من الفكر الغربى، حاول أن يمد مجاله إلى « التجربة الروحية » التى يزاولها المسلم ويتذوق بها الحقيقة الكبرى، وذلك مخالف للحقيقة لأن « التجربة بمعناها الاصطلاحى الفلسفى الغربى، لا يمكن أن تشمل الجانب الروحى أصلاً لأنها نشأت ابتداءً لنبذ كل وسائل المعرفة التى لا تعتمد على التجربة الحسية » ص ٣٢

وأما اختلاف « سيد قطب » مع الشيخ محمد عبده . فيرجع إلى أن الشيخ الإمام حين أراد أن يواجه الجمود العقلى فى الشرق والفتنة بالعقل فى الغرب جعل العقل البشرى نداً للوحى فى هداية الإنسان ، ولم يقف به عند أن يكون جهازا من أجهزة الكائن البشرى يتلقى الوحى » .

والحقيقة كما يقول « سيد قطب » أن الوحى والعقل ليسا ندين . فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل وأحدهما جاء ليكون هو الأصل الذى يرجع إليه الآخر ، والميزان الذى يختبر الآخر عنده مقرراته ومفهوماته وتصوراته . ويصحح به

اختلافاته . وانحرافاته ، فبينهما - ولا شك - توافق وانسجام ولكن على هذا الأساس لا على أساس أنهما ندان متعادلان ص ٢٩

ومما يؤكد ما ذهبت إليه فى بداية هذه الدراسة من ضرورة تواجد التجربة الإبداعية الإسلامية فى إطار التصور الإسلامى بخصائصه ومقوماته أن الكاتب الشهيد يحدد الغاية من كتابه فى نهاية المبحث الأول قائلاً :

«هذا الكتاب محاولة لتحديد خصائص التصور الإسلامى ومقوماته التى ينبثق منها منهج الحياة الواقعى - كما أراد الله - ودستور النشاط الفكرى والعملى والفنى الذى لا بد أن يستمد من التفسير الشامل الذى يقدمه ذلك التصور الأصيل » ص ٣٣

فإن التجربة الإبداعية الإسلامية تنبثق من خصائص التصور الإسلامى، وتموج بكل ما تحمله التجارب الأدبية من عاطفة جياشة ، وخيال متوقد وبصيرة نافذة، ورؤى متفتحه على الآفاق الكونية ، والطموحات الإنسانية ، وهى فى تفتحها المستنير لا تنفصل عن دائرتها الكبرى دائرة « الإسلام » ومع ذلك فهى ليست بمنأى عن البيان العربى المشرق ، ولا تنطفىء فى أدواتها إشراقة الفن ، ولا يخبو وهج الأداء فى تعاملها مع الله والكون والحياة !

وقبل أن يحلل « سيد قطب » خصائص التصور الإسلامى ، نراه يقدم لهذه الخصائص ببحث عنوانه « تيه وركام » وهو يقصد بالتيه تخبط الإنسانية على مدارها الطويل ، وفى مسيرتها المتعاقبة جيلاً بعد جيل ، واصطدامها بتراكمات من الفكر المشوه المبتور النائى عن الرؤية الواضحة والتصور اليقينىّ الحاسم يقول :

« وكان التيه الذى لا دليل فيه ، ولا هدى ولا نور ولا قرار ولا يقين ، هو ذلك التيه الذى يحيط بتصورات البشرية لإلهها وصفاته ، وعلاقته بالكون وعلاقة الكون به ، وحقيقة الإنسان ومركزه فى هذا الكون وغاية وجوده الإنسانى ، ومنهج تحقيقه لهذه الغاية ، ونوع الصله بين الله والإنسان على وجه الخصوص .

ومن هذا التيه ، ومن ذلك الركام ، كان ينبعث الشر كله فى الحياة الإنسانية

وفى الأنظمة التى تقوم عليها [1] .

ومنهج « سيد قطب » فى رصد الظواهر يقوم على الاستقراء التاريخى، وتتبع مواطن الظاهرة فى القرآن الكريم ، فنصوص القرآن هى منبع المنهج ومصدره الحق الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ويذهب الكاتب إلى أن المسلم عليه أن يتعرف على هذا الركام ، ويتبين أبعاد هذا التيه حتى يشعر بحلاوة الإيمان ، ويدرك عظمة التصور الإسلامى ، وبضدّها تتميز الأشياء كما قال القدماء ، يقول عمر رضى الله عنه « ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ فى الإسلام ولم يعرف الجاهلية » فالذى يعرف الجاهلية .... هو الذى يدرك قيمة الإسلام ، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه ونعمة الله المتحققة به » ص ٦٢

وهذه الدعوة إلى معرفة النقيض أو اكتشاف معالم الوجه المضاد تفتح أمام المفكر المسلم ، والأديب المسلم أبواباً متعددة للدخول منها إلى عوالم الثقافة القديمة والحديثة ، فالأديب المسلم ليس بمعزل عن التيارات السائدة ، بل عليه أن يتحصن ضد المعرفة بالمعرفة ، فيصفى ، وينتقى ، ويحلل ، ويفحص ما يقدم إليه ، ويقبل ما يتوافق مع فطرته الإنسانية ، ورؤاه الفنية ، ويكشف زيف الفكر الدخيل ، والرؤى الهدامة، وهذه هى « الحركة الإيجابية » التى يتجاوز بها المسلم دائرة المعرفة الجامدة الباردة ، وصدق الله العظيم .

أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى ...أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم

وإلى خصائص التصور الإسلامى نبحر مع الإمام الشهيد «سيد قطب» لعلنا نعثر على ما فى القاع من كنوز مسترشدين بقول الحق سبحانه « فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكث فى الأرض » .

أولا : الربانية [٦٥ - ١٢٠]

يحدد الكاتب هذه الخاصية ويؤكد أنها هى التى تنبعث منها وترجع إليها الخصائص من الثبات والشمول والتوازن والإيجابية والواقعية والتوحيد ، فهذه

---

(١) ارجع إلى كتاب « خصائص التصور الإسلامى » من ص [٣٩ - ٦١]

الخصائص تتعدد وتتنوع وتتوزع ولكنها تتضام وتتجمع عند خاصية واحدة (خاصية الربانية).

« إنه تصور ربانى ، تصور غير منظور فى ذاته ، إنما تتطور البشرية فى إطاره ، وترتقى فى إدراكه وفى الاستجابة له . وتظل تتطور وتترقى وتنمو وتتقدم ، وهذا الإطار يسعها دائماً ، وهذا التصور يقودها دائماً ، لأن المصدر الذى أنشأ هذا التصور ، هو نفسه المصدر الذى خلق الإنسان » ص ٦٦

وعلى الرغم من تعدد الأديان السماوية ومن دعاوى الكثيرين بإيمانهم بالربوبية نجد أن هذه التصورات انحرفت عن المنهج السوى ، والتصور الإسلامى هو التصور الاعتقادى الوحيد الباقى بأصله الربانى « وحقيقة الربانية » .

ويتواصل تفكيرنا ، وتتحاور مشاعرنا مع « سيد قطب » وهو يوضح القول الفصل بين التصور الفلسفى والتصور الاعتقادى حيث يذهب إلى أن التصور الفلسفى ينشأ فى الفكر البشرى من صنع هذا الفكر لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الإنسان به ولكنه يبقى فى حدود المعرفة الفكرية الباردة ، فأما التصور الاعتقادى - فى عمومه - فهو تصور ينبثق فى الضمير ، ويتفاعل مع المشاعر ، ويتلبس بالحياة ، فهو وشيجة حيه بين الإنسان وخالق الوجود » ص ٦٢

ولنتأمل موحيات التعبير فى العبارة السابقة « ينبثق فى الضمير - يتفاعل مع المشاعر - يتلبس بالحياة » إن هذه المعالم التى حددها الكاتب للتصور الاعتقادى تؤكد على الصدق الداخلى وعلى التصديق القلبى ، وترجمة هذا التفاعل الصادق إلى حركة مؤثرة تبنى الحياة ، وهذه الحركة الإيمانية قد تكون عملاً حسياً يدوياً أو آلياً ، وقد تكون فكراً هاديًا مستنيراً ، وقد تكون عملاً إبداعيًا متوجًا ، يتعمق أسرار الوجود ، ويضىء زوايا النفس البشرية ، ويقرأ كتاب الكون المفتوح ، ويستجلى مرائى الطبيعة ومشاهدها ، وينطقها بآيات القدرة الربانية الخلاقة المبدعة .

ويركز الكاتب فى هذا المبحث على مفهوم الإنسان فى التصور الإسلامى وعلاقته بالكون وخالقه « والإنسان ينطوى على أسرار عميقة مهما جد العلماء فى الوصول فلن يستطيعوا الوصول إلى منابعها ، والعلم قد يتقدم فى معرفة

جوانب من حقيقة الإنسان أكثر مما عرف ، ولكن أسرار التكوين الإنسانى ستظل خافية عليه أبداً ، سيظل سر الحياة وسر الموت خافيين تماماً ، وسيظل سر الروح الإنسانى بعيداً عن مجال إدراكه .لأن شيئاً من هذا كله لا يلزمه فى وظيفته الأساسية» ص٩٤

والإنسان فى التصور الإسلامى لا يصنع لنفسه التصور الاعتقادى ، وعلى أساس من الحقيقة السابقة يضع « سيد قطب » نماذج من البشر ضلت طريقها ، وانحرفت عن جادة التصور ، وهم الذين حاولوا إنشاء تصورات اعتقادية من عند أنفسهم ، والذين أنشأوا تصورات فلسفية لتفسير الوجود وارتباطاته ، والذين حرفوا العقائد السماوية وبخاصة « النصرانية » وكان هذا الانحراف طريقاً إلى البلاء الذى يعم البشرية كلها اليوم ، وقد عم طوفان هذا البلاء نتيجة لتدخل الفكر البشرى فى أصل التصور الربانى ، وهو بلاء لا يعدله آخر فى تاريخ البشرية الطويل .

« وقد حفظت أصول التصور الإسلامى من تحريف البشر ، وإنما وقع التحريف فى أصول الديانة المسيحية ، وقد مر الصراع بين الدين والعقل والحس فى تاريخ الفكر الغربى بعدة مراحل تمثلت فى المثاليّة العقلية ثم الوضعية الحسيّة ثم الجدلية المادية ، حيث تمثلت المرحلة الأولى فى سيادة النص أو الدين طوال القرون الوسطى، وتمثلت المرحلة الثانية فى سيادة « العقل » حيث كان عصر (التنوير)أو العصر الإنسانى ، وتمثلت المرحلة الثالثة فى « سيادة الحس » وسمى ذلك العصر عصر الوضعية وسيادة الطبيعة على الدين والعقل ، وسيادة الطبيعة على الدين والعقل تفتق عنها نشوء (الماركسية) فالعقل انعكاس للمادة عند ماركس ، وليس كما يصرح (هيجل) بأن المادة انعكاس للعقل ، وفى منظور هذا الفكر المادى يصبح كل الإنتاج الثقافى والذهنى فرعاً عن الحياة الاقتصادية ، وكل التاريخ لهذا يجب أن يكون تاريخ اقتصاد » ص ١٠٨

وهذا الركام من التصورات الوضعية التائهة فى خضم الفلسفات المتناقضة والتى يقوم التالى منها على أنقاض السابق أثرت فى تجارب الأدباء الغربيين من قصاصين وشعراء وكتاب ملاحم ، وكتاب مسرحيات مثل بلزاك ، وبودلير ، ورامبو، وتولستوى ، وغيرهم من الذين صاغوا الفلسفات السابقة صياغة فنية ،

وأصبحت أعمالهم الإبداعية ترجمة لها .

فالنزعة الكلاسكية نشأت فى أحضان « سيادة النص أو الدين » كما صورته الكنيسة وقد حدد « يرونتير » خصائص الكلاسكية فقال (إنما يكون الكاتب كلاسيكياً لأن كل القدرات تؤدى فى أعماله الأدبية وظائفها المشروعة دون طغيان من جانب الخيال على العقل ، ولا كبح من جانب المنطق لجماح الخيال ، ولا عدوان من جانب العواطف على حقوق العقل، ولا إطفاء من جانب العقل لحرارة العواطف، ولا حرمان للمادة من سلطان الجاذبية الذى ينبغى أن تستمده من سحر الشكل ، ولا اغتصاب من جانب الشكل لما هو من خصائص المادة » .

وقد مرت الكلاسكية بعصور متعددة وهى : عصر النهضة وعصر الباروك ، وعصر انتصار القواعد ، وعصر التنوير ، ومن أهم أدباء عصر النهضة (جوفان بوكاتشو) وقد أثر فى شكسبير ، ولوبى دى ڤيجا ، وليسنج وجوته . ومن أهم أدباء عصر (الباروك) فرنسيس بيكون فى انجلترا وديكارت فى فرنسا ، ولوب دى ڤيجا فى أسبانيا .

وعصر (انتصار القواعد) من أهم أدبائه(راسين ، لا ڤونتين ، موليير ، بوالو).

وعصر التنوير من أهم أدبائه (دانييل ديفو ، مونتسكيو ، ڤولتير، روسو ، جوته).

وبرغم نشأة الأدب الكلاسيكى فى « عصر سيادة النص أو الدين نجده ثائراً على تقاليد الكنيسة ومصبوغاً بالصيغة العلمانية حيث قام على بعث ومحاكاة التراث الوثنى الإغريقى ، وانصبت التجارب الكلاسيكية على الاهتمام بالوجود المادى بالحياة الدنيا والوجود الإنسانى فيها ، وكذلك كانت هناك عودة إلى الإباحية الرومانية ، يقول (رابليه) وهو من ألمع أدباء النهضة . متحدثاً عن رجال الدين ومحارباً التصور الدينى « أولئك الرعاع ذوى العقول الزائفة . الماكرين والقديسين المزورين ، الوقورى الهيئة ، المرائين ، مدّعى الإيمان ، الإخوان الخشنين .. الرهبان الذين يلبسون النعال . أهرب من هؤلاء الرجال ... عليك بكراهيتهم واحتقارهم قدر ما أكرههم أنا . وإننى لأقسم لك أنك إن فعلت فستجد نفسك أفضل حالاً ».

والنزعة الرومانتكية نشأت فى ظل « المثالية » وقد ولدت النزعة المثالية لديهم إحساسا عبثيا تجاه الوجود ، وكذلك الشعور بالاغتراب الزمانى والمكانى ، وا لحنين إلى عالم مثالى لا يوجد إلا فى أحلامهم يقول (چيراردى ترڤال) لكل فنان وطن مثالى غالباً ما يكَون بعيداً عن وطنه الأصلى ، ترتاح إليه موهبته الفنية ، والرومانسية إن غاية النشوة وقمة السعادة تكمن فى أن يطلق الإنسان عنان نفسه لتذوب فى حب الطبيعة وتفنى فيها كما يفنى الصوفى فى معبوده ، ولذا أحلت الطبيعة محل « الله » والشعور محل « العقل » بهذا الاعتقاد . وهى من هذا المنطلق وتلك الرؤية تكشف عن صورة وثنية جديدة .

ويقول الأستاذ / محمد قطب فى كتابه « جاهلية القرن العشرين»

« وكل الكلام الجميل المعسول الذى قيل لتبرير هذه الوثنية أن الطبيعة محراب الله ، وأن الجمال صورة الله ، إننا نعبد الله فى خلقه ، إلى آخر هذه الجمل الرومانتيكية البراقة ، كل هذا الكلام لا يستطيع أن يخفى تلك الروح الوثنية الغارقة فى الوثنية التى تعبد المحسوس فى حقيقة الأمر لأنها تعجز عن إدراك الله بالروح ... والروح غنية عن المحسوسات[١] .

والواقعية الطبيعية والواقعية الاشتراكية ، ومدرسة الفن للفن ، والسريالية والرمزية . وما جدَّ بعد ذلك من مذاهب نشأت كلها فى ظل سيادة الحس . وسيادة الجدلية المادية التى انبثت عن الوضعية الحسية ، وكلها تنأى عن التصور الدينى .. بل وتحاربه . فنشأة مذهب « الفن للفن » وكذلك المذهب البرناسى كانت على أساس فلسفى مزدوج ، حيث يعتمد هذا المذهب من ناحية على الفلسفة المثالية الجمالية ، وأعظم دعامة لهم من هذه الناحية فلسفة ، كانت ، ومن ناحية ثانية على الفلسفة الواقعية والتجريبية التى سادت أوروبا منذ حوالى منتصف القرن الرابع عشر[٢].

---

(١) أنظر جاهلية القرن العشرين للأستاذ / محمد قطب (٢٢٦- ٢٢٧).

وأنظر العلمانية ص[٤٦٦] د/ سفر بن عبد الرحمن الحوالى

(٢) أنظر الأدب المقارن للأستاذ محمد غنيمى هلال

ويقول فكتور كوزان « فى إحدى المحاضرات التى ألقاها فى السربون عام ١٨١٨م الشريعة لأمور الدين ، والخلق للخلق ، والفن للفن ، ولا يمكن أن يكون الفن طريقاً للنافع ، ولا للخير ، لأن الفن لا يقود إلا لذات نفسه ».

ويقول « تيوفيل چوتيه » مترجماً مبادىء أنصار «الفن للفن» ، ونحن نعتقد فى استقلال الفن ، فالفن ليس لدينا وسيلة ، ولكنه الغاية، وكل فنان يهدف إلى ماسوى الجمال فليس بفنان فيما نوى ، ولم نستطع قط التفرقة بين الفكرة والشكل ، فكل جميل هو فكرة جميلة[1] .

والنزعة الواقعية فى مجال النثر كان لها تأثيرها الفعال ، فالفن القصصى والمسرحى والروائى كان معبراً لأصحاب هذه النزعة التى شوهت واقع الإنسان، وابتعدت به عن الفطرة السليمة ونادت بأن « الإنسان للإنسان ذئب ضار » ولا يدرى أصحاب هذه النزعة فى الواقع طعمًا للخير ، بل يعتقدون أن الواقع شر فى ذاته » .

فهل يحق لنا نحن - الأدباء المسلمين - أن نقلد هذه التيارات تقليداً أعمى ، ونسترشد بها فى غير حذر ، ونضعها فى قمة النضج الإبداعى أمام حسّنا الفنى ، وهى صدى للفلسفات الشوهاء التى أفرزتها مراحل تطور الفكر الأوروبى من مثالية عقلية إلى وضعية حسية إلى جدلية مادية ، وقد ينطوى بعض هذه الاتجاهات الإبداعية على قيم عالية يمكن أن نفيد منها ، ولكن الانتصار للفن لا يكون طريقاً لحجب الرؤية الحقيقة عن الإنسان ، ولا يجعله يضحى بخصائصه وسمات شخصيته النابعة من خصائص وسمات التصور الإسلامى ، حيث تغلف « الربانية » كل نتاج إبداعى ، وتنأى بذلك النتاج عن التصورات الوثنية التى أطاحت بفطرة الإنسان وألقت به فى متاهات الحيرة والقلق والضياع !!!

ثانيا : الثبات

وخاصية الثبات فى التصور الإسلامى تنشأ عن خاصية « الربانية » وقد صاغها « سيد قطب » فى صورة دالة موحية .. صورة حركية فقال إنها ......أى خاصية الثبات « الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت » وهذه الخاصية بهذا

---

(١) المرجع السابق ص [٣٨٧]

المفهوم طابع الصنعة الإلهية فى الكون كله لا فى التصور الإسلامى وحده .

ويبرهن « سيد قطب » على هذا المفهوم ببرهان واقعى ملموس . فمادة هذا الكون سواء كانت هى الذرة أو الإشعاع البسيط أو أى صورة ثابتة الماهية ، ولكنها تتحرك فتأخذ أشكالا دائمة التغير والتحور والتطور ، وقياسا على هذا الاستدلال يمكن أن نقول . إن رؤية الأديب المسلم ثابتة منطلقة من منظور مؤمن بخصائص التصور الإسلامى ، ولكن هذا الثبات يتحرك فى طريقة صياغة هذه الرؤية فى صورة تجربة شعرية بكل أشكالها أو تجربة قصصية بكل ما تحمل من اتجاهات وأنواع، أو تجربة مسرحية ، مع ضرورة وعى الأديب المسلم بأصول هذه الفنون وقيمها الفنية ومجالاتها فكل فن تتعدد أشكاله وقوالبه . فالصياغة حركة فنية جمالية داخل إطار الرؤية الإسلامية الثابتة ، والأديب المسلم تأتى رؤيته الفنية ربانية ثابتة متوازنة شمولية ، إيجابية ، واقعية ، رافضة لكل أشكال ومضامين الوثنية القديمة والحديثة .

ويضع أمامنا « سيد قطب » عشر حقائق ليؤكد مظاهر الثبات فى التصور الإسلامى وهى :

١ - حقيقة وجود الله .
٢ - الكون كله من خلق الله وإبداعه .
٣ - حقيقة العبودية لله ، عبودية الأشياء والأحياء .
٤ - حقيقة الإيمان بالله شرط لصحة الأعمال وقبولها .
٥ - حقيقة أن الدين عند الله الإسلام .
٦ - حقيقة أفضلية الإنسان على سائر الخلائق فى الأرض .
٧ - المساواة بين الناس والتفاضل لا يكون إلا بالتقوى .
٨ - غاية الوجود الإنسانى هى العبادة لله .
٩- العقيدة هى رابطة التجمع الإنسانى لا الجنس ولا القوم ولا الأرض ولا اللون ولا الطبقة .
١٠- الدنيا دار ابتلاء وعمل والآخرة دار رحاب وجزاء .

وكما قلت : إن منهج « سيد قطب » يقوم على استنباط الحقائق ثم الموازنة

بينها وبين الظواهر التى انحرفت عن جادة الصواب ، فبعد أن عرض لمظاهر الثبات. وضح آثار البعد عن محور الثبات ، ودل على أن فكرة التطور المطلق تناقض الأصل الواضح فى بناء الكون ، ثم أقام الحجة على رواد الفكر الغربى ونقض مسببات فكرة الثبات عندهم ، ورد على داروين ، وسفه فكرة التطور التى نادي بها ، وتحدث عن الماركسية ومبدأ النقيض الذى استخدمه « فيشته » فى مجال التصور ، واستخدمه « هيجل » فى مجال الفكرة وخالفهما ماركس واستخدمه فى مجال الاقتصاد ، فكل شيء فى نظره يتضمن نقيضه بحيث أن كل شيء يهدم نفسه .

ثم يقول مقوما طريقة التأثر بهذه الأفكار « إننا نقتبس من هذا الفكر تارة مناهجه ، وتارة النتائج التى وصل إليها وتارة رقعا ممزقة منه، ثم نخلط هذا كله بحديثنا عن الإسلام أو عن مناهج الفكر والنظر، وهذه كلها جهالة تتباهى وهى تتبدى فى ثياب المعرفة ، وأحياناً يضاف إلى الجهالة التفاهة وسوء النية كذلك ».

ثالثا : الشمول

وأبرز ما فى هذه الخاصية أن التصور الإسلامى لا يحده زمان ولا مكان، بل هو خطاب للعالمين ، وفى المقابل : التصور البشرى مسور بحدود الزمان والمكان ـ «ولايمكن أن تجيء فكرة بشرية ولا أن يجيء منهج من صنع البشرية يتمثل فيه الشمول آبداً إنما هو تفكير جزئى أو تفكير وقتى ومن جزئيته يقع النقص ، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذى يحتم التغيير ، ويتمثل فى الأفكار التى استقل البشر بصنعها ، وفى المناهج التى استقل البشر بوضعها دوام التناقض أو دوام الجدل المتمثل فى التاريخ الأوروبى »(١) .

وهذا التصور الشامل له آثار حميدة فى توجيهات النشاط العقلى والمشاعر الوجدانية ، وتساؤلات الإنسان المحيرة عن المسافة بين الوجود والعدم ، والمسافة بين المادة الجامدة والخلية الحية والتعرف على سر انبثاق الحياة فى المادة الميتة ، وسر سيرتها هذه السيرة العجيبة .

---

(١) أنظر كتاب « خصائص التصور الإسلامى » للأستاذ سيد قطب [١٥٥-١٥٦]

وكل هذه الآثار يمكن أن تحوم أطيافها حول رؤى الشعراء ، ومشاعر الأدباء ، ويمكن أن تصبح من مكونات تجاربهم الأدبية المتنوعة ، ولكن هذه الأطياف العائدة من مدن الحلم والشوق إلى معانقة الحقيقة لا تقود المسافر فى مدائن التأملات الكونية إلى فضاء التساؤلات ولا إلى عبثية الرؤية ، بل تقوده إلى مرفأ اليقين ، واستقرار الرؤى ، فالتصور الإسلامى عن طريق هذه الخاصية فى صورتها هذه « يمنح القلب والعقل راحة وطمأنينة واتصالاً بحقيقة المؤثرات الفاعلة فى هذا الوجود، كما هى فى عالم الحقيقة والواقع ، ويعفى الفكر البشرى من الضرب فى التيه بلا دليل ، ومن الإحالة على أسرار غير مضبوطة ، وأحيانا غير موجودة كالإحالة على « الطبيعة » أو الإحالة على « العقل » أو الإحالة على كائنات أسطورية كالتى تصورتها الوثنيات .وتلبست بها الفلسفات على مدار التاريخ»(١)

وخاصية الشمول فى التصور الإسلامى يمكن أن تصبح طابعاً لصياغة التجارب الأدبية ، حيث تتسم بالشمول والخطاب الإنسانى الدائر فى فلك هذا التصور ، والسمو بالتجارب الذاتية الخاصة إلى الآفاق الفسيحة الشاملة حيث تتعامل مع الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها .

ومن خلال هذا التصور الشامل « تتجمع هذه الكينونة .. تتجمع شعوراً وسلوكاً ، وتصوراً واستجابة فى شأن العقيدة والمنهج ، وشأن الاستمداد والتلقى ، وشأن الحياة والموت ، وشأن السعى والحركة ، وشأن الصحة والرزق ، وشأن الدنيا والآخرة ، فلا تتفرق فرقاً ولا تتجه شتى السبل والآفاق ، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق »(٢).

واتكاءً على هذا التصور الشامل يكرن تفاعل الأديب المسلم مع فطرة الإنسان فى كل زمان ومكان . لا يعوقه جنس ولا يمنعه لون ، ولا تحصره بيئة ، ولا تأسره عصبية ، ولا تحركه رغبات فردية ، ولا تسيطر عليه نوازع مرضية تصبغ إبداعه بصبغة ذاتية انفعالية ، وإنما تتفتح مداركه على الجمال الكونى والشعور الإنسانى المستضىء بنور التوحيد، والسابح فى آفاق الإيمان .

---

(١) أنظر كتاب « خصائص التصور الإسلامى » « سيد قطب » ص [١٦٣]
(٢) أنظر المرجع السابق ص [١٨٣]

رابعا : التوازن

ليس هناك تعارض بين هذه الخصائص فهى تتجمع فى دائرة واحدة ، مثلها مثل أشعة متعددة تنبثق من مصدر واحد ، وقد تناول « سيد قطب» فى تحليله لهذه الخاصية عدة مظاهر منها :

أ - صور التوازن فى التصور الإسلامى مثل التوازن بين التسليم المطلق وبين شوق الكينونة الإنسانية إلى التأمل والبحث والتفكير ، وقد أكد على أن الإيمان بالغيب من مميزات الشخصية الإسلامية ، ومن سمات عقيدته وهذا الإيمان يقود المشاعر المؤمنة إلى التأمل والتدبر والنظر فيما يخفى من أسرار هذا الوجود .

وهذه التأملات كما قلت سابقاً منبع فياض للتجارب العميقة والرؤى المحلقة فى آفاق الأدب الأسلامى يقول الأديب المسلم « سيد قطب » إن العقيـدة التى لا غيب فيهـا ولا مجهول ولا حقيقة أكـبر من الإدراك البشرى المحدود ، ليست عقيدة ولا تجد فيها النفس ما يلبى فطرتها ، وأشواقها الخفية إلى المجهول ، المستتر وراء الحجب المسدلة »(١).

ب - وهناك التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية :

وهذا التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة يحدث التوازن فى الضمير البشرى فى خطاه الواقعية ، وفى رؤاه المستقبلية ، وفى تصوراته الكونية ، وفى رصده لحقائق الوجود وموقفه منها حيث يقف على أرض مستقرة ، يعمل فيها وهو يعلم طبيعة الأرض ، وطبيعة الطريق ، وغاية السعى ، وجزاء الحركة ، وفى الوقت ذاته يعيش موصول الروح بالله ، معلق القلب بمشيئته ، ولا يستكثر عليها شيئاً، ولا يستبعد عليها شيئاً ، ولا ييأس أمام ضغط الواقع أبداً ، يعيش طليق التصور ، غير محصور فى قوالب جديدة يضع فيها نفسه ويتصور أن مشيئة الله سبحانه محصورة فيها وهكذا حتى لا يتبلد حسه ولا يضمر رجاؤه ، ولا يعيش فى إلف مكرور »(٢).

---

(١) أنظر المرجع السابق ص [١٩٤]

(٢)أنظر المرجع السابق ص [٢٠٣]

ج - وهناك التوازن بين المشيئة الإلهية الطليقة ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة وهى قضية القضاء والقدر و « الجبر والاختيار » .

وقد أفاض الكاتب فى تحليل هذه المشكلة ، وكذلك « مشكلة الشر والألم » « واتخذ من النصوص القرآنية براهين قاطعة تخرج الإنسان من حيرته وقلقه »[1].

وهذه المشكلة الاعتقادية كانت معبراً لكثير من الشعراء القدامى الذين تأثروا بعلماء الكلام ومجادلات الفرق الإسلامية تأثراً منهم بالثقافات الوافدة والعقائد القديمة ، وقد برر كثير من الشعراء سلوكهم الفاسد فى الحياة بأنهم مجبورون على ذلك ولا اختيار لهم فى سلوكهم ، وقد انغمسوا فى الملذات ، واعتنق بعضهم المبادىء الهدامة الفاسدة وصارت حياته مزيجاً من خبث القول والفعل وفساد المعتقد، وإذا بهم يبررون هذا السلوك بأنهم مجبورون ولا اختيار لهم فيما يفعلون.

ومن هؤلاء بشار بن برد . فقد كان يؤمن بفلسفة الجبر وأن الإنسان مسلوب الإرادة والمشيئة . وهو بهذا المعتقد يبرر سلوكه الفاسد فى الحياة .

يقول بشار مصوراً ما يذهب إليه من إيمان بالجبر :

طبعتُ على فى غير مخيَّر هواى . ولو خُيرتُ كنتُ المهذَّبا
أريد فلا أعطَى . وأعطى ولم أرد ويقصر على أن أنال المغَيَّبا
فأصرفُ عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

وهذا المسلك يبتعد عن منطق « التوازن » وهو من أدق خصائص التصور الإسلامى ، فالشعر نشاط إبداعى إنسانى ، وهو فى إطار التصور الإسلامى لا يجمد فى قالب بارد فاتر كما يدعى كثير من النقاد قديماً وحديثاً ، لأنهم لم يقفوا على حقيقة المشاعر المؤمنة ، ولم يدركوا أبعاد التجربة الإيمانية فى تعاملها مع الكون والحياة والإنسان .

---

(١) أنظر المرجع السابق ص [٢٠٢ - ٢١٥] .

وأبو نواس : نراه يميل إلى مذهب المرجئة « فى فكرة » العفو ويعارض المعتزلة فى فكرة « صدق الوعد والوعيد على الله » يرغم تأثره بكثير من الأفكار الفلسفية مثل فكرة « الكمون » وفكرة « الجوهر الفرد » وفكرة « الجزء الذى لا يتجزاء » وقد استفاد من هذه الأفكار فى تجاربه الشعرية المتعددة، ومعتقده فى فكرة « العفو» كان بدافع من شعوره بالإثم ، وانغماسه فى حياة الملذات والشهوات : قولاً ، وفعلاً ، ووجد في هذه الفكرة حصناً يحتمى به من نذر العقاب ، ومصير المارقين ، وماأشدها من نذر ، وما أقساه من مصير !!!

يقول أبو نواس :

فقل لمن يدّعى فى العلم فلسفة عرفت شيئاً وغابت عنك أشياءُ
لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً فإن حظركه بالدين إزراءُ

والحقيقة كما يقول « سيد قطب » فى التصور الإسلامى .. ليست هناك مشكلة حين يواجه الأمر بمفهوم هذا التصور وإيحائه ، إن قدر الله فى الناس هو الذى ينشىء كل ما ينشأ وما يخلق من الأحداث والأشياء والأحياء ولكن قدر الله فى الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم فى ذات أنفسهم وما يحدثونه فيها من تغيرات ، وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة لا يبطل هذا ولا يعطله ، فالأمران يجيئان مجتمعان أحياناً فى النص القرآنى الواحد كقوله سبحانه: **﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ،وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾**(1) .

أما مشكلة « الشر والألم » فليس هناك مشكلة من وجهة النظر الإسلامية للأمر . لأن الدنيا دار ابتلاء وعمل ، والآخرة دار حساب وجزاء فما يصيب الإنسان فى هذه الحياة يقابله نعيم فى الحياة الأخرى ، إذا قابل الإنسان هذه الآلام القاسية والظواهر التى تبدت له فى صورة الشرور اللافحة بالثبات والصبر والثقة فى كرم الله وعدله امتثالاً لقوله **﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾** .

---

(1) سورة الإنسان آية [29 - 30]

وبهذا كما يقول « سيد قطب » «يحل الإسلام الجانب الشعورى من هذه المشكلة فى الضمير البشرى ، ويسكب فيه الطمأنينة والاستقرار»[١].

وهذا الجانب الشعورى فى مكونات الضمير البشرى تتشكل فى إطاره الرؤى الإبداعية، لدى الأدباء المسلمين ، فتأتى تجاربهم سوية مخالفة للتجارب الرومانسية التى تستعذب الألم ، وتطلبه لذاته ، وذلك لأن الرومانسيين فقدوا « التوازن النفسى » حيث نجد الأديب الرومانسى « يضيق ذرعًا بعالم الحقيقة ، ويطلق لنفسة العنان فى أحلام يعوض بها ما فقده فى عالم الناس من حوله ، حتى إن عالم خياله صار أرحب من عالم الحقيقة المحدود !! وقد ترسم « الرومانسيون » فى هذا الاتجاه خط (روسو) الذى يقول « لو تحولت أحلامى إلى حقيقة لما أكتفيت بها ٠بل لظللت أتخيل وأحلم ، لا تقف رغبتى عند حد » .... وقادهم هذا الإحساس إلى فقد التوازن ، والإحساس العبثى تجاه الوجود .

يقول « **شاتوبريان** » كانت عزلتى التامة بين مشاهد الطبيعة سبب استغراقى فى حالة تستعصى على الوصف ، فكنت أحس كأنما يسيل فى قلبى ما يشبه جداول من سيول بركانية متأججه يعوزنى شىء أملأ به هوة الفراغ فى وجودى[٢]

وكذلك تخالف الرؤى الإبداعية المتشكلة فى إطار التصور الإسلامى حيث « التوازن النفسى والرؤى الشمولية » تخالف هذه الرؤى الإسلامية منهج الواقعيين الطبيعين، والواقعين الاشتراكيين فى تعاملها مع الواقع ، حيث لا تقبل عليه وهو فى تصورها شر جاسم على حرية الإنسان ، وأن الخير قشرة نخيلة لا تكاد تخفى الوحش الكامن فى أعماق الإنسان ، وأن الإنسان للإنسان ذئب ضار ، وأن من يبتغى النجاح فى الحياة عليه فى منهج الواقعيين أن يسقط بين الناس كقنبلة أو أن يتسلل بينهم كوباء .

---

(١) أنظر كتاب « خصائص التصور الإسلامى » للشهيد سيد قطب ص [٢١.]
(٢) أنظر الرمانتيكية د / محمد غنيمى هلال

* لكاتب هذه الدراسة مقال بعنوان « الواقعية المحزنة » نشر بالمجلة العربية ، وكذلك حوار حول الرؤية الإسلامية وظاهرة الشعر الحضارى . وملامح الواقعية الإسلامية موازنة بالواقعية الأوروبية نشر بجريدة « المسلمون »

هذه القيم المتصادمة مع الواقع لا تقترب منها الرؤية الإبداعية فى ظل التصور الإسلامى ، بل تقبل على معانقة الواقع وتجميله ، والتكيف معه وإصلاحه بوسائل فنية .. تطرح ولا تفرض ، تقترح ولا تحدد ، توحى ولا تجزم ، ومع ذلك التوازن فى الاعتقاد والشعور فى النشاط والحركة الذى يقطع التعطيل والإرجاء السلبية والإحالة على مشيئة الله فى المعصية أو الشلل والجمود السلب ، نجد الأديب المسلم لا تخلو تجربته الإبداعية من صراع ، فالصراع هو سر توهج التجربة ، وهو وقود انفعالها ، وهو التيار الإيجابى الناقل لمؤثراتها ... ولكن هذا الصراع يظل بين الخير والشر ، الخير الكامن فى التصور الإسلامي والمضىء زوايا النفس المؤمنة، والشر المتمثل في وساوس الشيطان ، وكل ما يزينه للإنسان من رغبة جامحة في التهام الشهوات من النساء ، والعاطفة المحتدمة النابعة من التعصب العرقى ، والتفاخر بالأبناء ، وكذلك اللهاث وراء القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، والغلبة فى النهاية للمشاعر المؤمنة ، والرؤى الدائرة فى فلك التصور الإسلامى .

وصور التوازن التى عرض لملامحها الإمام الشهيد . تجعل من توازن الرؤى الإبداعية فى ظل العقيدة الصافية ، والتكوين الربانى . ألقًا متوهجاً بالصدق والفن على اختلاف نوعية الفنون القولية والتعبيرية .

فكم يشعر الأديب المسلم بقيمته حين يدرك أبعاد التوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله ، ومقام الإنسان الكريم فى هذا الكون ، وحين يدرك أن التصور الإسلامى فى هذا الصدد سلم من كل الهزات والأرجحات التى تعاورت المذاهب والمعتقدات والتصورات ما بين تأليه الإنسان فى صوره الكثيرة ، وتحقير الإنسان إلى حد الزراية والمهانة « ص ۲۲ .

وكم يقاوم الأديب المسلم فى نفسه هواتف الغرور، ودواعى التعاظم وأوهام الخلود ، حين يدرك أبعاد التوازن فى علاقة العبد بربه ، حيث يقف العبد فى منطقة الحذر بين موحيات الخوف والرهبة والاستهوال وموحيات الأمن والطمأنينة والأنس . فالصفات الفاعلة فى هذا الكون فى حياة الناس والأحياء يجمع بين هذا الإيحاء وذلك فى توازن تام ، وآيات كثيرة من القرآن الكريم تصور ذلك وفى آية

واحدة يجتمع الإيحاءان ...إيحاء الرغبة وإيحاء الرهبة ... يقول تعالى : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ .

وصدى هذا التوازن يتشكل فى الأعمال الإبداعية فى القصص والمسرح والشعر، فالكاتب المسلم يشكل شخصيات قصصه من مكونات هذا التوازن ، والنماذج المضادة تكون خارج هذا التكوين ، وبالتالى تقودها تصرفاتها إلى الوهم البراق ، أو إلى ظلمات الندم ، أو إلى غيابات السجون ، وكذلك الكاتب المسرحى الإسلامى يتعامل مع المواقف والشخوص والأحداث انطلاقات من خاصية «التوازن» وينتصر لكل ظاهرة متوازنة منبثقة من التصور الإسلامى والفطرة النقية التى فطر الله الناس عليها .

ولله درُّ الأديب المسلم « سيد قطب » حين يصوغ ثمرة هذا التوازن فى أسلوب شفاف جذاب ، مشرق بالمعانى الوضيئة ، مندى بعاطفة إسلامية صادقة ، أكسبته حلاوة إيمانية ، وموسيقى روحية داخلية يقول مصوراً ثمرة التوازن بين موحيات الخوف والرهبة ، وموحيات الأمن والطمأنينة ، ويقع التوازن فى الضمير بين الخوف والطمع ، والرهبة والأنس ، والفزع والطمأنينة ، ويسير الإنسان فى حياته يقطع الطريق إلى الله ، ثابت الخطو ، مفتوح العين ، حى القلب ، موصول الأمل حذراً من المزالق ، صاعداً أبداً إلى الأفق الوضىء[1] .

يقول كاتب الدراسة من قصيدة بعنوان « واسلاماه »

الضـــوء حـــروف تنسجهـــا هـــالات قدسيـــة
والأفـق منـارات يذكيـها عطـر الصلوات الكونيـة
والليـل تناجـى آيـته نبـض الســنوات الضوئيـة
والفـجر على أبواب مدائننـا يدافـع رايـات إسلاميـة

خامسا : الإيجابية

ومصدر هذه الإيجابية يتمثل فى منبعين أساسين هما : الإيجابية الفاعلة فى علاقة الله سبحانه وتعالى بالكون والحياة والإنسان، والإيجابية الفاعلة كذلك من ناحية الإنسان ذاته فى حدود المجال الإنسانى .

---

(١) أنظر كتاب « خصائص التصور الإسلامى » للإمام الشهيد ص [٢٣١]

ثم يحلل « سيد قطب » عدة ظواهر تشع بها هذه الإيجابية ومن هذه الظواهر:

أ - إيجابية الإله فى مقابلة سلبية الصفات الإلهية فى التصورات الأخرى كتصور أرسطو ، وتصور الفرس ، وتصور أفلاطون ، وتصور بنى إسرائيل ، وتصورات الفرق المسيحية ، وتصورات المذاهب المادية .

وهذه الإيجابية فى علاقة الله سبحانه بخلائقه كلها هى مفرق الطريق بين العقيدة الجدّية المؤثرة والعقيدة الصورية السلبية ، وشمول هذه الإيجابية وتوحدها هو مفرق الطريق وكذلك بين التجمع فى الكينونة الإنسانية والنشاط الإنسانى ، والتمزق فى هذه الكينونة ونشاطها الحيوى[1] .

ب - إيجابية الإنسان فى الكون ، وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة فى واقع الحياة على وجه خاص ، وإيجابية المسلم تتمثل فى سعيه الدؤوب إلى العمل ، « فالعمل هو الترجمة الواقعية للإيمان ، فليس الأمر مجرد مشاعر ، إنما هو مشاعر تفرغ فى حركة لإنشاء واقع وفق التصميم الإسلامى للحياة ، أو وفق التصور الإسلامى للحياة »[2].

وهذه الحركة الفاعلة تشمل كل أنواع النشاط الإنسانى من عمل بدنى وفكر عملى ، ونشاط إبداعى ، وتواصى بالحق ، وتواصى بالصبر ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، قال تعالى : ﴿ **والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

وهذه الحركة الفاعلة المؤثرة تقودنا فى مجال « الفنون الأدبية » الى ضرورة الدعوة إلى الأدب الفياض بالتصور الإسلامى ، والبعد بآفاق الأدب الإسلامى عن دروب السلبية وكهوف التشاؤم ، وموجات العبث والانتحار التى سادت العالم وأول ضحاياها هم الأدباء الذين لم يفيئوا إلى ظلال هذه الإيجابية المثمرة ، وذهبوا ضحايا الفلسفات الشوهاء . والتصورات الآسنة .والانتحار التى سادت العالم وأول ضحاياها هم الأدباء الذين لم يفيئوا إلى ظلال هذه الإيجابية المثمرة ، وذهبوا ضحايا الفلسفات الشوهاء . والتصورات الآسنة .

---

(١) السابق ص [٢٥٣]

(٢) السابق ص [٢٦٤]

سادسا الواقعية

ودفعاً لتوهم الخلط وضح المؤلف فى هامش الصفحة ص ٢٧٤ . المقصود بالواقعية فى الإسلام وهو « التحقق فى عالم الواقع » وهذا المفهوم مجرد من كل ما علق بالواقعية من معنى اصطلاحى تاريخى فى البيئات الأخرى ، وليست الواقعية إقراراً بما يدور فى عالم الواقع من إيجابيات وسلبيات ، وانضباطات وانحرافات ولكنها مثالية واقعية لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج تملك البشرية أن تصعد إليه .

وللواقعية فى التصور الإسلامى ثلاث مظاهر :

أ - التعامل مع الحقيقة الإلهية متمثلة فى آثارها الإيجابية وفاعليتها الواقعية .

ب - التعامل مع الحقيقة الكونية متمثلة فى مشاهدها المحسوسة المؤثرة أو المتأثرة .

ج - التعامل مع الحقيقة الإنسانية متمثلة فى الأناس كما هم فى عالم الواقع.

وهذه الآفاق الواقعية فى التصور الإسلامى يمكن أن تمثل مرتكزات للرؤية الإسلامية فى مجالات الإبداع الأدبى ، حيث تتفتح مدراك الأديب المسلم على معالم قدرة الله وآثاره فى هذا الكون قال تعالى :﴿ **يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون** ﴾ .

ومن شاء فليتأمل كتاب الله ويتدبر الآيات [١٧ - ٢٧] من سورة الروم ، وكذلك الآيات [٩٥ - ١٠٣] من سورة الأنعام ، وكذلك الآيات [٥٩ - ٦٢] من سورة النمل ، والآيات [١١ -١٢] من سورة الشورى ، وغيرها كثير وكلها تفيض بدلائل القدرة الإلهية ، وفيها غذاء روحى ،شعورى وإيمانى ، تستمد منه التجارب الإيمانية قوتها ، ووهج تأثيرها ، ونبض صدقها وإيقاع تفردها .

والتعامل مع الحقيقة الكونية متمثلة فى مشاهدها المحسوسة المؤثرة ..يقود الأديب المسلم إلى منافذ الإبداع الحقيقى . فالكون مسرح التأملات ، وإشراق

الرؤى ، وإبداع الصور المبتكرة المؤثرة ، والعودة من رحلة التأملات بزاد روحى عميق ، وزاد أدبى مؤثر ، ناضح بخصائص التجربة الإسلامية ، وهذه التأملات لا تقود الأديب المسلم إلى الهروب والارتقاء فى أحضان الطبيعة ، ولا تجعل من الطبيعة إلهاً يعبده الأدباء ولا تجعل من الغاب فردوس الشاعر المفقود ، ومهاجره الآمن ، ومستقر أحلامه هرباً من عالم الناس ودنيا الواقع ، بل تصبح هذه الطبيعة مرآة مجلوة يرى فيها الأديب نفسه وأمانيه وأحلامه : من جبالها يستمد مفردات الشموخ والاباء ، ومن بحارها يستلهم مشاعر الحب والنقاء والصفاء ، ويتلقى دروس السمو والعطاء ، ومن تقلبات فصولها يرسم للنفس طريق رؤاها ، فهى صورة من وهج الصيف ، ودفء الربيع ، وجدب الخريف ، ودكنة الشتاء وأعاصيره ، وصقيعه وغيوثه ، ففى الصيف عطاء الثمار ، وفى الربيع عبق الأزهار ، وفى الخريف عطش الحرمان ، وفى الشتاء رى الظمآن ، وتهاليل الإنسان للغيث الآتى من السحاب المضىء بالبروق ، الصاهل بالرعود ، ...هذه هى واقعية الإنسان فى تعامله مع الكون ...ومع الناس أيضا . فهو يحمل لهم فى حنايا نفسه بذور الخير ، ويجاهد ما استطاع فى اقتلاع سهام الشر من خطاهم ومن رؤاهم حبا لهم ، وشوقاً إلى الإنسان الواقعى « المثالى » أو المثالى « الواقعى » .

وهذه الواقعية الإيجابية لا تلتقى مع الواقعية التى اصطلح عليها النقاد فى العصر الحديث لأنها تمثل وجهة نظر تخالف قيم الإنسان حيث ترى الحياة من خلال منظار أسود - كما أوضحت سابقاً - وترى أن الشر هو أساس الحياة ، وأن التشاؤم والحذر هما الأجدر ببنى البشر لا المثالية والتفاؤل : وڤولتير فى قصائده المسماة « أحاديث عن الإنسان » وفى قصصه أمثال « كانديد » وكذلك « بلزاك » فى « الكوميد البشرية » يمثلان الواقعية باصطلاحها الأوروبى الحديث تمثيلاً فنياً قوياً ؛ وقد أثرت هذه الواقعية المشوهة فى أدبنا العربى تأثيراً جذرياً لم يعد قادراً على النجاة بنفسه منه ؛ ونتاج نجيب محفوظ الروائى ، ونتاج توفيق الحكيم المسرحى . وكذلك نتاج يوسف إدريس القصصى يعد محاكاة وصدى لقيم الواقعية المحزنة الفنية والموضوعية ، وقد سار على دربهم وحاكاهم المبدعون الشباب فى العالم العربى بل توغلوا فى واقعيتهم المشوهه مثل محمد شكرى بالمغرب والطيب صالح بالسودان .

سابعا : التوحيد

...... الأديب المسلم في ظلال هذا التصور ينزع من نفسه اليأس ، وأوهام الشرك ، وينفض عن مشاعره ذلك الركام الهائل من التصورات الوثنية، وكذلك يسمو بمشاعره فوق الرغبات الدنيا ، ولا يتدنى للدرك الأسفل من النفاق والخداع ابتغاء مكسب مادي أو خوفاً من عقوبة جائرة أو طلباً لجاه دنيوى . لأن إيمانه بالتوحيد الخالص يرفعه إلى مقام كريم . حيث لا يطلب إلا من الله ولا يتقرب إلا إلى الله ، ولا يمدح الإنسان إلا بما هو فيه كما قال عمر بن الخطاب ، ولا يبالغ فى المدح مبالغة ممقوتة ، وذلك أن حقيقة التوحيد تمتد إلى « تصور المسلم للكون كله ، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه ، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فى حياته هو بحذافيرها كما تمتد إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها ، خافيها وظاهرها ، صغيرها وكبيرها ، حقيرها وجليلها ، شعائرها وشرائعها ، اعتقاديها وعملها ، فرديها وجماعيها ، دنيويها وأخرويها ، بحيث لا تفلت ذرة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة .

وهذا التوحيد بهذه الصورة الشاملة تمتد آثاره الإيجابية إلى النشاط العقلى والقلبى أى إلى مجالى « الفكر والفن » فهو يخلق فى وجدان الأديب وفى عقل العالم حالة من « الانضباط » لا تتأرجح معها الصور، ولا تهتز معها « القيم » ولا يتميّع فيها التصور ولا السلوك »[1] .

والتوحيد يخلق فى ذات الإنسان المسلم . وبالتالى فى وجدان الأديب وعقل المفكر نزعة الإقبال على مناصرة الحق مهما كانت المخاطر ، وكذلك يعلن تحرير الإنسان بل يعلن « ميلاد الإنسان » .

والتوحيد حين يغرس الشجاعة فى التكوين الإنسانى ويقوده إلى «الحرية» إنه يكون شخصيته من جديد ويعلن ميلاد الإنسان الحر فى التصور الإسلامى ، بل يعلن ميلاد الإنسان الكامل ، فالإنسان بمعناه الكامل لا يوجد فى الأرض إلا يوم تتحرر رقبته ، وتتحرر حياته من سلطان العباد فى أية صورة من الصور ، كما يتحرره ضميره واعتقاده من هذا السلطان ؛ وهذا هو تحرر الإنسان فى

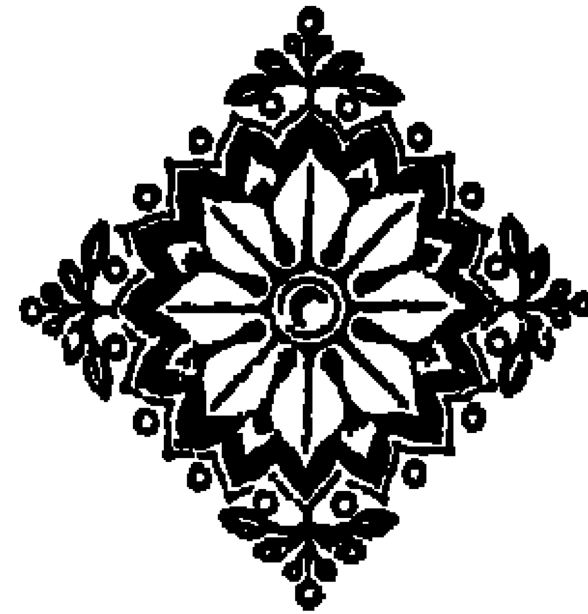
---

(١) ص [٣٢٦]

حقيقته الكبيرة ، وهذا من ثم هو « ميلاد الإنسان » فقبل ذلك لا يكون للإنسان وجوده الإنسانى الكامل بمعناه الكبير الوحيد »[1] .

وهل هناك هدف أسمى وأنبل فى مجال التجربة الأدبية من تحرير الإنسان وميلاده فى صورة أرقى وأكمل .

والأديب فى ظل التصور الإسلامى قادر على تحقيق هذا المقصد النبيل ، قادر على تحطيم أغلال الإنسان ، والانطلاق به فى آفاق الرؤى الربانية - المتوازنة - الثابته - الشاملة - الإيجابية - الواقعية الناطقة بالتوحيد ..الموشاة بحرية الإنسان المبتهجة بميلاده الجديد ؛ ... كما يقول « سيد قطب » الذى يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم ، كما تقدم أسلافهم بالأمس . فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد ، ولم تستطع أن تقاوم جاذبيته لأنه يمنحها ما لا تملك بالفعل ، فلا يقف لجاذبيته إباؤها العنيد ، وهو اليوم يمنحها ما لا تملك. فهوشيء آخر غير مالديها من تصورات وعقائد ، وأفكار وفلسفات وأنظمة وأوضاع بكل تأكيد ؛... فهل يقدم أدباء الإسلام الجديد المفيد ؟هل تأتى تجاربهم فى اسمى نموذج فنى مشمرة بحرية الإنسان . مبشرة بميلاده فى ظل خصائص التصور الإسلامى الفريد ؛ ... والباب مفتوح فطوبى للداخلين .



---

(١) ص [٣٢٥]

الهوامش والإحالات :

١ - إضاءة : هذه الدراسة قراءة أدبية لكتاب سيد قطب « خصائص التصور الإسلامى » ويقع فى ٣٤٢ صفحة من القطع المتوسطة إصدار الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية فى عام ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م

٢ - أنظر نص المقال بكتاب « النقد الأدبى لسيد قطب من ص ٩٩ - ١٠٢ مطبعة الشروق - بيروت

٣ - تفاصيل هذه المأساة تجدها مجلوه فى كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للشيخ أبى الحسن الندوى

٤ - أنظر : رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا « للأستاذ محمود شاكر ص ١١١ - كتاب الهلال : العدد ٤٤٢ اكتوبر ١٩٨٧م

٥ - مذاهب الأدب فى أوروبا . د عبد الحكيم حسان . دار المعارف بالقاهرة ط ٢ ١٩٧٩م

٦ - جاهلية القرن العشرين . محمد قطب من ص ٢٢٦ - ٢٢٧ دار الشروق القاهرة ..١٤٠ هـ ١٩٨٠م

٧ - العلمانية ص ٤١٦ د/ سفر بن عبد الرحمن الحوالى طبعة دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع

٨ - الأدب المقارن ص ٣٨٥ د/ محمد غنيمي هلال . دار العودة ودار الثقافة . بيروت ط ٥

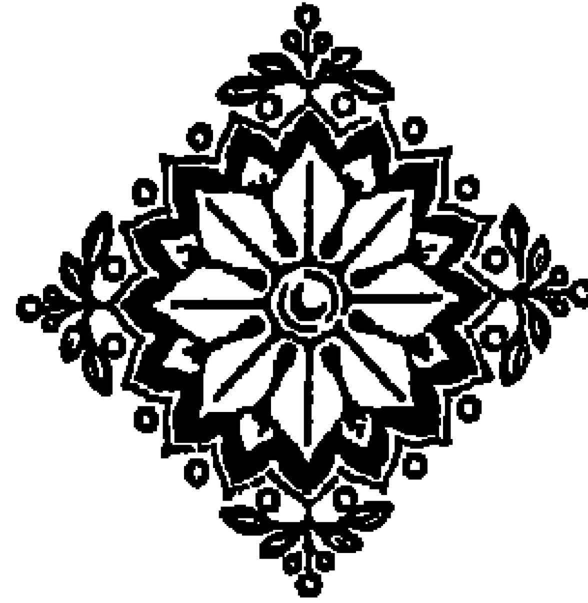
٩ - بمراجعة ديوان بشار بن برد مراجعة فاحصة متأملة نعثر على كثير من هذه النماذج البعيدة عن التصور الإسلامى

١٠ - بمراجعة ديوان أبى نواس مراجعة فاحصة نعثر على كثير من النماذج التى تنأى عن التوازن النفسى

١١ - أنظر الرومانتيكية . د محمد غنيمى هلال . الطبعة السادسة دار العودة بيروت

١٢ - لكاتب هذه الدراسة مقال بعنوان الواقعية المحزنة نشر بالمجلة العربية بالسعودية وكذلك حوار حول الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر . وملامح الواقعية الإسلامية مقارنة بالواقعية الأوروبية نشر بجريدة المسلمون

١٣ - من ديوان مدائن الفجر « لكاتب الدراسة » قيد الطبع بنادى مكة الثقافى



ثانيا: أبعاد الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر

إن الأدب فى ظل الإسلام كان وسيظل دعامة قوية من دعائم الكيان الإسلامى الكبير ، وإن تفرقت بأمم المسلمين السبل ، وتنكرت لهم الدروب !!!

والأدب فى ظل التصور الإسلامى يستطيع أن يعبر عن أدق الانفعالات ، وأرق العواطف ، وأنبل المشاعر وأسماها ، فى إطار النفس السوية التى نجت من أمراض النفسيين والاقتصاديين والوجوديين .

والفن الإسلامى وفى مقدمته فن التعبير بالقول وهو الأدب « شعراً ونثراً » فن متفتح على شتى المذاهب الفنية ، مادامت منسجمة فى اتجاهها مع حركة الكون والإنسان والإيجابية فى سبيل الحق والعدل الأزليين ، وفى إطار الجمال المبدع . بعيداً عن التزييف والكذب والتناقض .

إنه « كلاسيكى » حين يعبر عن التناقض الرائع للأشياء والقيم الخارجية ، وحين يمجد بطولة الإنسان وإيجابيته إزاء الأحداث وقدرته على تشكيل مصيره .

إنه رومانسى حين يعبر عن أعماق الإنسان المؤمن ، وعن تجاربة الشعورية المتنوعة التى تنبثق من الإيمان بالله وعن الحب الكبير الذى يتفجر عن هذا الإيمان ويتجه صوب كل الناس وكل الأشياء .

إنه واقعى ...حين يعلن ثورته الانقلابية على كل القيم المنحرفة عن الصراط المستقيم وعلى كل الطواغيت التى لا تقرها وحدانية الله ، والتى يأباها التحرر الوجدانى للإنسان المسلم ، ذلك التحرر الذى يبدأ من أعماقه لينتهى بالكون .

إنه وجدانى ...فى تعبيره عن نظرة الإنسان الشخصية المستمدة من تجربته الإيمانية ، وجدانى فى تعبيره عن أعمق مجريات الإنسان النفسية وأحداث عالمه الباطنى ، تلك التى تسعى به دوماً إلى التناغم والتآلف والتعاطف مع سائر الخلائق والأشياء .

إن الأدب الإسلامى وفى مقدمته « فن الشعر » يأبى الانحراف .. يأبى مثلاً تأليه الإنسان « كلاسيكياً » وإغراقه الذاتى « رومانسياً» ، وتمجيد لحظات الضعف البشرى « واقعياً » ويأبى تصوير الانحراف الفكرى أو النفسى أو الأخلاقي وجوديًا ، فليس ثمة عبث ولا وجدوى كما يرى « كامى » وليس ثمة معقولية للحياة والوجود كما يرى « كافكا » وليس ثمة حرية أخلاقية مطلقة من كل قيد كما يرى « سارتر » وليس ثمة تناقضات نفسية لا نهاية لها تنتهى دائما بالضياع كما يرى « دستوفسكى » ذلك أن الفن الإسلامى يستمد تجاربه الباطنية من خلال الحقيقة لا الزيف ، ومن الاستقامة لا الانحراف، فللوجود غاية « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً » ، ولكدح الإنسان جدوى « ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه »[1] .

وأرى أن الحاجة ملحة الآن إلى العكوف على استخراج كنوز الأدب الإسلامى وتبصير المتأدبين بآفاقه ، حتى يكتسب الوجدان الإسلامى ثراءً وعمقاً .

وقد تمثلت القيم الإسلامية فى كثير من شعر القدماء ، ولكنها جاءت مباشرة بعيدة عن الإيحاء والقوالب الفنية المتعددة ، ويقر بهذه الخصائص الأستاذ « طه ابراهيم » فى كتابه (تاريخ النقد عند العرب) ويقول « لم يوفق الشعر العربى إلى تبدل فى الكنه والجوهر ، فمنذ نضج قبل الإسلام ، وتحدد قالبه ظل أسير هذا القالب ، ولم يستطع أن يتخلص منه مهما جد فيه من الصور والأشكال، ولقد أتيح للشعر العربى بعد عصر نهوضه عهدان ، كان حريًا أن يستجلى فيهما - لو اهتدى الشعراء حقاً - إلى الخلق والابتكار ، ازدهر فى أواخر القرن الأول الهجرى « بحضارة الإسلام ، وجيشان النفس العربية ، وجاء الشعر الإسلامى رائعاً جلياً كالذى أخرجته الجاهلية أو أحسن ، ولكن هذا الازدهار كان على مثال الشعر الجاهلى ، فلم ينظر الشعراء فى القرآن لغير الصياغة ، وبعض المعانى ولو أنهم تمعنوا لوجدوا فيه أساليب من القول ، وضروبًا من الفن الأدبى ، كان يسيراً أن يحتذوها ، فى القرآن مثلاً الأسلوب القصصى ، وتاريخ الأقدمين ، وقصص الأنبياء ، وتلك أمور تزيد فى روحية الأدب ، وتمد الشعراء بالأخيلة والإلهام ،

---

(١) النقد الإسلامى ص [٤١ - ٤٢] د/ عماد الدين خليل.

وحسبنا أن نقول : إن الفرس جيران العرب قد انتفعوا بذلك فاستقوا منه فيضاً لشعرهم القصصى ، وحسبنا أن نقول : إن الغربيين المحدثين استلهموا سفر التكوين فأوجدوا من قصة ابليس وآدم ، وقابيل وهابيل ، والجنة والنار ، واليوم الآخر شعراً قصصيًا يرمى إلى كثير من شؤون الاجتماع ، وهذه القصص واردة فى القرآن فى أحسن معرض بيان وأكمله ، وهذه القصص لم ينتفع بها شاعر عربى فى أى عصر »[1] .

والرأى السابق له وجاهته . ولكنه يغالى فى عدم استفادة وانتفاع أى شاعر عربى فى أى عصر بأسلوب القرآن الكريم وبخاصة « القصص القرآنى » .

وحين نتأمل الشعر الحديث ، ونراجع فى ضوء المنظور الفنىّ شعر ابن عربى وشعر ابن الفارض وغيرهما من شعراء الوجدان الدينى ....نعثر على أسس الخيوط الفنية للرؤية الشعرية فى ظلال الإسلام ، ونعثر أيضاً على ملامح الاستفادة الفنية من أسلوب القرآن الكريم[2] .

وحين نحاول بحث هذه الروح الإسلامية فى الأدب ...فإننا نحارب الروح الانهزامية التى جعلت كثيراً من أدباء هذه الأمة ونقادها يضعون كل قيم الأدب الأجنبى فى صورة النموذج الأعلى ، وصاروا يقلدون حتى كدنا نفقد الحس الإبداعى الحقيقى النابع من رؤيتنا الإسلامية ، وقد بدأ هذه الموجة فى العصر الحديث « على أحمد باكثير » فى نتاجه المتعدد الناطق بالرؤية الإسلامية وهو فى قمة أدائه الفنى ، وكذلك الرافعى « فى بعض نتاجه الابداعى ، ومجال الدراسات الأدبية » فكتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) ترجمان صادق لمنهجه الإسلامى ، ودفاعه عن تراث الأمة الإسلامية وأصالتها مع احتفاظه فى مقالاته وخواطره وبحوثه بوهج الفن والتشكيل اللغوى الراصد لأدق الانفعالات ، وأعمق المشاعر ، هذا الدفاع الحميم الممزوج بالسموق الفنى المتشبع بالرؤية الإسلامية يضع الرافعى فى قمة المعانقين للرؤية الإسلامية شعوراً وفكراً وفنًا ، ولأن الرافعى ينطلق من الإسلام فى كل ما يكتب نجده غير حذر فى لجوئه إلى العقل ، لأنه كاتب مسلم

---

(١) أنظر : تاريخ النقد عند العرب ص [١٠٦] للأستاذ / طه ابراهيم

(٢) لكاتب الدراسة كتابان يعالجان بعض أبعاد هذه الظاهرة هما . القيم الإسلامية فى الأدب العربى/ مطابع جامعة الزقازيق ١٩٨٧م . والأدب الصوفى . إتجاهاته وخصائصه / دار المعارف ١٩٨٤م

اعتنق الفكر الإسلامى مذهباً فى حياته العملية والعلمية، لا يخشى إذا إختط لنفسه طريق العقل ، أن تتضارب النتائج العقلية التى يتوصل إليها مع فكره الإسلامى لأنه يؤمن أن الإسلام والعقل متكاملان مترافقتان ، وأن تقدم العلم وتطور الفكر البشرى لا يمكن أن يتناقضا مع جوهر الدين الإسلامى، بل على العكس نجدهما يقدمان التفسير تلو التفسير والتأكيد تلو التأكيد ، لما غمض من هذا الدين ، أو ما احتاج فى حركة الظمأ البشرى الحديث ، وتطلعه نحو البحث والاستكشاف إلى مزيد من التأكيد والكشف .

وفى أدب الرافعى لا نستطيع فصل عنصر الخيال عن عنصر اللغة .. ومن قبله عنصر الفكر ، فليست الأفكار وحدها تتوالد عنده ، بل الصور كذلك أيضاً ، وهى صور رائعة نادراً ما تحققها الإبداعات العربية قديماً أو حديثاً ، إن توالد الصورة عند الرافعى يواكب توالد الفكرة ثم العبارة ليحقق هذا التواكب انسجامًا بديعا بين المقومات الرئيسية الثلاثة لأى إبداع أدبى »[1] .

والرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر فى النموذج الأمثل لها تبتعد عن الشعر الدينى المباشر المتمثل فى شعر المناجاة والتضرع ، وشعر الوعظ ، والحث على التعاليم الإسلامية ، فذلك مجال تعليمى فى الاتجاه الأخير منه ، ولكن هذه الرؤية تتمثل روح الإسلام ، وتستجيب لأثره الفعال فى تغيير الوجدان ، وفى تغيير رؤية الإنسان للأشياء ، وفى تشذيب المعجم الشعرى ، والتراكيب الدالة على ما وراءها من أسرار روحية ، وكذلك تستوحى هذه الرؤية جو الحضارة الإسلامية ، فى مواقفه وشخوصه ، وأماكنه وأزمنته ، ولا تروى هذه الرؤية فى صياغتها الفنية التاريخ فى صورة سردية تقريرية ، بل تمتزج بروح دلك التاريخ ، وتشكل منه واقعاً حضاريًا له شخصيته ونفاذه وتأثيره .

والصياغة الفنية لمكونات هذه الرؤية الشعرية الحضارية الإسلامية تتأثر إلى حد كبير بالبيان القرآنى ، والبيان النبوى ، والتراث الإسلامى ، وكذلك لا تنفصل عن إيقاع العصر لغةً وأسلوبًا وتصويراً ورؤية كونية شاملة .

وهناك جيل من الشعراء الجدد يتشكل فى إطارهذه الرؤية الشعرية الإسلامية على امتداد الوطن الإسلامى والعربى ومنهم على سبيل المثال - لا الحصر -

---

(١)أنظر : الواقعية الإسلامية فى الأدب والنقد د/أحمد ساعى ص[١٧٨- ١٨٧]

« محمد بنعماره ، ومحمد على الرباوى ، - ومحمد المنتصر الريسونى » وهم من شعراء المغرب ومن مصر « حسين على محمد ، وجميل عبد الرحمن ، وعبدالله السيد شرف ، وصابر عبد الدايم » ومن السعودية « عبد الرحمن العشماوى » وغيرهم من الشعراء السائرين فى وهج التيار الإسلامى .

....وفى رصدى لأبعاد الرؤية الفنية الإسلامية فى الشعر المعاصر اعتمدت كثيراً على استقراء نصوص الدواوين الشعرية التى تلتزم بهذه الرؤية ، ومن ثم كان تركيزى على نتاج بعض الشعراء الذين يعكفون على هذه الرؤية وتنطق دواوينهم بأبعادها الفنية ،من هذه الدواوين ديوان « مملكة الروح » و « نشيد الغرباء » لمحمد بنعمارة ، وديوان « لله وللرسول » لعبد العليم القبانى ، وديوان « البيعة المشتعلة » لمحمد على الرباوى ، وديوان « صوت من الله » لمحمود حسن اسماعيل ، وديوان « المسافر فى سنبلات الزمن » لكاتب هذه الدراسة .

وبعد تأمل النصوص واستقرائها فنياً فى ضوء التصور الإسلامى وجدت أن أبعاد الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر فى بعض مكوناتها تتمثل فى المحاور الآتية :

أولا : التأثر بالبيان القرآنى

ثانيا : التراث الإسلامى ومحاور تأثيره في تشكيل الرؤية الشعرية .

هذه المحاور تتمثل فى الآتى :

أ - استدعاء الشخصيات التراثية الإسلامية .

ب - الأمكنة الإسلامية وأثرها فى تشكيل النسيج الشعرى .

ثالثا : السفر إلى الماضى لبعث الحاضر وإحيائه وفق التصور الإسلامى .

رابعاً : توظيف الطبيعة فى تشكيل التجربة الشعرية

أولاً : التأثر بالبيان القرآنى

يعد القرآن الكريم قمة البيان العربى ، وهو أسمى نموذج يحتذى ...أسلوباً وفكراً وهداية ودستور حياة ، يقول الرافعى مصوراً فى كتابه القيم « إعجاز

القرآن والبلاغة النبوية » روعة البيان القرآني ، وكاشفاً عن بعض أسرار تراكيبه المعجزة « آيات منزلة من حول العرش ... فالأرض بها سماء ...هي منها كواكب، بل الجند الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم ، وانضوت إليه من الأرواح مواكب ، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها ، وامتنعت عليه أعراف الضمائر فابتز أنفالها .

ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، ، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها ، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب .

ومعان بينا هي عذبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه التبيان ، ...وبيناهي ترف بندى الحياة على زهرة الضمير ، وتخلق في أوراقها من معاني العبرة معنى العبير ، وتهب عليها بأنفاس الرحمة فتنم بسر هذا العالم الصغير ...ثم بيناهي تتساقط من الأفواه تساقط الدموع من الأجفان ، وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة ينوح عليها اللسان ، وتمثل للمذنب حقيقة الإنسانية حتى يظن أنه صنف آخر من الإنسان . إذا هي بعد ذلك أطباق السحاب وقد انهارت قواعده ، والتمعت ناره ، وقصفت في الجو رواعده ، وإذا هي السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها ، واستأذنت في صدمة الفزع ربها ، فكادت ترجف الراجفة ....تتبعها الرادفة ..وإنما هي عند ذلك زجرة واحدة ، فإذا الخلق طعام الفناء ...وإذا الأرض « مائدة » !!![(١)].

والتأثر بالبيان القرآني في الشعر المعاصر تتعدد محاوره وظواهره

(أ) فقد يتأثر الشاعر بالبيان القرآني صياغة ، وفكراً وشعوراً ، فلبنات شعره تستمد جرسها العذب من المعجم القرآني ألفاظاً وتراكيب ، ورؤيته الشعرية تنطلق من الآفاق القرآنية ، وتنبع من مقومات التصور الإسلامي للحياة ..عقيدة وعبادة وعملاً .

(ب) وقد يتأثر الشاعر بالمعجم القرآني أي بألفاظه وتراكيبه ، ولا تشحن روحه

---

(١) تاريخ آداب العرب ج/٢ لمصطفى صادق الرافعي ص [٢٩ - ٣٠] وهذا الجزء مطبوع طبعة أخرى بعنوان مستقل هو « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » .

بطاقة الإيمان الدافعة ، وحينئذ يصبح التأثر شكلياً أدائياً يظل بمنأى عن نسيج الرؤية الإسلامية الطامحة إلى فعالية الوجود الحضارى المسلم .

(ج) وأحيانا يكون التأثر سلبياً مضاداً وذلك حين يسيء الشاعر استخدام الألفاظ والتراكيب والمعانى القرانية ..كأن يضعها فى غير مكانها اللائق ، أو أن يسوقها فى معرض السخرية والتهكم ، أو أن يحاول - جهلاً وغروراً ..وادعاءً - محاكاة أسلوب القرآن الكريم ظنًا منه أنه قادر على إبداع بيان فى مثل البيان القرآنى العظيم .

ومثل هذه المحاولات تبوء بالفشل الذريع .. ولا تحظى إلا بالرفض الكامل شكلاً ومضموناً .

محاور التأثر بالبيان القرآنى

١- التأثر النابع من الرؤية الإسلامية للحياة

والظاهرة الأولى من ظواهر التأثير بالبيان القرآنى ...تتمثل فى التأثر النابع من رؤية إسلامية للحياة ..منطلقة من الآفاق القرآنية ، ومحملة بثمار التصور الإسلامى ومقوماته وهى [الربانية - والإيجابية - والتوازن - والواقعية - والشمولية - والتوحيد - والثبات ......]

وتتجلى هذه الظاهرة فى شعر « محمد بنعماره »[1] فى ديوانه « مملكة الروح ، ونشيد الغرباء » وشعره نابع من وجدان مشرق بأضواء العقيدة الإسلامية، ومن رؤية شعرية ملتزمة بالتصور الإسلامي وموقفه من الكون والوجود والإنسان، وشعره متفتح على آفاق التجديد بكل مقاييسه الفنية ، ولم يفقد توهجه التأثيرى فى إطار التزامه بموقفه الإسلامى : يقول بنعماره « مستوحياً قوله سبحانه » ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حى ﴾ .

ورأيت المـــاء لونـــا ناعمـــاً
وغرست الحرف في الملح وناديت حبيباً عاشقاً

---

(١) من شعراء المغرب الملتزمين بالتيار الإسلامى ....ومن المجددين فى الشكل تجديداً فنيا واعيا .

ثـــم أطفـــأت حـــروفي

نطـــق المـــاء وقـــال

أنت كهـــف .. أنت طـــين

أنت نسـل المـاء إذ صار رمـادا ..... (١)

وينتصر الشاعر على الصراع بين المادة والروح ، ويعلن أنه من كائنات مملكة الروح، وتشغله قضية التكوين ، فهو لا يهرب من الحياة حين يعانق مملكة الروح .....بل يدعو إلى خصوبة الحياة وإعادة صياغتها فى إطار القيم الروحية ، ودعوته يقدمها فى أسلوب رمزى شفاف متأثر بالبيان القرآنى ، يقول :

أنت الجســـد الموصـــول ، وأنت المـــاء

أنت الـــراء وأنت الـــواو وأنت الحـــاء

أنت النخـــلة في جســـد الصحـــراء

أنت المؤمن بحديث المهد الأول تحت جناح العذراء(٢).

والخطاب الشعرى هنا يتكىء على أداة « الخطاب »(أنت) ويكررها الشاعر فى بداية كل بيت إعلاناً منه عن الهوية الحقيقية ، وكشفاً لمعالم الطريق ، وما [النخلة العطاء إلا رمز للحياة الخصبة في قلب الجدب الصحراء] .

وتناميًا للشعور الفنى والحس الإسلامى نراه يقرن النخلة بحديث المهد الأول تحت جناح العذراء ، وما حديث المهد الأول إلا حديث سيدنا عيسى عليه السلام حين قال المرجفون « كيف نكلم من كان فى المهد صبياً » ، وما النخلة إلا صدى إيمانى لمعجزة عيسى وأمه مريم حيث أمرها ربها بعد أن وضعت مولودها فقال :

﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾(٣)

وحديث المهد الذى يعلن الشاعر إيمانه به ينطق به البيان القرآنى العظيم :

﴿ قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا . وجعلنى

---

(١) ديوان « مملكة الروح » ص [١١ - ١٢] محمد بنعمارة

(٢) المرجع السابق ص [٨٤]

(٣) سورة مريم الآية [٢٥]

مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام علىَّ يوم ولدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حيًا ﴾[1]

وفى قصيدة « مملكة الروح » يصور الشاعر واقع الصراع بين العالم المادى الملحد وبين مملكة الروح التى شيدها الإسلام .....ويقتطف مشهداً من قصة موسى عليه السلام ليتخذ منه معبراً إلى مملكته التى يتشبث بها . ونسكن إليها رؤاه .

يقول الشاعر :

يسـقط ريشـي في بئـر الحكمـة
فأطـير بأجنحـة القـلب .....
وأنشـر هذا الشـوق الصاعـد في الغيم .....
ويسترني رمـز الماء المتـدفق بـين ترائبـه .....
معجـزتي ... عشـقي أتـوكأ / وأهـش بـه
فيـه مـآرب أخـرى [2].

فشوقه إلى الوجود الإسلامى المنتصر هو عصاه التى ستلقف ما يأفكون ، هو الذى يتوكأ عليه فى رؤاه ويهش به على مرائى الوجود ، وله فيها مآرب أخرى ..فهو سلاحه الذى لا يخبو ولا يصدأ .. بل يظل مشتعلاً فى كيانه يدفع به إلى حماة الصراع والمجالدة .

وإذا كان الشاعر « بنعماره » فى النماذج السابقة متأثراً بالبيان القرآنى مع تغيير فى التراكيب والألفاظ فإنه يقتبس أحياناً جزءً كاملاً من آية قرانية لفظاً ودلالة ، ويأتى اقتباسه فى مكانه الصحيح من التجربة ، ففى قصيدة « وألقاك على غصن الثورة قرآناً » التى يخاطب بها روح الإمام الشهيد «محمد باقر الصدر» يحاور الإمام الشهيد فى لغة عذبة صافية ، وإيقاع فني مؤثر ، مصوراً لرؤيته الإسلامية عبر هذا الخطاب الشعرى .

---

(١) سورة مريم : الايات من [٣٠ - ٣٣]

(٢) ديوان مملكة الروح ص [١١] « محمد بنعماره »

أنا لا أسـألك زمـانًا ومكـانًا
يـمتد إليـك نزيفـي
ليمـر الغيـم وينـأى

من يبحث عنـيَّ في ذاك الآتـي من رحم الإسـلام ...؟
ومن يبحث عنك هنالك في كل الأشيـاء الوافدة من الله إلينا ..؟
تسـاءلـ ولكـن « ضعـف الطـالب والمطلـوب »[1].

ولا يخفي اقتباس الشاعر من القرآن الكريم جزءًا كاملاً من الآية القرآنية الواردة في سورة الحج وهي قوله سبحانه :

﴿ ياأيها الناس ضرب مثلٌ فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[2] .

ويختتم الشاعر قصيدته « إنني أرسم إقلاعي بالأخضر » ليس بجزء من آية ، ولكن بآية قرآنية كاملة ، ولكن إيقاعها مخالف لإيقاع القصيدة . فالقصيدة تسير في إيقاعها على تفعيلة بحر الكامل « متفاعلن ».... والآية القرآنية تتوافق مع تفعيلة « بحر المتدارك» « فعلن » وربما عمد الشاعر إلى ذلك حتى لايختلط النص القرآني بالنص الشعري ....ويحدث اللبس والاضطراب ، ويقول الشاعر وهو يبشر المجاهدين الأفغان بالنصر :

أنلتقي ...وشـوارع الأفغـان أوقـدت النجـوم ....
وأخبـرت عنـا المـدائن والمرافـيء والمراكـب والمـطر
وتعانقت فيها الشوارع بالرجال برعشة اللحن المحمدى الجميل *
.......تبـاركت فيهـا الشهـادة آية مـزهوة
فتهيئـي نحصـي العسـاكـر والخيـول ....

---

(١) ديوان « نشيد الغرباء » ص [١٠] (محمد بنعمارة)
(٢) سورة الحج آية [٧٣]
* لجأ الشاعر إلى تخفيف النسب في كلمة « المحمدى » حتى يستقيم الوزن الشعرى وكان يمكنه تفادي ذلك .

ثم يتابع تدفقه الشعرى ...متسائلاً ..ومتحدياً قوى الباطل وأنصاره « أين أنا؟ ... كابول نرجسة وبحر فوقه عرس الجهاد ...... فقرأت : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾[1]

واقتباس الشاعر لهذه الآية ، وذكرها فى نهاية القصيدة إعلان عن نتيجة الصراع بين الحق والباطل ... فالله ينصر جنده المؤمن ....

ومهما تكاثفت غيوم الباطل فإن شمس الإيمان تشرق حتماً .. وتضيء دروب المجاهدين الرافعين لواء العقيدة معتقداً وشعاراً وسلوكًا .

وكاتب هذه الدراسة يتأثر بالبيان القرآنى فى تجاربه الشعرية المتعددة، وإذا كان « محمد بنعمارة » ختم قصيدته بآيه قرانية مثلت قرار التجربة ، وثمرة الرؤية فإن كاتب هذه الدراسة يبدأ إحدى قصائده وهى قصيدة «الفزع الأكبر» بست آيات من سورة الطور ، وهذه البداية لها دلالتها الفنية فى القصيدة ، فهى منبع التجربة ومصبها منها تبدأ وإليها تعود ... ، والقصيدة كلها بعد ذلك تتشكل من نسيج الألفاظ والتراكيب القرآنية . ،وهى بهذا المسلك الفنى تعلن أن أزمة الأمة العربية والإسلامية فى صراعها مع المد الإسرائيلى الغاشم لن يجد منها المسلمون مخرجاً إلا بالاحتكام ألى آيات هذا القرآن، والسير فى ظلال مبادئه وأضوائها المبددة لظلمات الشرك والجهل والوثنية والاستعباد .

وتبدأ القصيدة بهذه الأقسام :

«والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور
والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور»
«والشعب المقهور
والأقصى المهجور
والقدس المشطور
قد جاء الأمر وفار التنور
والعالم يغرق في الديجور
والسلم يفتش عن ساعده المبتور» [2]

---

(١) ديوان « نشيد الغرباء » لمحمد بنعمارة ص ١٣
(٢) ديوان « المسافر فى سنبلات الزمن » . د/ صابر عبد الدايم ص [٣٨]

وكما أشرت سابقاً .. فالقصيدة كلها مستوحاة من الأسلوب القرآنى ألفاظا وتراكيب وأفكاراً ، وهى بهذه الصيغة الإسلامية تعلن من خلال فنية الأسلوب أن مأساة المسلمين فى العالم بعامة ، وفى فلسطين بخاصة لن يبدد ليلها الطويل إلا بعودة الهوية الإسلامية ، واستعادة بريق المدّ الحضارى الإسلامى المتوارى خلف غيوم الحضارة المادية الحديثة !

وتشرق هذه التراكيب فى آفاق القصيدة :

فسماوات العصر انشقت
والأرض أراها قد مدت
ألقت ما فيها وتخلت

وترد أيضا هذه التراكيب والأساليب :

مجراها بسم الله ومرساها
تصغى للصوت القادم من لدن الملأ الأعلى
فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك
«إلا من سبق عليه القول»

وقصيدة « من فتوحات الغربة » يفتتحها الشاعر بآيتين من سورة الانشقاق ، وهما يمثلان لونين متضادين ... ولكنهما فى مجموعهما يكملان الرؤية ويصبغان التجربة بصبغة الصراع والمعاناة ....

يقول كاتب هذه السطور :

والليل وما وسق
والقمر إذا اتسق
إنني راكب طبقاً عن طبق
راحل في زمان القلق
صاعد في إنطفاء الأفق
ممتط صهوة الشمس لم أحترق

فالحادى مع الشمس عصر من الطهر يبزغ من بشريات الشفق(١)

---

(١) ديوان « المرايا وزهرة النار » ص [٢٧ - ٢٨] د/ صابر عبد الدايم

وقصيدة « المنفى داخل الوطن » تختم بآيتين هما بداية سورة العصر ..وتجيئان فى أسلوب القسم .. وله دلالته السامقة فى السياق القرآنى ..وهو فى سياق القصيدة يفتح للتجربة منافذ الإشراق والأمل والقوة فالقصيدة رصد لمسيرة الزعيم «أحمد عرابى» وتحديه للمستعمر الغاشم وللسلطة الظالمة ، وهو فى مقاومته المزدوجة يدافع عن ديار الإسلام ويذود عن دين الله فى أرض الكنانة .

تقول القصيدة فى آخر مشهد من مشاهدها ....

سنحارب من أجل الحريـــــة
سنـكـون فـداءً للوطنيــــة
نصـرخ فى التـل وعند رشيـد
نقســم ..نقســم ..ثم نعيـد
« والعصــر . إن الإنســان لفــى خســر »
إلا من وصـى بالحـق وحـارب من أجـل النصـر »[1]

وفى قصيدة « فى رحاب الإيمان » وهى من الشعر « المقفّى ..من بحر الطويـل وتبلغ أكثـر من مائة وعشـرين بيتًـا ..تشع الاقتبـاسات القرآنية فى نسيج القصيدة الشعورى والمعمارى ..فالشاعر فى حالة تصادم مع الواقع الآسن ، وهو رافض لما آل إليه أمر الإنسان من إنكار للقيم الدينية ، وإنكار لوجود الله ، وانخداع ببريق المادة ، يقول الشاعر فى معرض إشادته بدور القرآن الكريم فى إرساء قواعد الحضارة الإنسانية، والأخذ بيد العالمين إلى بر النجاة ، وهو فى هذه الإشادة يصور تناقض الإنسان المعاصر فى موقفه من القرآن ومن الخالق جل وعلا ...وجاءت الاقتباسات القرآنية مجسدة لهذا التناقض ..ورافضة له فى الوقت نفسه يقول كاتب هذه السطور :

وفي قرننا العشـرين تاهت سبيلنا	ولكننا في الذكـر شعّت لعميـــان
وقد قتل الإنسان في حمأة الهـوى	ومـدت له أيـــدي الغـرور ببهتـان
فأنكـر قرآنـا .. وأنكـر ربـــه	وفي أذنه عـن صيحة الحق كفـان
ولكنمـا القـرآن جـاء بمـا ادعـى	ولا تسمع الصم الدعاء ..بإمعان !!

---

(١) نص القصيدة الكامل بديوان « المسافر فى سنبلات الزمن » لكاتب الدراسة ص [٧٤]

ويخلق مالا تعلمون أما تلوا ؟ ففيها الأسرار مليون برهان
ألم تر أنَّ الله يزجى أماتلوا ! بلى .. لكن الأفئاد مُسّت بطغيان
وإن حل ذا فى القلب مزق نوره وصاحبه أعمى ..ولو فيه عينان
وللروح عين لايضار ضياؤها ترى كل يخفى عن الإنس والجان[1]

والتأثر بالبيان القرآنى يأتى فى بعض التجارب الشعرية لدى بعض الشعراء معبراً عن لحظة التحول من الرؤية المادية إلى الرؤية الصافية الصاعدة عبر معارج السمو والارتقاء الروحى ، وفى زمن هذا التحول تتوالى مشاهد كثيرة مقتبسة من البيان القرآنى العظيم ، وتتشكل من هذه المشاهد فى النهاية تكوينات الرؤية الإسلامية بكل أبعادها من اتزان وثبات وواقعية وإيجابية وشمولية .

يقول (أحمد فضل شبلول) من قصيدته « من الروح إلى الجسد » وهى فى ديوانه الذى رصد تجربة التحول فى رؤيته ..فالديوان عنوانه « مسافر إلى الله » يقول الشاعر على لسان « الروح / رؤيته الجديدة مخاطباً الجسد/ رؤيته الآفلة ، ويستوحى أصداء الفنية وخيوط تجربته من عبق القصص القرآنى مثل قصة موسى عليه السلام ، وقصة ابراهيم عليه السلام ، وقصة أهل الكهف .... يقول الشاعر :

« إنى قرأت فى الحجر
أقصوصة الذين فى قلوبهم مرض
شاهدت فى السحر
حدائق الذين فى صدورهم نهر
إنى رأيت في البحر موسى ومن معه
وقبلها
لمست نار البرد والسلام
فلا أمان

---

(١) نشرت القصيدة كاملة بجريدة « الندوة السعودية » ونشر معظمها بمجلة الأزهر عدد ربيع الثانى ١٤٠٢هـ ونصها الكامل موجود بديوان « مدائن الفجر » الماثل للطبع بنادى مكة الثقافى بالسعودية .

لكل ذي غشـــاوة ولا هـــــدى
إني نســـمت في الضـــحى
عبيـــر ســـبعة وكلبـــهم
ســـمعت في الخـــلا
تســبيحة الحجار .. تكبيرة الرمال
تنير للذيـــن في قلوبهـم سـلام
تضيء للذين في عيونهـم نهـار[1]

ومن ملامح التأثر بالبيان القرآنى أن الشاعر أحياناً يستمد إلهامه الشعرى من إشراقات آية قرآنية ، ويضع بعض الشعراء الآية فوق القصيدة ، لأنها تمثل منبع التجربة ...ومصدر إلهامه .

والشاعر عبد العليم القبانى يكتب قصيدته « محراب الليل » ويضع قوله سبحانه﴿ **والليل إذا سجى** ﴾ فى صدر القصيدة ، ويتأمل جمال الليل فى ظل رؤية إيمانية مستجلية جمال الخالق ، وهو فى هذه الرؤية الإيمانية يرفض صورة الليل القاتمة عند كثير من الشعراء وكذلك يرفض صورة الليل الماجنة فى تجارب لشعراء آخرين على امتداد مسيرة الشعر العربى ، فالإيمان اطمئنان وجمال وتفاؤل ويقين وصفاء ....

يقول:

رأيت الليـل حـين سجى ... ووشـى الكون بالشــهب
جمـالا فيـه سـر منـك ... فـــوق العقــل ياربـي
رأيت الليل حـين سرى ... على مهـد مـن العـشب
وغـــاب الســاحر الفضى ... فـي عـش مـن الســحب
فكان الكـون فـي عينـي ... وفـي سـمعي وفـي قلبـي
صـــلاة حـــرة الأعمــاق ... في محرابـك الرحـب[2]

ويأتى التأثر بالبيان القرآنى فى معرض صياغة الصورة الشعرية وتركيبها ليجعلها أكثر تأثيراً وعمقًا ، وأكثر وضاءة وإشراقا ..فالشاعر محمد على الرباوى فى قصيدته « السيل » يقول :

---

(١)ديوان « مسافر إلى الله ص [٤٠ - ٤١] أحمد فضل شبلول
(٢) ديوان « لله وللرسول » ص [١١] عبد العليم القبانى

«أيها المشاء في جوف الظلام
قلبك الأخضر مشكاة تدلي كوكب أخضر منها
أوقدت أرجاءه الشمس التي .....
... ما إن رست في ساحل الشرق أو الغرب ...
أمامي سبل مشرعة أبوابها
جسدي رجّ لها رجًا مَريحا
وارتمى في مرجل السبع الشداد[1] .

وفي ختام القصيدة يقول :

إني أعددت للعسرة إيماني .....
... لا تخش نحولي ... واتخذني صاحباً في هذه الشدة ...

فتصوير القلب بأنه مشكاة تدلى كوكب أخضر منها استيحاء لقوله سبحانه :
﴿ الله نور السمٰوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى .، يوقد من شجرة مباركة ﴾[2] .

واللون الأخضر يفسر هوية الشاعر الإسلامية ، فالخضرة ثمرة الخصب، وترجمان الجمال ، وللخضرة فى الوجدان المسلم أثر عميق نافذ .

والشاعر « محمد بنعمارة » يعنون إحدى قصائده بقوله « إننى أرسم إقلاعى بالأخضر ، ومصدر النور فى ذلك الكوكب الأخضر شمس الإيمان المتسامية فوق الصراعات المذهبية فهى لا تميل إلى الشرق ولا إلى الغرب، وإنما تتفتح على الملكوت كله ، وما على أصحاب الرؤى الإيمانية المسلمة إلا أن يصمدوا ويناضلوا فى سبيل عقيدتهم ، فالسبل مشرعة أبوابها والمدافعون عن قضيتهم يرتمون فى السبع الشداد .

وقصيدة « الأربعون » عند الشاعر « الرباوى » ترمز إلى الكمال الإنسانى ، فالأربعون فى عمر الإنسان حد فاصل بين واقعين ..واقع التيه / ما قبل

---

(١) ديوان « البيعة المشتعلة » ص [١٩] محمد على الرباوى

(٢) سورة النور آية [٣٥]

الأربعين ، وواقع اليقين/ ما بعد الأربعين ، وقد تكون هذه الرؤية للزمن مستوحاة من تيه قوم موسى الذين تاهوا فى الأرض أربعين سنة .

وقد تكون مستوحاة من منظور الإسلام لدائرة الاكتمال الشخصى الذى يتحقق فى سن الأربعين انطلاقاً من قوله سبحانه : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ .

وقد تكون مستوحاة من واقع شخصية المصطفى عليه السلام وبلوغه سن الأربعين ، ونزول الوحى عليه بعد بلوغه هذا السن ، ولكن فترة ما قبل الأربعين لم تكن تيهًا فى حياة الصادق الأمين ، ولكنها كانت إعداداً لرسالة أعظم ، ومهمة أجل وأخطر ...وهى هداية العالمين ، يصور الشاعر لحظة التحول تصويراً فنياً مقتبسًا ظلاله الإيجابية من البيان القرآنى يقول :

كان مثلـــــى ضائعــًا ...
لكن ريحـاً صرصـراً عاتيـة ...
...ذات صبـاح . قلعت كل جـذوره

ثم يواصل الشاعر الرحلة مستضيئاً بمعطيات التراث زماناً ومكاناً ...ولغة ....يقول :

دارة الأرقم تدعـوك ....انسحب من ذاتك الظمآى ....
.....ادخـل الـدارة .....أنت الأربعـــون »[1] .

وفى « قصيدة المناضل » يرسم الشاعر صورة ساخرة لتحول هذا المناضل وردته ، وهزيمته النفسية ، وفقدانه كل ملامح الهوية ، ولذلك يعبر عنه الشاعر بصيغة الغياب لا الحضور فهو غائب عن ساحة النضال الإيمانى بردته ، وهو غائب حتى عن كائنات الصياغة الشعرية ...يقول الشاعر .....

قالـــــــوا عنـه منـاضـــــــل
وأنا مازلت أفتش عنه لأقرأ في الليل كتابه[2] .

---

(١) ديوان « البيمة المشتعلة ص [١٨] محمد على الرباوى
(٢) المرجع السابق ص [٣٥]

وفى مقدمة ديوان « البيعة المشتعلة »(لمحمد على الرباوى)ينوه كاتب مقدمة الديوان « على لغزيوى » بالتيار الإسلامى فى شعر « الرباوى فيقول :

« وإذا كان الشاعر الرباوى يستوحى بنية الجملة القرآنية ، ويغرف من المعجم القرآنى ويوظف الشخصيات الإسلامية توظيفاً موفقاً واعياً يؤكد إيجابية هذا المنحى فى تجربته الشعرية ، فإن الإيمان فى نهاية المطاف من حيث المضمون والتصور إنقاذ من المتاهات الممتدة فى غير نهاية ، وخلاص من التساؤلات المحيرة، وتهدئة للنفس القلقة المتقلبة الحائرة التى لا تستسيغ شيئاً ولا تهتدى لشاطىء الأمان »[1] .

والشاعر « محمد المنتصر الريسونى » فى ديوانه « على درب الله » يخوض تجربة إسلامية تمتلك وضوح الرؤية ، وفنية الأداء ...ويعلن عن ذلك فى مقدمته النثرية لديوانه فيقول محدداً رؤيته « فهذه الإضمامة من الشعر ...لعل أهم ما يميزها أنها تحمل صوتاً غاضبًا لحمى الله ، يعلن الاحتجاج على التيه الذى يجلد كرامة الإنسان فى كل مكان من البسيطة ، كما يعلن إدانة الجاهلية فى شتى صورها المعيشة ، ويحدد دون مواربة موقف الرفض من كل منهج الله الذى ارتضاه للبشرية سواء أكان غربياً أم شرقياً ، من ثم نهلت الإضمامة من النبع الربانى الذى عاهدت الله ألا أنهل من غيره أو أحيد عن روحه ..وأتنكب طريقه التزاماً بالمضمون الإسلامى الحق فى صورته المثلى ومعالمه الواضحه وشياته المتميزة »[2].

ويركز الشاعر « الريسونى » على ضرورة تقديم الرؤية الإسلامية فى إطار فنى بالغ الجودة حتى لا يجد المغرضون منفذاً للهجوم عليه والسخرية منه : يقول :

« وفى يقينى أن نجاح الفن رهن - بدن ريب - بقدرة الفنان المسلم الذى يتولى تشكيله ، وينقله إلينا من خلال امكاناته الفكرية واستعداداته الثقافية ، ومدى وضوح الرؤية الإسلامية فى حسه ، وصدق معاناته للتجربة ، ومكنة أداته الفنية على استيعاب المضمون المنبثق عن تلاحم المعادل الموضوعى والمعادل الفنى ساعة التأمل ولحظة المخاض »[3]

---

(١) مقدمة ديوان على درب الله للشاعر محمد المنتصر الريسونى

(٣) المصدر السابق ص [١٩]

يقول « الريسونى »

قرأت حـروف الأسـى والحداد	تغوص بعين القتيـر الشـريد
تعـوم بهـا صبـوات المعنى	ليـوم يرف مواســم عيــد
سنا الله أنبت في الساح صبحاً	سـينداح عرسـاً بكل وريــد
نشـرت القـلاع فأبحـرت نحو	مغـانٍ تنـدت بحـب الحصيد
وردد عمـق المـدى عـزمتي	فصاح لخيلي نعال الحديد[١] .

ويقول في قصيدته « كتابات على جدران القهر » وفيها يرثى الشهيد « سيد قطب » ويبدأ القصيدة باقتباس قرآنى من بداية سورة « المسد » ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾ وكأنه بهذا الاقتباس يوازن بين جاهلية القرن العشرين وبين الجاهلية الأولى ، ويعيد إلى الذاكرة المؤمنة وهج الصراع بين حزب الرحمن وحزب الشيطان فى الأيام الأولى للإسلام ...ويوحى بأن الصراع مازال قائماً ...، وكل هذه الإيحاءات والإضاءات دفع بها إلى ساحة الشعور تأثر الشاعر بالبيان القرآنى، واقتباسه حذوة من وعيد الله لأبى لهـب .. الذى تحدى المصطفى عليه السلام وقال له حينما جمعهـم وقال « إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب « تبًا لك ...ألهذا جمعتنا ؟ » .يقول الريسونى فى رثاء « سيد قطب»

تبت يدا القهـر الرجيــــم
لم تغن عنه سطوته أو خدعته
« قطب » شـراع من ضيـاء
يسخــو على جزر المحـــاق
يدعــو المدائــن للعتـــاق
ركضــاً إلى فجــر خصيب
فتــــح صبيـــب[٢]

وفى قصيدة « فصول من كتاب » صالح وثمود » يستوحى أجواء القصة القرآنية ، ووجدانه الشاثر متفتح على « ثمود » القرن العشرين، وملكته الفنية

---

(١) السابق ص [١٩]

(٢) السابق ص [٢٥]

الإبداعية قادرة على استيعاب المضمون المنبثق عن تلاحم المعادل الموضوعى والمعادل الفنى ساعة التأمل ولحظة المخاض ، وفى القصيدة ترد تراكيب شعرية مستوحاة من السياق القرآنى ومنها « نادى صالح » ...« يوقد الشوقا......ياقوم ربكمو ....فاعبدوا » .

ويضع لأحد مقاطع القصيدة عنواناً مقتبساً من آية قرآنية هو « فدمدم عليهم ربهم ثم يقول :

جنت أحـــلام ثمـــود بطغواهـــا
عقـــروا الناقـــــة الآيــــة
فاســـــــتحبوا العـــــــمى
عـــــن نـــور الســـــما
حقـــــــــت كلمـــــــه
أزفـــــــت آزفـــــــه
مـــــالهـــــا كاشفـــــــه

وفي آخر القصيدة يقول مضيئًا تجربته :

ركب الإيمـــــان غـــــدا يمضي
بعـــــــد غـــــــد
تحدوه أشـــواق الهـــادي أحـــمد
تســـــتجلي آفـــــاق الآتي
تنـــدى طيــباً في الــوادي الجـــديب
تنـــــداح ســـناءات في ليـــل رهيـــب
وعلى الجودى : يستوى ركب الرحمان الأمين
فيقـــال : هـــلاكاً للقـــوم الظـــالمين(١)

ويفصح الشاعر عن ملامح هويته الإسلامية ..فيقول معلنا رفضه للقيم الجاهلية :

---

(١) السابق ص [٥٨- ٥٩]

«قريتي قـد رفضت رؤيـا «ســـواع»
أنكــــرت نســـل «منــاة»
آمـــنت بالمعجـــزات
معجـــزات اللــه فـي كاف ونـــون
منذ أن سوى الزمان ... والمكان ... والخليفـة
فـــإذا الـركب يســــير
عبـــر آفـــاق الدهـــور
والنبـــوات ائتـــلاقـــات اخـــضرار
تبـــذر الأزمـــان خصبًـــا وعطـــاء
«قريتي بنت الهدى ... حضنت إرث السماء»[1] .

٢ - التأثر الشكلى الأدائى

وهذا اللون من التأثر يمثل المحور الثانى من محاور التأثر بالبيان القرآنى أو ظواهر التأثر بهذا البيان .. أى بالألفاظ القرآنية والتراكيب فقط ويظل شكليا بعيداً عن لب التجربة وغير داخل فى إطار الرؤية الإسلامية الشاملة لموقف الإنسان من الحياة .. والكون ... والوجود .. وما وراء الطبيعة .. والنفس والروح، وكثير من تجارب « الشعر الحر أو شعر التفعيلة » نلمح فيها ظاهرة التأثر الأدائى بالبيان القرآنى ، ومن هذه التجارب تجربة الشاعر « محمد أبو دومة » فى ديوانه « السفر فى أنهار الظمأ » فهو يوظف التراث العربى الإسلامى توظيفاً فنياً فى إثراء تجربته ، والدفاع عن قضيته ، وهى بمنأى عن الالتزام بالرؤية الإسلامية ونطالع فى ديوانه هذه الاقتباسات القرآنية :

«تبـت يـدا الجـاني وتـب
فمـا اقترفتـم محضراً تجدوه
كل بما كسبت يداه رهين[2] .

---

(١) السابق ص [٦١ - ٦٠.]

(٢) أنظر ديوان « السفر فى أنهار الظمأ » لمحمد أبو دومه »

ويبدأ قصيدته « فوق ذراعى نقش باسم أبى ذر » بقوله « ولبطن الأرض أحب إلىّ » وهذه البداية مقتبسة من سورة يوسف حيث يرد على لسان يوسف فى السورة فى مواجهة إغراء امرأة العزيز « رب السجن أحب إلىّ » .

واختيار « أبو دومة » للأرض فى تعبيره بديلاً عن السجن ..يجعل لتجربته الطعم التواق إليه الشاعر ..فهو عاشق للأرض ..ويضحى فى سبيل هذا العشق .. وبطن الأرض يمثل فى النهاية أمنه وخلاصه ، وحين يجد الشاعر قضيته ويدافع عنها موظفاً الخطاب الشعرى بكل ما يحمل من عوامل التأثير والخصائص ..فهو لا يقع فى شباك النفاق ، بل يسخر من ولى الأمر الظالم سخرية مباشرة بعيدة عن الإيحاء تقترب فى صياغتها من اللغة التقريرية النثرية ...وذلك مزلق فنى لا يكاد ينجو منه إلا القليل من أصحاب الرؤى الملتزمة حيث لا يستطيعون الإمساك بالخيط الفنى الدقيق مع الالتزام بالرؤية المحدودة .

يقول الشاعر « أبو دومه »

وأنــا يــــا مــــن وليت الأمـــــر علىّ بأمـــــري
يفجــــــعني فيـــــــك الظاهـــــــــر
يفجـــــعني منـــــــك المخــــــفي
ورطنــي في خطـــأ الغفلة حســــن الظـــــن ، .....
... فلا تسألني حبك بالإكراه ... «ما خلق الله بجوفي من قلبين»[1] .

والشاعر يستمد تعبيره الأخير من قوله سبحانه ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾[2] .

وهذه الاقتباسات منفصلة عن السياق القرآنى ...مما يجعلها فى إطار التأثر الشكلى فقط ، ونطالع تراكيب كثيرة فى ديوان الشاعر « أبو دومة » يتأثر فيها بالبيان القرآنى مثل قوله : (هماز مشاء) بالذم ، وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ فى سورة القلم آية[١١] وقوله: (يهرف رجماً بالغيب)

---

(١) السابق ص [٨٤]

(٢) سورة الأحزاب آية [٤]

اقتباس من قوله سبحانه فى سورة الكهف ﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ....** ﴾ (١)
ويقول فى مفتتح قصيدته « السغب الظمى فى البلاط الفاطمى » .

«أحللنـــا لكـــم الميتـــة والـــدم والخـنزيـــر»
فليخبر حاضركم غائبكم يا إخواننا في الطاعة .
لأولي الشـــأن المعصومـــين النزهـــاء .

والشاعر يسوق هذا المفتتح فى معرض السخرية من أولى الشأن ولذلك يعرض بهم فى قوله « المعصومين النزهاء » وكيف يكون على هذه الشاكلة وقد أحلوا الميتة والدم والخنزير ... وذلك مخالف لما جاء به القرآن الكريم حيث حرم ما ذكره الشاعر وأحله أولو الشأن !!! والآية الكريمة التى استوحى منها الشاعر هذا التعبير ترسى قاعدة شرعية تمثل لبنة من لبنات المنهج الإسلامــى حيث يقول سبحــانه فى سورة المــائدة ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغيرالله به .....** ﴾(٢) وفى القصيدة نفسها يقول الشاعر :

ســــــــــــــدت دور الصدقـــــــــــــــة
نصبت فى أروقه الأزهر كل بنود البر وصار لصوص الأمن هم العسكر والويل لمن قـــــال السجـــــــن « أحـــــب إلـــــــيَّ »

وواضح أن موقف سيدنا « يوسف » الرافض لإغراء امراة العزيز كان مصدراً من مصادر تجربة الشاعـر حيث يقـول سبحـــانه فى سورة يوسف ﴿ **قال ربِّ السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهم أصبو إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾(٣) .

ولكن الشاعر جعل السجن عقاباً لرفض الذل والحرمان والجدب ، وليس عقابًا على رفـض الإغـراء وعـدم الاستجـابة لمتـع الحياة الرخيصة كما فى قصـة يوسف

---

(١) سورة الكهف آية [٢٢]
(٢) سورة المائدة آية [٣]
(٣) سورة يوسف آية [٣٣]

« وليس هناك من جامع بين قضية الشاعر والسياق القرآنى سوى نزعة الاعتراض ، ومن هناك كان التأثر شكلياً لا يتعدى دائرة اللفظ والصياغة ، ولا ينفذ إلى عمق النص ، ولا يتوهج بإشراقات الإيمان ، وقد تكون للشاعر قضيته التى يدافع عنها ...ولكنها برغم هذا التأثر بالبيان القرآنى خارج دائرة الرؤية الإسلامية التواقة إلى الوجود الإسلامى المؤثر فى المسيرة الإنسانية .

٣ - التأثر السلبى بالبيان القرآنى

وهو التأثر الذى يسىء فيه الشاعر إستخدام الألفاظ والتراكيب والمعانى القرآنية . كأن يضعها فى غير مكانها اللائق ، أو أن يسوقها فى معرض السخرية والتهكم ، أو أن يحاول - جهلاً وغروراً وادعاءً - محاكاة أسلوب القرآن الكريم ، ظنا منه أنه قادر على إبداع بيان يكافىء البيان القرآنى العظيم ، ومثل هذه المحاولات تبوء بالفشل الذريع ، ولا تحظى إلا بالرفض الكامل شكلاً ومضمونا ، وقد فعل مسيلمة الكذاب ذلك ولكنه باء بسخط من الله ، ولم يلق عمله من الجماهير المؤمنة سوى الرفض الكامل ، ولم ترق أساليبه لعلماء اللغة والبيان ، فاندثرت كما اندثرت بقايا عاد وثمود .

ومن قرآن مسيلمة الذى زعمه قوله « والمبذرات زرعاً ، والحاصدات حصداً والذاريات قمحاً والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرْداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغى فناوءوه » .

وكل كلامه كما يقول الرافعى «على هذا النمط واه سخيف لا ينهض ولا يتماسك ، بل هو مضطرب النسيج ، مبتذل المعنى ، مستهلك من جهتيه ، ...

وكل أساليبه « ضروب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن فى تراكيبه ، ويجنح فى أكثرها إلى سجع الكهان »[1].

وقد حاول زعيم البابيّة هذه المحاولة فى كتابه « البيان » ولكنه أسلوب جاء

---

(١) أنظر الجزء الثانى من كتاب « تاريخ أدب العرب للرافعى ص [١٧٤- ١٧٥]

مهلهل النسيج ضعيف الصياغة . ركيك المعانى ، وليست عبارته إلا « بعض أمشاج متباينة متناقضة اختارها غلام يتنازعه فكر مضطرب ، وخيالات هاذية ، فلا ترى فكرة نابهة ، أو عاطفة صادقة ، أو تصويراً جميلاً أو إسلوبا مشرقاً ، وانما ترى جملاً ينفر بعضها من بعض ، ويناقض أولها آخرها ، وأشد ما يثير دهشتك وسخريتك تلك السجعات التى يختم بها فقراته ، فهى حروف مركبة تركيبا لا يوحى بمعنى ، ولا يومىء إلى دلالة ، ولا صلة لها أبداً بما يسبقها من القول .

ومن أقواله التى تستبد بها الجهالة والضلالة والخلط والفساد (تبارك الله من سلط متسلط رفيع ، تبارك الله من وزر مؤتزر وزير، تبارك الله من حكم محتكم بديع ، تبارك الله من جمل مجتمل جميل)[1] .

وهذه النزعة تسربت إلى حقل المعجم الشعرى فى العصر الحديث وأساء بعضهم عن عمد استخدام الألفاظ المقدسة فى تجاربهم الشعرية ، وبعضهم انزلق عن غير قصد إلى هذا المزلق الفنى تقليداً منهم للنماذج المشهورة .

فلفظ الجلالة ... والقدر ، والنبى .. والصلاة وغير ذلك من الألفاظ التى تتسم بالقداسة الدينية ترد فى دواوين بعض الشعراء فى غير مكانها ، وبعيدة عن إيحائها الراسخ فى وجدان الإنسان .

يقول الشاعر « خليل حاوى » مسيئاً استخدام لفظ الجلالة :

طرقات الأرض مهما تتناءى ...
عند بابي ... ينتهي كل طريق
ويكوخي يستريح التوأمان
الله والدهر السحيق[2]

والشاعر نفسه يجعل الصلاة بابا للذل والخضوع ..وهى فى الحقيقة علاقة حميمة بين المسلم وبين ربه ...وبين الإنسان المتدين بعامة وبين خالقه من شأنها أن تهب النفس الإنسانية التوازن والثبات : يقول :

---

(١) أنظر كتاب « البهائية » تاريخها وعقيدتها « عبد الرحمن الوكيل » ص [١٢٠- ١٢١]
(٢) ديوان « خليل حادى » ص [١٥]

مبحر مـاتت بعينيه منـارات الطريـق

مـات ذاك الضـوء في عينيـه مـات

لا البطولات تنجيه ولا ذل الصلاة[1]

ويقول ..مستخدمًا لفظ « الإله » بمدلوله المستقر فى الوجدان فى غير موضعه ....

يا مجوس الشرق ، هل طوفتم فى غمرة الأرض إلى أرض الحضارة لتروا أي إله يتجلى من جديد في المغارة [2] .

ثم يقـول : « ياإلهـا هاربـاً من صرعة الشمـس ومن رعب اليقـين يتخفى فى المغارة[3] ويقول :

لن تموت الأرض إن متم ... لها بعـل إلهي قديم

طالما حنت إليـه ... غير ليـل العقم أنثى والهـة

فضُها البعل ورواها ... فغصت بالرجال الوالهة[4]

وفى ديوان « أبى دومه » ترد التراكيب الآتية :

« يبكون رباً » أدمن التأليه ، قاءتنى أقدارى[5] .

وهى تراكيب ترد كثيراً فى دواوين الشعراء المحدثين ..تضل الطريق الفنى والموضوعى إلى الاستخدام الصحيح للألفاظ القدسية ، وتفقد هذه التراكيب إيحاءاتها المشعة فى وجدان القارىء المسلم ، وتصدم مشاعره ، ولا تلقى منه إلا الرفض والاستهجان .

وقد وقع فى هذا المزلق الأسلوبى بعض شعراء التيار الإسلامى ومنهم « محمد بنعماره » حيث يقول فى ديوانه « نشيد الغرباء » من قصيدة أناشيد عائشة الأفغانستانية :

واللـــه يـــوزع منشـــورا نتـــدبره

وبه نحرق أوراق «الأمبير» يميناً ويساراً

---

(١) السابق ص [١٩]

(٢) السابق ص [١٠٩]

(٣) السابق ص [١١٥]

(٤) السابق ص [١٢٣]

(٥) أنظر ديوان « السفر فى أنهار الظمأ » ص [١٦- ٩٥] محمد أبو دومة

وفي قصيدة « الموت الخرافي » يقول الشاعر نفسه

إني اشتهيتك صحوة تسري وتزهر في كياني
الأنبياء تسللوا ... نحو النهارات البعيدة ...
يملأون شوارع المدن الحزينة بالغناء[1].

ويمكن ان يعبر عن دور الأنبياء بلفظ غير « تسللوا » وبلفظ غير «الغناء » مع ما يوحى به لفظ « الغناء » من موحيات السعادة والأمل .

ويمكن أن يقال : « الأنبياء تسابقوا ...نحو النهارات البعيدة ..
.... يملأون شوارع المدن الحزينة بالضيـاء »

والشاعر « حسين علي محمد » يصور مكة بالأنثى التى يشتاق إليها العاشق، وحين يلتقى بها يخاصرها قدام الناس .

وذلك التصوير مهما كان رمزياً ومهما كانت أبعاده الفنية واستدعاءاته الباطنية ومبرراته النفسية ...فإنه يظل بعيداً عن التوظيف الفنى الصحيح لمسميات الأمكنة فى الرؤية الشعرية الدائرة فى فلك التصور الإسلامى .

يقول الشاعر :

(ظل يخاصر مكة قدام الناس ويصرخ
أنت عروس ، يا قمرى الناصع غبت سنين عن القلب ...
.... تعودين الآن فتمتلئ الدنيا بالبهجة ...
.... يشتعل الجسد الفارغ ....)
(.... كان الوجه الطيب يتلوا آيات النصر ....
.... ويعرف أفراحك يا مكة والأتراح ...
وكانت عيناك تقولان كلاماً محفوراً فى أفئدة العشاق [2]

---

(١) أنظر ديوان « نشيد الغرباء » ص [٤٤ - ٤٩] لمحمد بنعمارة
(٢) ديوان « الرحيل على جواد النار » ص ٣٢ - ٣٣] حسين على محمد

إن التراث الإسلامى بكل معطياته شخوصاً وأماكن ومواقف ... وأزماناً يضىء زوايا التجربة فى الشعر المعاصر .....وتتعدد محاور تأثيره فى صياغة التجربة ومنها :

أ - استدعاء الشخصيات التراثية الإسلامية

ب ـ الأمكنة الإسلامية وأثرها فى تشكيل النسيج الشعرى

ومع هذين المحورين سأرصد ملامح هذا البعد من أبعاد الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر .

أ - استدعاء الشخصيات التراثية الإسلامية :

حين نتأمل التجارب التى اتكأت على توظيف الشخصيات الإسلامية فى اكساب التجربة أبعاداً فنية نجد أن الشعراء يتفاوتون فيما بينهم فى التعامل الفنى مع هذه الشخصيات فى حالتيها « الوجه والقناع » .

فالشخصية فى النسيج الشعرى ليست تاريخاً يروى ، وليست سيرة يحللها الشاعر ، وإنما استدعاؤها يأتى فى إطار شعرى غير محدد بأسوار التاريخ وغير خاضع لمنطقه المحكم ، وهذا الاستدعاء يسلط الشعور الناقد أو الرافض أو المتعاطف مع حركة الحياة المعاصرة .

وقد يقتصر هذا الاستدعاء على بعد واحد من أبعاد الشخصية مثل البعد السياسى ، وقد يتجاوز هذا البعد إلى الرؤية الشمولية للشخصية كلها فينظر إليها انطلاقاً من منظور عقدى ، ووجدانه يموج بوهج الإيمان، والشوق إلى انتصار الوجود الإسلامى ، وعودته إلى تسنم ذروة المجد، وقمة الحضارة .

وشخصية « المصطفى » ﷺ .. كم كانت وما تزال ..وستظل مصدراً لتفوق كثير من التجارب الشعرية الرائدة ...وسر ذلك ، أن مقومات الشخصية المحمدية هى نموذج للشخصبة الإسلامية فى صورتها المثلى . ولا غرو فهو الرحمة المهداة ، وهو أفصح العرب لساناً وأصفاهم جناناً ، وهو السراج المنير ، وهو البشير النذير ،

والمدائح النبوية منذ عصر البعثة إلى الآن ..لم تزل فيوضاتها تتجدد .. وتغمر حقول التجارب الشعرية .. في تجديد الأدوات الفنية ... وتفتح الرؤى على ما في العصر من منجزات وقيم فنية ، وما زالت شخصية المصطفى عليه السلام تمد البصائر المؤمنة بأروع أسرار الكلم ، وأصدق آيات القصيد .

والباحث الدكتور/ حلمي محمد القاعود كانت أطروحته لنيل درجة الدكتوراه حول « شخصية محمد في الأدب العربي في القرن الرابع عشر الهجري » وهي دراسة وافية للأعمال الإبداعية التي تناولت شخصية المصطفى ﷺ[1] .

والشاعر/ محمود حسن اسماعيل يخوض تجربة الارتحال مع النور الأعظم ، ويشهد ببصيرته انبثاق النور المحمدي في آفاق الكون ، فتتجمع خيوط الزمن في ذاكرته ، وتتوهج مسيرة الإسلام في وجدانه ، والنور الأعظم يتهادى أمام مسارات تجربته ، فتبصر الكون وقد أفاء الله عليه بظلال الإسلام ، وتبديد الرؤى الوثنية المظلمة ، يقول في صياغة خبرية تفصح عن تحقق الرؤية وواقعية الأحداث ، وتغلغلها في ضمير الزمن ، وتعاقب الأجيال ، وتتوالى الأبيات في إيقاع سريع ...وموسيقى مصورة لحركة الشعور..وحركة الواقع ..وهي موسيقى بحر المتدارك»

يقول الشاعر :

يا أول نـــــــــــور

عطش الدنيا جنّ عليه ... وروى الحيرة من قدميه!!

البيـد الظمـآى ... شـربت منـــــه ...

وراحـت تسـقي الظمـأ اللاهـث في الأكـوان

وأذاب ضحـــاه جـــدار الليـــل ...

... وأوغـل ... أوغـل حتى شعشـع في الإنسـان

رش اليقظـــة والتوحيـــد علـى رئتيــه

ومحـا الذلـــة والإطراقـــة مـــن جفنيــه

ودهسى الرق وكان محـالاً لا يتزحـزح عن كتفيــه

ومضى ... يسحق كل ظلام ... عبر الدهر ومرَّ عليه

---

(١) أنظر كتاب « شخصية محمد في الأدب العربي في القرن الرابع عشر الهجري » د/ حلمي القاعود . دار الوفاء المنصورة

وأنظر استدعاء الشخصيات التراثية د/ علي عشري زايد .

عــرج الأفـــق وأذن مـــن أعـــلى أعـــلاه ...
... وراح يدق ... ويطرق ...ويطرق ... وفي الأبواب
الفجـر توهـج يا ســـارين عـــلى الأعـــتاب
والليل الضارب حول الكون تصدع في شفتيه وذاب(١)

ولكاتب هذه السطور رؤيته الفنية فى هذا الاتجاه .. فالشخصيات الإسلامية تعد محوراً تدور فى فلكه التجربة الشعرية ، وتوظيف الشخصية فى حالتيها « الوجه والقناع » هو إطار التجربة ، فالوجة هو الواقع التاريخى للشخصية ، والقناع هو الواقع المعاصر الذى تبعث فيه الشخصية لتنفخ فيه من روحها النقاء والعزيمة والعزة الإسلامية الشماء .

وشخصية « محمد عليه السلام كانت مصدراً لكثير من تجاربى الشعرية ومنها:

قصيدة « محمد ورحلة اليقين » ، «وأين الطريق إليك » ،« وقافلة الغرباء »، « وأبا الزهراء » ، « رسالة إلى المصطفى ﷺ »(٢)

وقصيدة « قافلة الغرباء » رصد وجدانى إيمانى لرسالة الشاعر فى ظلال الإسلام ، ومحاولة للعثور على ملامح الرؤية الشعرية فى التصور الإسلامى ، والقصيدة فى وجهها الآخر إدانة لمسيرة الشعر العربى التى ابتعدت به فى بعض تجاربه عن الدرب الصحيح ، وجعلته مطية للنفاق، واتخذت منه معبراً للكسب المادى ، وجعلت منه كلمةً جوفاء لاهية تدغدغ مشاعر كل كيان مغرور أحمق .

أحمل في شرياني الحبّ ... أجيء إليك على استحياء
يا مـــن أشـــرقت علينـــا بشـــريعتك الغـــراء

---

(١) ديوان « نهر الحقيقة » لمحمود حسن اسماعيل ص [١٩٠ - ١٩٢]
وأنظر كتاب » محمود حسن اسماعيل » بين الأصالة والمعاصرة لكاتب الدراسة من ص [٢٥٩ - ٢٨٠].
وأنظر كتاب « مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر » لكاتب الدراسة (أبعاد الرؤية الإسلامية فى مولد النور)
(٢) هذه القصائد نشر بعضها بمجلة الأزهر ومجلة المنهل ، والأخيرتان منشورتان بديوان « نبضات قلبين » لكاتب الدراسة

أهواك ... فأنت سقيت كياني معنى البوح وسر الإفضاء
ألهمني ســـر الوجـــد فأنت بأرض العشـــاق ســـماء
وأراك أتيت إلى العـــالم فـــي قـــافلــــة الغـــرباء
ولأنك أدركت الجـــــوهر فـي عمـــق الأشـــياء
وتســـــاقيت رحيـــق الحـــق مـــن العليـــاء
صـــــارت خطواتـــــك فـــوق الأرض ضيـــاء
صـــــارت كلمـــــاتك آفاقـــــاً للشـــــرفاء
وإذا أبـواب الجنـــة ... أبـــوابك ... تفتـــح للفقـــراء
والعـــالم ســـبق إليهـــا زمـــراً تعمـــره الآلاء
لم توصـــد أبوابـــك إلا في وجـــه الشـــعراء
فالشـــــعراء ترامـــوا بنبـــال الحـــرف العميـــاء
واقتتـلوا فـي ســـاحـــات الكلمـــات الجوفـــاء[1]

وشخصية « بلال » من الشخصيات التى كانت ومازالت منبعاً لكثير من التجارب الشعرية وقصيدة « ترنيمة بلال » للشاعر « حسين على محمد » تمثل الرؤية الشمولية للشخصية الإسلامية حيث يمثل بلال فيها - كما يقول د/ على عشرى زايد فى مقدمته لديوان الشاعر « تجسداً من تجسدات » الحلم المناضل ويحمل دلالات رمزية معاصرة ، ويستغل الشاعر من ، ملامح شخصية بلال - رضى الله عنه - ملمحين أساسيين « المؤذن ، والمجاهد الصامد » ، فإلى جوار كون بلال هو مؤذن الرسول فهو واحد من الذين تحملوا أقسى صنوف العذاب فى سبيل عقيدته ، وصمد صموداً فذاً ، والمشركون يجرونه فى شعاب مكة ، ويضعون الصخور على صدره ليعلن كفره بالدين الجديد ، ولكنه لم يكن يحرك لسانه بسوى هذا الدعاء العلوى « أحد ... أحد » وقد امتزج هذا الملمحان امتزاجاً فنياً بارعًا ، للرمز من خلال هذا المزج إلى انتصار صوت الحق دائمًا فى النهاية ، واكتساح نور الحق لكل ظلمات الضلال والظلم ، شريطة أن يجد هذا الحق أنصاراً فى مثل صمود بلال ومثل يقينه .

---

(١) أنظر نص القصيدة كاملا بديوان «المسافر فى سنبلات الزمن» صابر عبد الدايم

خلـف النوافـذ حـط عصفـور شريـد
نقـــر الســـــاء
فافتـــر عـــن فجـــر جديـــد
فجر العصافير التى غنت كثيراً للصبـــاح
أحـــــد ..... أحـــــد
أحـــــد ..... أحـــــد
أحـــــد ..... أحـــــد
والليـــــل يرحـــــل والجـــراح
والشمس ... شمس محمد ... تجتاح مكة والبطاح (١)

وإذا كان « حسين علي محمد » قد نجح في توظيف شخصيـة « بلال» بموحياتها في الوجدان المسلم فى قصيدته « الرحيل على جواد النـار » أو « من مكـابدات عبد الله بن الزبير » لم يتخذ من « عبدالله بن الزبير » رمزاً تاريخياً ، ولم يحصره فى دائرة البعد السياسى ولم يتجاوز هذه الدائرة إلى الرؤية الشمولية ، ولكن الشاعر جعل من شخصية « ابن الزبير » معادلاً موضوعياً لذاته، ومن خلال استدعائه لهذه الشخصية طرح همومه وقلقه ، وأبان عن نفسيته وما تموج به من قلق وأشواق، وفى نهاية رحلته على جواد النار المندلعة فى داخله ... نراه يهدأ .... وكأنه وجد أمنه وخلاصه فى ساحة « عبد الله بن الزبير » فبدأ يضىء تجربته بمشاهد من نضال ابن الزبير فيخاطب الإنسان المعاصر الواقف فى وجه الحجاج ، ومن خلال هذا الخطاب تتحدد معالم رؤية الشاعر الإسلامية .

..... يقول

أبنائي ... ياأقمار الدنيا في ليل الأنواء
صرتـم .... جـــاهدتم
قلتم كلمة حـق في وجـــه الحجاج .....
.... وقفـــتم .... ثـــابرتم
ما زالت أناديكم ... ياأحباب الفجـر الآتي

---

(١) أنظر مقدمة ديوان « شجرة الحلم » التى كتبها الدكتور على عشرى ص [١٦ - ١٧]

أبنـــــــائي ....
من يحمل راية حزب الله القادر لا ييأس .....
.... مـن نـصر الله القـادم
فاللـه الأكبـر في صـف الفقـراء بجـانبهم
.... يقـف يحـارب يا أبنـائي
هـــذا وقـــت البـــــذل[1] .

وشخصية « أبى حيان التوحيدى » يصور الشاعر من خلالها ، شعور الإنسان بالقلق والهزيمة والإحباط ، وعنوان القصيدة يوحى بذلك « الخروج من الجنة » ، وفى ختام القصيدة يرسم المشهد التعبيرى المؤثر.

«أرجـــع مكســـوراً وجريحـــــاً ،
قــــد يكفي أن أمتــــص جراحـــي
لكنـي أخــرج مـــن جـــنتك ...
... فأعرف أني خنتك في أولى لحظات الكشف
..... فســالت قنــوات دمـــائي
ترســـم غيمـــات زرقـــاء .....
... على وجـــه القمـــر الشـــاحب»[2] .

والتصوير الشعري يجسد الواقع النفسى ، فدماء الشاعر تسيل ، والعالم كله يصبغ بلون نفسيته وأثر دمائه ...فإذا به يرى دماءه غيومًا، تحجب عنه ضوء الحقيقة الهارب منه فى صورة القمر الشاحب ، وليست قنوات الدماء ، ولا الغيوم الزرقاء ، ولا القمر الشاحب إلا تصويراً لنفسية الشاعر ، وإحساسه بالقلق ، وشعوره بالتصادم مع إيقاع الحياة المعاصرة .

ويفسر الشاعر هذا الرمز النفسى فى قصيدة تالية لقصيدة «الخروج من الجنة » وهى قصيدة « الغريب » يقول :

---

(١) ديوان « الرحيل على جواد النار » ص [٣٦ - ٣٨] حسين على محمد

(٢) ديوان « الرحيل على جواد النار » ص [٤٤] حسين على محمد

«الصوت يهتف ، كيـف ترتعـد الشـموس
وأنا أشـيح بوجـهي المكـدود ....
... في عيني أهوال وآفاق من الرعب الكئيب
النـور يا أمـي يغـيب
والنفس تصرخ «هل سيأتيني الخصيب»[1] .

وشخصية « أبى ذر » ينجح « حسين على محمد » فى استيحاء أبعادها ، ويرصدها رصداً فنياً فى لحظة التحول الحقيقى ....، لحظة إشراق نور الإسلام فى وجدان أبى ذر ، وفى عقله ، ولحظة التحول هذه .... هى التى أضاءت له دروب حياته فيما بعد ، ويرجع توفيق « حسين » فى هذه التجربة إلى ملمحين :

أولاً : إنه لم يقلد غيره من الشعراء المعاصرين الذين اتخذوا من أبى ذر رمزاً لمقاومة الثراء ... حيث يحب الفقراء ، ويدافع عنهم ، ويقولون إنه أول اشتراكى فى الإسلام ... وهى صورة قاصرة لشخصية أبى ذر ، فهو مسلم ... والمسلم ينطلق فى كل تصرفاته وسلوكياته من منابع مضيئة بالتوحيد .. والربوبية .. والشمولية .. والاتزان .. والواقعية والوجدانية ، فالغنى ليس مرفوضا فى التصور الإسلامى ، وكذلك الفقر ليس هدفاً يركض وراءه المسلم .. ، قال تعالى ﴿ **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ ، وقال ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى** ﴾ ويقول سبحانه ﴿ **وفى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم** ﴾ ويقول سبحانه ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ .

ثانيا : إنه صاغ رؤيته لشخصية أبى ذر فى إطار الشعر المسرحى، وحالفه التوفيق فى هذه الصياغة المسرحية .

والحوار بين أبى ذر وبين « أنيس » من أقوى مشاهد المسرحية . فهو حوار بين الحق / أبى ذر ، وبين الباطل / أنيس ، فأبو ذر يشعر ببطلان عبادة الأصنام .... يقول له أخوه أنيس : « - هل أنت صبأت ؟

أبو ذر - لم أصبأ ... لكنى أتلمس ضوء الحق .... - أبحث عنه

---

(١) السابق ص [٤٥ - ٤٦]

أنيس « قلقاً » - ومناه ... ؟
أبو ذر .... - لا تكفينى .... لا تشعبنى
أثق يقيناً أن هناك إلهاً
أقوى من كل الأصنام
أقوى من معبودتك « مناه »
فهو الخالق والقادر »[1] .

وإذا كان « حسين على محمد » قد رصد لحظة التحول فى حياة أبى ذر الغفارى فإن « محمد المنتصر الريسونى » يرصد ثمرة ذلك التحول التى تتمثل فى تتويج رحلة أبى ذر بهذه القدوة المضيئة بالأعمال الصالحات ، وبهذا السلوك النابض بإيقاع الحياة الإسلامية .... يقول مصوراً انتصار الحق ، وكأنه يصور « أبا ذر » الباحث عن النور كما وصفه « حسين على محمد » فى مسرحيته .

يقول « الريسونى » :

موكب الأشواق في رحلة فجر وضياء
يحمل الوجه الأصيل
بين عينيه مجادات حراء
وشعاع أحدى أخضر عذب السناء
يسكب الفرحة فى عين الجياع .... [2] .

والشاعر « عبد الرحمن العشماوى » * يتخذ من الشخصيات التراثية الإسلامية مصدراً لبعض تجاربه الشعرية .... وهو فى استدعائه لهذه الشخصيات مثل شخصية خالد بن الوليد ، وشخصية هارون الرشيد....

يخاطب الشخصية من الخارج ولا يتوغل فى أعماقها ...ولا يصوغ تجربته فى قالب « قصص أو درامى » يثرى التجربة ، ويهب القصيدة الوحدة الموضوعية والعضوية.

---

(١) السابق ص [٧٧]

(٢) ديوان « على درب الله » ص [١٧] محمد المنتصر الريونى

* من شعراء المملكة العربية السعودية المعاصرين وهو من الشعراء الملتزمين بالرؤية الإسلامية

ولذلك نرى الشاعر يصوغ تجربته في القالب « الرسالى » ويسمى قصيدته « رسالة إلى خالد بن الوليد » ، وله قصيدة بعنوان « رسالة إلى «هارون الرشيد».

وفي قصيدة رسالة « خالد بن الوليد » يعلن عن عدم امتزاجه وانصهاره الفني بالشخصية .. فيلجأ إلى صيغة النداء، وهو برغم عدم امتزاجه بالشخصية يجسم عاطفة القرب حين يكرر صيغة النداء « ست مرات » ويستخدم حرف النداء الدال على القرب وهو « الهمزة »

يقول الشاعر مخاطباً خالد بن الوليد . وناقلاً إليه ما ينوء به كاهله من قيم هذا العصر الفاسد ، وكأنه يصور رغبته وأشواقه التى تبحث عن القائد الإسلامى المعاصر ....

يقول : من قصيدته التى تبلغ ثمانين بيتًا

أبا سليمان ما ألغيت ذاكرتي ... ولا أضعت أمام الخطب ميزاني
مضيت نحوك والآلام ثائرة ... أسير منها على أكتاف بركان
أتيت أبحث عن ظل وساقية ... وعن صديق يواسينى ويرعاني
أتيت أبحث عن ذكرى ..فمعذرة ... إذا بثثتك ما يخفيه وجداني
أبا سليمان ..عين المجد ترمقنى ... بنظرة الخائف المستوحش العاني
على جوادك مد المجد قامته ... وحدّ سيفك أدمى كل خوان(١)

وإذا كان الشاعر/ عبد الرحمن العشماوى يخاطب الشخصية من الخارج ، ولا يتوغل فى أعماقها فإن الشاعر/ محمد أبو دومة « يقتصر على البعد السياسى والبعد الاجتماعى ، ويظل فى تجاريه الشعرية بمنأى عن الرؤية الشمولية للشخصية بصفتها شخصية مسلمة شاركت فى صنع الوجود المسلم بكل أبعاده ، فهو يحمل « هويته » فى صورة نقش على ذراعه باسم أبى ذر ، وهذه الهوية لا تضيف إلى رمز « أبى ذر » شيئاً جديداً ، ولكنها تتعامل معه من منظور الثورة على الأغنياء ، وعلى الحكم الأموى ، وفى مفارقات تصويرية ساخرة يوضح الشاعر

---

(١) أنظر نص القصيدة كاملا بجريدة الندوه السعودية العدد ٨٥٤٥ - الأحد ٧ شعبان سنة ١٤٠٧ هـ ملحق الندوة الأولى

ملامح هويته التى يحاول فك طلاسمها من خلال موحيات ومعطيات شخصية « أبى ذر » والشاعر بهذا المنحى الفنى فى تعامله مع الشخصية يلتقى مع « حسين على محمد » فى استيحائه لشخصية ابن الزبير ، فكلاهما يصوغ رؤيته وموقفه من حركة الحياة ، ويجعل من الشخصية فى بعض التجارب معبراً فنياً يقدم من خلاله نفسه وموقفه مما يدور حوله من متغيرات وتناقضات ، يقول « أبو

. تتمطى قدامى صحراء المنفى موجات صدى
تتكوّم فى صدرى الأحزان
يا أحبابى ماذا فى الإمكان ؟؟
طوقنى سجنى ... فالخطوة باستئذان
والكلمة باستئذان
حتى أنفاسى .. تحصيها أضلاعى باستئذان .... !!!
أذكر لحظة أن قابلت « أبا ذر » يسحبه الحراس إلى « الربذة »
حملق فى وجهى برهه
أعطانى معتذراً ظهره
ومضى يحكى للحصباء عن النار المنتظره
عنا حين تجرعنا الموت قعوداً
حين تجرعناه وفوقا
لكنى ما فارقت خطاك
فمعاوية-يلاحقنى مذ شاهد فوق ذراعى نقشاً باسمك(١)

وفى قصيدة « مشتكاى يا خامس الخلفاء » يصبح الرمز مزدوجاً يفصح عن شخصيتين : شخصية الحجاج وهى الطاغية على التجربة .. والطاغية فى واقع الحياة ، وشخصية « عمر بن عبد العزيز » وليس لها مكان فى التجربة سوى توجيه « الشكوى » .

---

(١) أنظر القصيدة بديوان « السفر فى أنهار الظمأ » من ص [٨٢ - ٨٨] محمد أبو دومه

وكان على الشاعر - ابتغاء اكتمال التجربة - أن يسترفد عطاء شخصية « عمر بن عبد العزيز » من خلال تصوير مشاهد مضادة لسلوكيات الحجاج ، وحتى لو لجأ الشاعر إلى ذلك فلن يجتاز مرحلة الخطر والقلق ... لأن الواقع التاريخى يؤكد أن الحجاج لم يكن معاصراً لعمر بن عبد العزيز ..... فقد تولى «عمر» الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك ، ومات الحجاج قبل ذلك في عهد «الوليد بن عبد الملك» .

وملامح شخصية « عمر بن عبد العزيز » يشوهها الشاعر ، ولا يقف على أبعاد الصورة الحقيقية ، ولا على موحيات الشخصية فى الوجدان الإسلامى ، حيث يقول « وقفت ببابك المغلق » !!! ويقول « أخاف عليك من عدّ لك ، أخاف عليك من نفسك !!!
أخاف عليك : تروح ضحية للسهو !!![1] .

وفى قصيدة « يالثارات الحسين » يعلو إيقاع الشاعر ، ويكثر من تكرار بعض الجمل الشعرية ، ودلك التكرار يفسر إلحاح الشاعر ورغبته فى توصيل أبعاد قضيته للمتلقى المعاصر ، فالقصيدة تجعل من « الحسين » معادلاً موضوعياً للحق المضيَّع ، وللنضال فى سبيل استرداد هذا الحق ؛ ومع تعاطفنا مع قضية الشاعر ... وهى العدالة والحرية .. فإننا نراه قد أسلمه انفعاله إلى هجومه على بنى أميه ....وكأنهم أعداء الإسلام ، والحقيقة التاريخية تنطق بغير هذا ، فقد أدى الأمويون خدمات جليلة للإسلام ، وفى عهدهم الزاهر المشرق بالأمجاد كثرت الفتوحات الإسلامية .

ولم يتعمق الشاعر أبعاد شخصية الحسين ، بل اقتصرت رؤيته على ما يردده عامة الناس حول قتل الحسين فى كربلاء ، يقول« أبو دومه »

يا حادى النوق العراقية
يا ساريا بالليل مهروءاً من الريح الفراتية
إن جزت عين زياد
عرج على الوادى .. ودبج للحسين الشوق والإجلال والعذرا

---

(١) السابق ص [١٣٢]

أبلغـــه حـــين تضمـــه فى نشـــوة عـنى .....

.. تصـــوَّح نبتتنـــا المرجـــو .. وأسفـــا ..... !!

ويصور الشاعر نفسه « مقتل الحسين » موضحاً أثر المأساة فى واقع الناس وفى نفوسهم ... ، ويعيبه أنه استعمل بعض المصطلحات والألفاظ الفجة مثل قوله « وقاء فى كف « العراق » القيح جرافاً ؛ خيل اليزيد، تبول فى ماء الظماء.

يقـــول : يـــا أرضنا المسياف زمى حولنا الثقلين واحتـــدمى

يجنح الغراب « بكربلاء » وقاء فى كف « العراق » القيح جرافا

قاضى « سدوم » أطل من شط الفراق يُقوض الإنصـــاف .....

... يبـــــنى عـــدلـــه المزعـــوم أشـــلاءً وخوفـــاً ،

خيل اليزيد « تبول فى ماء الظماء - أحبتى - ويقال : يا قوم استقوا

هرست سنابكها اللحوم فضـــاق حلـــق الرمـــل وارتجـــف الحصى

وتحدبـــت حــــول الصــــراع المـــر رائحـــة المنـــون

فتقـــطر الفرســـان تسبقهـــم إلى الأرض الـــرؤوس ..(١) .

وقد يحصر الشاعر الشخصية فى قالب مذهبـى ... ويصوغ رؤيته لملامح هذه الشخصية انطلاقاً من هذا التصور المذهبى ....، ومثل هذا الاتجاه نجده عند « أدونيس » وهو تصور بعيد عن الصورة السوية لمعالم الرؤية الإسلامية ، إذ يحاول « أدونيس » أن يصور لحظة اغتيال زيد بن على .. وهو إمام الزيدية ، ولحظة مصرع « الحسين » وهو رمز الشهادة والتضحية عند الشيعة ، وأيضا للحسين مكانته فى الفكر الإسلامى .... ولكن هذه المكانة لا ترفعه إلى مُقام التقديس والتأليه .... كما تفعل بعض الفرق الشيعية .... ، وأودنيس فى تصويره لمصرع الحسين .. ، ومصرع زيد بن على .. ، يحاول إثارة القلاقل والفتن .. ، ويرمى كل المذاهب الأخرى بالعداوة والبغضاء ... يقول بعد حوار بين رجل وزوجته .. الرجل يقتل الحسين .. ، والمرأة تحب الحسين ...، ويصل الشاعر فى نهاية الحوار إلى الفرقة الأبدية بين الرجل وزوجته ......

يقول الشاعر :

---

(١) السابق ص [٢٤]

وحينما استقرت الرماح فى حشاشة الحسين
وازينــــت بجـــسد الحســـين
وداست الخيول كل نقطة .فى جسد الحسين
واســتلبت ...... وقسمت ملابس الحسين
.... رأيت كل حجر يحنو على الحسين
رأيت كل زهـرة تنسام عند كتـف الحسين
رأيت كل نهـر يسيـر فى جنـازة الحسين

والرؤية نفسها تتكرر فى رصد الشاعر لمصرع زيد بن على « زين العابدين بن الحسين » حيث يسيطر الأداء « الدرامى » على التجربة ... وتتعدد الأصوات والصياغة القصصية تحتل العنصر البارز من عناصر التجربة الفنية ... يقول الشاعر من قصيدته « مرآة لزيد بن على » .

...... واخـترق النصـل جبـين زيـــد
ونكســـــت راياتـــــه ......
..... ارفعـــــوه - غطـــوه ...
خبئوه عــن أعين الأعداء ..... هنا ، هنـا
- لفوه بالأصوات بالوجـوه ...... بالعشب خبـأوه
فى المــاء ، فى ساقيـــة خضــراء ..
وهـــا هـــم الأعــــداء ..... يأتــون
.... بعــد لحظـــة رأوه معلقــاً
يحرق فوق المــاء ...... ينشـر فــوق المــاء
الجسم يصاعد فى رماد ..... مهاجر كالغيمة الخفيفة
والـــــرأس وحــــى نـــار
عـــن زمـن الغيــوب والثــورة ......
يقـــرؤه السيـــاق للخليفـــة ....(١)

---

(١) الآثار الكاملة « على أحمد سعيد » ص [٣٣٩ - ٣٤٠] ، [٣٥٠ - ٣٥١]

(ب) الأمكنة الإسلامية وأثرها فى تشكيل النسيج الشعرى

المكان فى الإسلام له أثر فى تشكيل معالم الكيان المسلم .... فالقلوب المؤمنة تظل معلقة بظلال وأطياف الأمكنة التى تحمل عبق التاريخ ، وبطولات الإسلام ، وأمجاد الأوائل .

وقد أقسم الحق سبحانه وتعالى بالبلد الأمين فقال سبحانه ﴿ **لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد .... لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾[1] .

وقال سبحانه ﴿ **والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع** ﴾[2] .

وقال سبحانه ﴿ **والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ...**﴾[3].

والأمكنة متعددة ..... والوجدان الإسلامى يتعلق بها تعلقاً روحياً وعقدياً ومن هذه الأماكن .... مكة - المدينة - دار الأرقم بن أبى الأرقم - أحد - بدر - حراء - ثور - جبل النور - جبل الصفا والمروة - عرفات - جبل الرحمة - الكعبة - الحجر الأسود - حجر اسماعيل ....الخ وكلها معالم ناطقة بالهدى...... موشاة بالضياء واليقين ، وتحمل ذروة الشعور فى الوجدان المسلم وتسيطر على دوائر التوهج فى مدارات الإبداع .

وقد خاطب النبى ص « مكة » بأصدق آيات الخطاب . وأرق عبارات الوجد وقال عن جبل أحد « إن أحداً جبل يحبنا ونحبه » .

وقد سميت بعض الغزوات بأسماء الأماكن التى شهدت ملتقى الجمعين مثل « بدر » وغزوة « أحد » وغزوة « الخندق » ....

---

(١) سورة البلد آية [١ - ٤]

(٢) سورة الطور من آية [١ -٧]

(٣) سورة التين الآيات [١ - ٤]

والمكان فى مدار الرؤية الإسلامية يصبح نقطة انطلاق للالتفاف حول مبادىء محددة يلتف حولها الشباب المعاصر ، الذى لم يعثر على هويته بعد !!

يقول « محمد على الرباوى » فى حوار بينه وبين صوت شعرى آخر .....ويمكن أن يكون الحوار بينه وبين نفسه ... فى لحظة التحول من الرؤية المشتتة بين مذاهب العصر إلى الرؤية الإسلامية الشاملة ....

افتـح الطـرف ؛ فلا دنـيا ! ولا لغم !
ولكـن ، هو شـىء كالخـذامـى
جثمـت فى جوفـه هـذى العبـارة :
دارة الأرقم تدعوك : انسحب من ذاتك الظمآى
ادخـل الـدارة ......أنت الأربعـون[1].

والأربعون فى رؤية الشاعر رمز زمنى لاكتمال مقومات الكيان الإنسانى ، وهو ضوء الهداية فى مفترق الطرق ، وارتباط الرمز الزمنى « الأربعين » بالرمز المكانى « دارة الأرقم » إشارة لقدسية العلاقة بين المكان والزمان ، وإشارة إلى بدء الوحى ، وإشراقة البعثة المحمدية . حيث كانت دار الأرقم ملتقى الكوكبة المؤمنة فى بدايات البعثة ومنها انطلق فرسان الدعوة .

« ومكة » فى رؤية الشاعر / حسين على محمد تمثل النبع الطهور ... وهى كذلك فى وجدان كل مسلم ، فهى بلد الله الحرام ، والشاعر هنا يحلم بالعودة إلى مكة بعد رحلة الاغتراب فى دروب القلق والضياع ... إنه مشتاق للأمن والاطمئنان الروحى والنفسى...... فمكة فى رؤية الشاعر أشواق روحية يحاول أن يعرج إليها .. ولكنه لا يملك كل أدوات العروج : يقول :

ترحل كل خيوطى ... راكضة نحو النهر
ترحـل عبـر حقـول القبـظ
تحمل فى الذاكرة الشمعية بعض رؤى خضراء
تحلـم والشفـق الأحمـر يسفعنى
وسـؤال فـى الأعمـاق يؤرقنى

---

(١) ديوان « البيعة المشتعلة » ص [١٨] محمد على الرباوى

هــل أصــل إلى النبــع صباحــاً
مـــع أول ضـــــــوء
أم أصل ...... وقد ماتت أضواء نهارى ؟[1] .

واتكاء الشاعر هنا على الصيغة الزمنية المستقبلية يفسر إصرار الشاعر على الوصول ، ويجسد الحركة الواثبة فى هذا الطريق ، ورغبة الوصول حينئذ تصبح توهجاً شعورياً مصاحباً للرحلة .. وليس أحلامًا وردية ، ولا أوهاماً غائمة ، وهذا التوهج المتجدد تجسده الأفعال الحركية المصورة لإيقاع السير المشحون بالأمل والعمل . (ترحل - تحلم - تحمل ......يؤرق ......أصل)

والمعجم الشعرى هنا والبناء اللغوى يشى بما يمور فى رؤية الشاعر وداخله ولنتأمل هذه المفردات الشعرية وهذه الأنساق اللغوية ونحاول اكتشاف ظلالها .. (راكضة نحو النهر - الذاكرة الشمعية - الشفق الأحمر - هل أصل إلى النبع).

والتساؤل فى نهاية هذا المقطع يجسد كذلك خوف الشاعر من تبدد أمل العودة ويترجم حرصه الأكيد على مواصلة الرحلة .. برغم القيظ ؛ وهو يحاول بث الحياة فى الذاكرة الشمعية ، ويحاول التغلب على معوقات وصفعات الشفق الأحمر .، والشفق يمكن أن يرمز إلى زحف الظلام ...... ، وموت النهار .. ، والنبع والصباح يرمزان الى الوصول إلى لب التجربة ..... والتوغل فى آفاقها المشرقة .

والشاعر نفسه فى قصيدة أخرى يصور مشهداً من مشاهد معاناة العودة، حيث كاد يفقد أمله فى الوصول .... يقول :

شمســـك غابـــت يـــا مكـــة
مـــاذا أفعـــــــــــل ؟
لا أسمع غير صدى خطواتى فى الصحراء وقات القلب !
لم يبق لعينى غير الدمع .... وصرت وحيداً خلف الجمع

وإذا كانت مكة فى رؤية الشاعر « حسين على محمد » إشراقة روحية . وقمة مزهرة بالمجد والضوء يحاول الشاعر العروج إليها ولا يستطيع ....!!!!

---

(١) ديوان « الرحيل على جواد النار » ص [١٥] حسين على محمد

فهى فى رؤية « جميل عبد الرحمن » تمثل الحقيقة الكائنة والواقع المكانى والروحى ، إنه يتعامل مع مدلولها بصيغة الخطاب المباشر ، ولا يحيط رؤيته بغلاف من الغموض ، لكن يصوغها فى إطار فرحته بذكرى انبثاق النور المحمدى، ويتجاوز لحظة البهجة الآنية إلى التوغل فى آفاق المستقبل المصاحب لذلك النور ، والمتوهج بقيم الإسلام ، ومن هنا تصبح مكة ذات الوجهين ، الوجة القديم حيث التيه والأصنام ، والوجه الجديد حيث النور والأذان .. والحق - والإنصاف - والعدالة - والحرية - والمساواة .

يقول الشاعر منادياً مكة - الوجه القديم - لتستقبل وجهها الجديد القادم فى هالات النبوة :

« يـــا مكـــة : قـــومى مـــن نومـــك .....
خـــلى عينيـــك الآيتـــين .... الهائمتـــين .....
وراء بخور القربان الوثنى ... التائهتين بظلمة وجه الليل .....
..... تكتحلان بعطر النور الآتى بالرحمة من وجه الرحمن
طيـرى بجنـاح النـور هنـاك فراشـــة بشـــرى
تحمـــل نبـــأ ســـراج الحـــق ......
وضـــعى تـــاج الدنيـــا فـــوق جبينـــك
مـــن أرضـــك ينبعـــث النـــور
أزلى الطلعـــــــة لا يخنـــــــق
ليـزيـــــن عمـــــر الأزمـــــان
فى أرضـــك يـــا مكـــة ولـــد محمـــد
خلى عينيك الشاخصتين لنور اللـه السرمـد »[٢] .

ومكة فى رؤية د/ محمد عبد المنعم خفاجى نور وسلام .. ومنى وأمان ......، إنه يرصد لحظة استقبالها للنور الأسنى .... نور محمد ﷺ ..ويرمز لانبثاق النور المحمدى بالفجر الجديد ....وينسب الفجر إلى مكة ويصفه بأنه نشوان ، ومكة فى صحبة ذلك النور زينة الدنيا .. وتاج الروابى ، ويوغل الشاعر فى تشخيصه لمكة

---

(١) ديوان « تموت العاصفير لكن تبوح » ص [٩] « جميل عبد الرحمن »

...... فيصورها بأنها غمرتها السعادة .... فُغنت لمقدم هذا النور .... ، ورددت الأجيال والقرون وراءها هذا الغناء .... ، وما أحسب هذا الغناء إلا صدى رائعاً لاستجابة مكة النور - ومكة الإسلام - لدعوة خاتم الأنبياء ... ، وما ترديد الأجيال والركبان لهذا الغناء إلا تصوير لإيقاع هذه الاستجابة فى نفوس الأجيال المسلمة .

وحين يضع الشاعر مكة فى دائرتى « النور والسلام » فيقول مكة النور .... ومكة السلام ، فإنه يومىء إلى الزمن المضاد .... زمن الجاهلية ..... حيث كانت مكة « الظلام » ومكة « الحروب والخوف » فمكة فى ظلال الإسلام غير مكة فى ظلال « الجاهلية » .

وهذه الصورة التى رسمها الشاعر د / خفاجى لمكة ..... تقترب من صورة « جميل عبد الرحمن » ولكن صورة د / خفاجى تأتى فى صياغة خبرية وتدثرها ظلال الإيحاء ، أما صورة « جميل عبد الرحمن»
فتقدم إلينا فى صياغة طلبية « إنشائية » وتتعامل مع الحدث تعاملا مباشراً يقول د/ خفاجى :

مكـة النور فجرها نشـوان ... وبها الدنيـا والربـا تزدان
حدث مكة السلام به غنـت ... وغنـى غنـاءها الركبـان
ومشت فى الدنيا الرواة به فى ... فمها طـاب السحـر والألحان
بذرى بيت فى الشعاب هناك ... البشر والبشرى والمنى والأمان (١)

***

وكاتب هذه الدراسة تشاء الأقدار له أن يتجول فى دروب مكة وشعابها ، وتتشرب روحة عبق التاريخ المضىء فى مكة ، وتعانق عيناه ومشاعره جبالها الشم ، ويتمخض العناق الحميم عن أسرار مضيئة بحقائق الإيمان ، وتكون الثمرة قصيدة « الجبل » وهى تأملات مؤمنة فى قدسيّة المكان ، وطهارة الزمان ، فمكة كيان نورانى ، مفرداته الجبال .. والسهول ؛ ومركز دائرته ونقطة انطلاقه « البيت العتيـق » .. وما يـدور حوله ويحف به من المجموعـة النورانية المتمثلة فى جبل

---

(١) ديوان الذكريات ص [٥] د / محمد عبد المنعم خفاجى

الصفا ، وجبل المروة ، وجبل منى ، وجبل الرحمة ، وجبل النور ، وجبل ثور ؛ إنها ظواهر كونية يتسع لها الوجدان المؤمن ويمتد ، بل تقع من الكيان المسلم موقع اللحم والدم والأعصاب .

والجبل فى رؤية كاتب هذه السطور محور الكون ، ومنبع الضياء ، وملتقى المشاعر المؤمنة ومصهر التجارب ، ومنار الأوبة والعودة إلى الطريق الحق .

تأتى الجموع من كل فج عميق فتعود بهم هذه المشاهد والمرائى الإيمانية إلى عصر البراءة ونقاء الطفولة ، يعودون كيوم ولدتهم أمهاتهم وقد تلاشت ذنوبهم فى شمس الإيمان ، وشدت من عزائمهم صخور الحق ، التى تمثل الجبال بعض ملامحها ..... فقد قال سبحانه ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله** ﴾ .

يقول الشاعر :

أنى أسير يضمنى الجبـــل	فكأننى فى الصخر أرتحـل
من كل زاويـــة ملامحـــه	تبـدو وفى الأجـواء تنتقـل
فكأنــه عـين الوجـــود إلى	قلب الخفايـا لمحها تصـل
حمـل العصـور الشم كاهله	وهو الفتـى وليـس يكتهـل
متجهـــم ..جـرداء قمتــه	لكنــه بالخيـــر يشتـعـل
مـدت إلى الغيمـات راحته	فإذا بجـرح الكون يندمـل
وإذا العـــوالم من بحيرتـــه	يسقون فيـض العز إذا نهلوا
قـدم الرضيـع تهز جبهتـه	فإذا بـه للطفـل يمتــثل
وإذا بعـــين الحـب مشرقـة	والأم يهجـر قلبهـا الوجـل
وإذا الطيـــور على مباسمها	تضوى الأغـانى وهى ترتجـل
وإذا الوجـود الطفل تحضنه	أم القـرى .... ويكبر الجبـل
وحـراء نبـع فى تماوجــه	الأرض بالعليـاء تتـصـل[1]

***

و « مكة » كثيراً ما ترد فى التجارب الشعرية التى تدخل فى دائرة « المدائح

---

(١) ديوان « المريا وزهرة النار » ص [٦٨] – صابر عبد الدايم

النبوية » وهى فى هذا الإطار لاتتجاوز صيغة الخطاب الشعرى المباشر ، ولا يقلل هذا من شأن التجربة ، فموحيات البلد الأمين متجددة دائماً فى نفس المؤمن ، ومصاحبة لمشاعره المتطلعة دائماً إلى مشاهدة هذا المكان المقدس .

فالشاعر / عمر أبو ريشة يصور شوق الوجود إلى الحق والخير والإنصاف والعدالة ، ويرى أن هذه القيم كانت أمنيات تطوف بوجدان العالم الحائر ، وفى مكة كان المستقر والمستودع والمنبع والمصب ، والبدء والمنطلق لهذه الأشواق بظهور محمد ﷺ يقول فى قصيدته « يا رمل » والرمل هنا رمز للصحراء التى جادت بالخصب الروحى العظيم ، وبالرخاء الشعورى والمادى الذى غمر مشارق الأرض ومغاربها بنور العقيدة وبرد اليقين ، يقول :

يا رمل ما تعب الحادى ولا سئما	ولا شكا فى غوايات السراب ظما
على وجومك من نجواه أخيلة	شق الفتون بها أكمامه ونما
كأنما من وراء الغيب هاجسة	فضت على سمعه السر الذى كتما
فرنح الكون فى لألاء أمنية	عذراء ما عرفت أرضاً لها وسما
مرت طيوفًا على الدنيا فما غمست	فيها جناحًا ولا جرت بها قدما
حتى إذا طالعتها مكة اختلجت	شوقاً وسالت على أجوائها نعما
فلاح أحمد فى أعراس دعوته	يسلسل الوحى إن صمتاً وإن كلما
فأرسل الصرخة الزهراء فانطلقت	كتائب الله ترعى البيت والحرما[1]

وفى قصيدته « مقدمة ملحمة محمد » تمثل الأماكن والأجواء الإسلامية معطيات ثره وروافد تعبق بالأمل فى إعادة القيم الإسلامية إلى الوجود المعاصر ... ، وهذه الأجواء تعكس وجه الإسلام الحضارى المشرق .. مثل مكة - يثرب - أحد - الخندق - حراء ؛ وتأخذ القصيدة ثوبًا قصصيًا يعرض أحداث التاريخ الإسلامى فى لغة شعرية عذبة الإيقاع ، مجنحة الخيال ، مشعة بالإيحاءات ، صادقة العاطفة ، ثرية الألفاظ ، غزيرة المعانى ، حاملة إشراقة الماضى ... وعائدة بها إلى واقعنا المعاصر .... لتؤازر حركة المد الإسلامى فى عصرنا الحديث .

وقف الحق وقفة عند بدر	شحذت فى الغيوب سيف القضاء

---

(١) ديوان عمر أبو ريشة ص [٤٨٤ - ٦٨٧]

ووراء التلال ركب أبى سفـــيان يحمـــى سرية الفيحــاء
وقريش فى جيشها اللجب تسعى   بين وهج الفنا وزهـــو الحـــداء
بلغتْ منحنــى القليب ولفــت   من عليــه ببسمـــة استهـــزاء

وفى ختام القصيدة يخاطب مكة فى إيقاع أخاذ ينتصر للأمل ويتطلع لعودة المجد الإسلامى .

يا عـــروس الصحـــراء ما نبت المجْـ   ـــدُ على غير راحـة الصحـــراء
فأعيـــدى مجد العروبـــة واسقـــى   من سنـاه محاجـــر الغبـــراء
قد ترف الحيـــاة بعد ذبـــول   ويلين الزمـــان بعد جفـــاء(١)

و « مكة » يطلق عليها الشاعر / عبد العليم القبانى « أم المدائن» ولا يناديها « بأم القرى » وهو يظن أنه بذلك يعلى من شأن مكة .... ولكن الشاعر إذا تأمل كنية مكة سيجد أن القرآن الكريم هو الذى أطلق عليها الكنيــة فقــال ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾ ، فإطـلاق « أم القرى » على مكة لا ينقص من قدرها ، والشاعر نفسه يبرز دور مكة الحضارى وأثرها فى حضارة الشرق والغرب على السواء ، وهذه المكانة اكتسبتها مكة لأنها تضم البيت العتيق، وأنها كانت مشرق التوحيد ، ومنبع الهدى ، وهى مقصد الحجيج وهى البلد الأمين. يقول :

أم المدائن .. لم أقــل أم القــرى   بغداد تعرف ما أقـــول وجلــق
منك استمد الغــرب إشــعاع الهدى   وطوى الضلوع على سناك المشـرق
لولاك فى الصحراء ظلــت قفــرة   تودي بأعمـــار الرجـــال وتحـــرق
أرأيت كيف اعتز من عرف الهــدى   وهوى فألصــق بالتـــراب الأحمـــق
أين الجبـابر فى رحابــك ، راعهـم   صدق النذير فآمنوا ، أم أشفقـــوا؟
عاد الرســول إليــك يزجى فيلقــا   تعنو لعزتـــه الجبـــال وتطـــوق
بيمينه من وحى ربــك معجـــز   أعيـا البيـــان وحار فيــه المنطـــق(٢)

---

(١) السابق ص [٥١٥]

(٢) ديوان « لله وللرسول » ص [٤٩] / عبد العليم القبانى

ثالثاً : السفر إلى الماضى لبعث الحاضر وإحيائه

إن محور التجربة فى هذا البعد من أبعاد الرؤية الإسلامية هو الإحساس بالتصادم مع حركة الحياة المعاصرة فيفزع الشاعر إلى الماضى ، ويتجول فى دروبه، وزواياه ، باحثا عن المواقف المضيئة فى مسيرة التاريخ ليعود بقبس منها إلى الحاضر الآسن .. لعله من لهوه يفيق ، ومن عثرته ينهض ، ومن علله يبرأ .

والسفر إلى الحاضر لا ينحصر داخل حدود الأحداث التاريخية ذات الإيقاع الحماسى مثل المعارك وغيرها ، بل يتجاوز هذه الأحداث إلى التغلغل فى صميم الحياة الإسلامية الناطقة بالوجه الحضارى للإسلام .

ومن مظاهر الحياة الإسلامية فى عصور الإسلام الأولى وجود « بيت المال » «والقاضى العادل » ، وهما من دعائم الحرية والمساواة والهدوء النفسى ، والتوازن فى منهج الحياة الشعورية ، والحياة المادية .

يقول محمد بنعمارة من قصيدة « الرحيل تحت الأجنحة » وهى مصدرة بكلمة للمفكر الإسلامى « المهدى بن عبود » وهى العبودية مقبولة للحق فقط .

يقول الشاعر /

يسكنتى وهج كتاب ما فرط فى شىء
والبحر يصيد طيوراً زرقاء بكفـــىّ
تنتشــــــــر ألحانـــــــــى
قف .... إنى أسألك ....
عن عودة حاكم بيت المال ومن يقضى بين الناس(١)

وتتسع دروب السفر ليصبح ذلك الماضى هو الزمن / الحلم ، لأنه صورة حضارية تشكلت فى إطارها ملامح الشخصية الإسلامية .

وقصيدة « الزمن الذى هو فى انتظارك » تجسد ذلك البعد من أبعاد التعامل مع التراث ، والقصيدة ليست حكاية تاريخية ؛ ولكنها إشراقات من أقباس التوهج الإسلامى فى قمة عطائه ، وهو يهديها إلى روح الصحافى الشهيد « مصطفى رمضان » وهو من أصوات الحركة الإسلامية المعاصرة .

---

(١)ديوان « نشيد الغرباء » محمد بنعماره ص [٥٧]

« بقائى فى نزيف الغائبين ...يمر بين الصحو فى صوتى الغريب ....
عليك أن تختار دائرة الهوامــش .. أو تكون مع الكتـــاب .....
فتشعل الزمن الذى هو فى انتظارك بالقصـــائد والتحـــول .....
.... وليعد فى صـــوت صاحبـــك المشـــرد وعــده
تخضرّ أزمنتى .. ويولد فى غناء المنشدين صهيل أفراس الصحابة .....
... عندما تتدخل الطعنـــات والساحـــات تنســـج راية ....
ينشق فيهـــا من دم الشهـــداء نهـــر جـــارف
فتبـــارك الله الذى خلـــق البـــداية والنشيـــد (١)

وتجمع القصيدة بين إسلامية المضمون وحداثة الشكل الفنى .....فهى قصيدة مدورة ، والتدوير من أحدث التطـورات فى شكل القصيـدة العربية الحديثة .... ، والقصيدة هنا دفقة شعورية واحدة ، والتفعيلات فيها تتواثب ...... كالموجات الهادرة ، كل موجة تلاحق الأخرى ، وكأن تواصل الإيقاع بجسد الرغبة فى تواصل الزمن ، وتواصل الحركة فى سبيل التعايش مع هذا الزمن الذى ينتظرنا، وبرغم أن هذا الزمن قد تحقق فى الماضى المشرق ، فإننا نتطلع إلى بعثه وإعادته فى صيغة حاضرة ومستقبلية ، فإيقاعه منسجم مع إيقاع الصوت الإسلامى .. وهو إيقاع الثبات والتوازن والشمولية والربانية والوجدانية والواقعية والإيجابية .

والمعجم الشعرى هنا يستمد اللبنات المكونة لمعمار التجربة من جو الحضارة الإسلامية ولنتأمل هذه التراكيب الناطقة بالمعجم الإسلامى وما تنشره من ظلال وإيحاءات مشعة « صهيل أفراس الصحابة - دم الشهداء - فتبارك الله الذى خلق البداية والنشيد » .

وفى قصيدة « بين جناحيها يخضر نشيدى » لا يعود بنا الشاعر إلى الماضى/ الحلم ، ولكنه يعود بالماضى على جناح رؤيته الإسلامية، إلى مفازة زمننا الردىء، ويحاول إنقاذ ذلك الزمن ، ليتعانق مع زمن البطولات الإسلامية . ، زمن الهوية الحقيقية .... ولكن هيهات ... ، فالعصور الحاضرة كهوف ينطفىء فى عتمتها كل توهج إيمانى صادق !!!

---

(١) السابق ص [٥٩ - ٦٠.]

يقول :

اقـــرأ الفاتحـــــــه

......وانطلق أيها المهر باسم الكتـاب.....

ستلقى على باب تبريز كل الصحابة ينتظرون

........تصلون فى الساحة الصبح.......

.....ذاك الصبىّ الذى مر يومًا يشاورهم ....

.......وينظم صف الرماة وصف الخيول .....

..........ويستخلف بن الوليد..........

.......يقول : تركت الكتـاب لكـم.......

لا تجيب العصور الكهوف !!!

والشاعر لا يهرب من الواقع . وهو يتشبث بالماضى .. مثل الرومانسيين فى تجاربهم .. ، فيبعث الماضى فى الحاضر انقاذً لذلك الحاضر من الهوية التى تردى فيها ، والزمن اللغوى يفصح عن رؤية الشاعر الإيجابية المستقبلية ، فالجمل الشعرية حركية حيث صيغت فى قالب الجملة الفعلية / الأحداث الواقعة فى زمن، والأفعال تقع فى دائرة الحاضر والمستقبل فهى أفعال فى صيغة الأمر ...، والمضارع . . ، وتتوالى على هذا النسق المتتابع بلا فواصل ....، اقرأ - انطلق - ستلقى - ينتظرون - تصلون - يشاورهم - ينظم - يستخلف - يقول :

وهذا التدفق الشعورى ...... والتواصل الزمنى .... ، والامتزاج بين الأزمنة ...... ، السائر نحو الغاية الرشيدة ...... ، لا تتواصل حركته ... ، ولا تقطف ثمرته ..... ، ويعبر الشاعر عن هذه الصدمة الشعورية ، بوضع الزمن فى صيغة النفى .... ، وبتصوير العصور الجديدة بأنها كهوف .... ، كل شىء فيها معتم : يقول مصوراً موقف العصر الحاضر من حركة المدّ الإسلامى .

« لا تجيب العصور الكهوف » !!!

والصياغة الفنية فى هذه النماذج .. ، بخاصة فى شعر « محمد بنعمارة » مستمدة من انفعال الشاعر بأسلوب القرآن الكريم ، وبمعايشته الصادقة للواقع

الإسلامى فى أزهى عصوره ، ولنتأمل مرة أخرى هذه التراكيب الشعورية التى تعد كائنات متحركة داخل حياة النص الشعورى تكسبه الحيوية الشعورية والخصوبة الفنية « اقرأ الفاتحة - باسم الكتاب - كل الصحابة ينتظرون - تصلون فى الساحة الصبح - ينظم صف الرماة وصف الخيول - يستخلف ابن الوليد - تركت الكتاب لكم .

وذكرى « كربلاء » يسافر إليها الشاعر عبر تذكره ، وقد أداه اصطدامه بالزمن المعاصر إلى فقد ذاكرته .... لكنه لم يزل « كربلاء ».

يقول فى قصيدته : « الطريق إليك حزن أو جهاد » ويقدم للقصيدة بكلمة للشاعر « محمد اقبال » :

[اقرأ القرآن كما لو أنزل عليك]
يا رفيق الاتجاه فقد ذاكرتي
لكنني مازلت أذكر كربلاء
إذن هنا وقفت خيول الفاتحين
قبل بداية الاشياء تجتاز السواحل كالسحاب(١)
...

.... و « السفر إلى الماضى » فى تجربة « محمد على الرباوى » يصبغ بلون ثائر يدفع بالمسافر إلى اقتحام أسوار الحزن والضعف ، وهو فى اقتحامه لهذه الأسوار ينبض قلبه بقول الحق سبحانه :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ..... ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾(٢) .

وأحاسيسه وأفكاره تمتزج بقول المصطفى عليه السلام « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ..... ، وفى كل خير » .

---

(١)السابق ص [٣٨]
(٢) سورة الأنفال آية [ ]

يقول « الروبـاى »

عامــك هذا ...عام الحزن فلا تحزن
هــذا الأرقــم يخترق الأســـــرار
..........ويكتسح الأنهار........
ويرسم وجهاً فى شكل القوس الغضاب
يـــدعوك أن أركـــب متن حصانك
............جرد إيمانك............
فى وجه الأدغال الحمراء .. الصفراء .. السوداء .. ولا تحزن
خـــذ رمحــك ... واتل علينا سفراً
.. من آيات القصواء علــى الصحراء ..
هى الآن تجوب البحر ... محيطاًوخليجاً
خـــذ رمحــك ... هدىء أعصابك
فــــاشتعل الآن ولاتسكـــــن
إن المــاء الثجـاج رهيب لايتعفن[1] .

ومعطيات التراث الإسلامى تمثل الخيوط الرئيسة لنسيج التجربة الشعرية التى « يخوضها الرباوى » ويتآزر المبنى مع المعنى فى تكوين الصورة الفنية لهذا النسيج الشعرى ، وفى إكسابه إيحاءً عابقا بالحس الإسلامى المتفرد ، فعام الحزن له فى تاريخ الإسلام إيحاء بارز يجسد حرص المصطفى ﷺ على مقاومة كل دواعى الضعف ، وكل التيارات المضادة .

وموت أبى طالب ، وموت خديجة لم يضعفا من عزيمة الصادق الأمين.

والأرقم رمز للقوة المؤمنة التى تكاتفت وتآخت ، وهدمت حصون الشرك ، واكتسحت أنهار المغريات المادية .

والقوس الغاضب .. تشكيل فنى ومعادل موضوعى لصورة الوجه الإسلامى وهو يواجه فلول المشركين .

---

(١) ديوان « البيعة المشتعلة » ص [٦ - ٧] محمد على الرباوى

والقصواء ناقة المصطفى علية السلام ... توحي بالقوة المحفوفة بالعناية الإلهية، فالنصر الربانى لا يستحقه الكسالى الخامدون ، ولكنه يغمر المدافعين عن عقيدتهم، المندفعين فى عطاء خصب كالماء الثجاج . إنهم يشتعلون إيماناً وقوة وعطاء يكسبهم عزة الأولى ، وسعادة الآخرة .

والبنية اللغوية تعانق الإحساس بالزمن ... مثلما وجدنــا فى تجربة « محمد بنعمارة » فالأفعال تتوالى ، وتتوغل فى مسارب الحاضر .. ،وتلج آفاق المستقبل ... ، وهى تسبح فى أضواء الماضى المتألق بالأمجاد ولنحدق فى موحيات هذه الصيغ الزمنية الحركية الواثبة المتتالية (لا تحزن - يخترق - يكتسح . يرسم - يدعوك - اركب - جرد - خذ - واتل - تجوب - هدىء - فاشتعل - لاتسكن - لا يتعفّن)

***

.... والسفر إلى الماضى فى بعض التجارب الشعرية يصبغ بلون الهزيمة ، حيث لا تتسم هذه التجارب بالرؤية الشمولية ، بل تحصر نفسها فى دائرة « البعد السياسى » .

ومن هذه التجارب « تجربة الشاعر » « محمد أبو دومة » فى ديوانه « السفر فى أنهار الظمأ » وقصيدة « أيام الشورى الثلاثة » تترجم هذه الرؤية ، إنه يبدأ قصيدته برصد لحظة مأساوية كادت تعصف بالدولة الإسلامية فى ذلك الوقت وهى « اغتيال أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » .

مـــات ابـــن الخطـــــاب
ها أنذا فى كل حجيج أنعاه لكم

ثم يشكل الشاعر للمأساة صوراً فنية تجسد مظاهر الألم النفسى والمادى الذى سرى فى الكيان الإسلامى آنذاك . وما زال الألم يستشرى والداء يستفحل .

وكانت نكسة ٥ يونيو ... هى وجه المأساة ، وموت عمر هو القناع الذى صور الشاعر من خلاله كل مشاهد فزعه وخوفه ... وصدمته . ، وأضاء الشاعر تجربته بكثير من الإضاءات التى كشفت غموض الرمز ... ، وحددت الرؤية ... وغلقت أمامها منافذ التفتح والامتداد ؛ إنه يجعل التاريخ فى دائرة « أطياف الذكرى ».

ويذكر صنعاء - وجبل الأكراد - ووطن المحنة ، ويسخر من مجلس الشورى الذي عينه « عمر » ويقول في تهكم « فلتفق الشورى ، ويفقد أمله في مواصلة المسيرة بعد موت « الرمز » المجسد في «عمر» ،يعلن أن الجرح تسمم !!!

والحزن يقوده إلى اليأس واللامبالاة والسلبية « وليأمر فينا يا أحباب من يأمر» .

ينادي الشاعر في أسى وتوتر :

يا أهل الأمصار البكائين على أطياف الذكرى
أنكأ قدح الأمس إذا ما لامس ظفري قسرته فيفور صديدٌ ودما
يحفر من أسوارك ياصنعاء إلى جبل « الأكراد » أخاديد لظى
تزكم أنفسك يا وطن المحنة بدخان اللحم البشري

فلتفق الشورى
وليأمر فينا يا أحباب من يأمر
فسواء بعد عمر ... مادام الجراح تسمم
لا فرق هنالك بين أطباء « اليونان »
وحلاق من دمر الزوم على الأبواب
وحوافر خيلهم تدهس وجهك يا وطن المحنة
فلتفق الشورى
فلتفق الشورى .... ويفض التطوف[1]

ومحدودية الرؤية في هذه التجربة يرجع إلى فداحة الأثر النفسي الذي أحدثته هزيمة يونيو عام ألف وتسعمائه وسبع وستين ؛ في كيان الشاعر وفي رؤاه وأخيلته ومشاعره ، إن الشعور بالإحباط قد أصاب الإنسان المسلم ... والكيان العربي في الصميم ، وكانت صدمة كبرى لكل المثقفين والمفكرين ، ولكل شرائح المجتمع في الوطن العربي والإسلامي كله .

***

---

(١) ديوان « السفر في أنهار الظمأ » من ص [٢٦ - ٣٣] محمد أبو دومة

والشاعر/ حسين على محمد لا يقع فريسة المأساة - مثلما وقع أبو دومة - ولا تنطفىء في رؤاه نار الصراع بل يظل ممسكاً بالخيط ... خيط الأمل والقوة والعزة ، وهذا الخيط الذى يمسك به « حسين » يأخذ صيغة تراثية أيضاً ، فهو يسافر إلى الماضى ، ويستمد من ذلك الماضى الموروث أدوات فنية ومعطيات أدائية يوظفها توظيفاً بارعاً ... كما فعل فى قصيدته « الأميرة تنتظر » التى اتكأ فيها على الموروث التاريخى ، ووظفه توظيفاً رمزياً بارعاً يمتزج فيه المعاصر بالموروث ، والماضى بالحاضر ، امتزاجاً فنياً رائعاً ، وقد اختار الشاعر لحظة من أكثر لحظات موروثنا التاريخى إشراقة ونصاعة لتكون هى محور البناء الفنى فى القصيدة وهى معركة المنصورة التى حقق فيها الجيش المصرى الأيوبى المسلم بقيادة الملك الصالح « أيوب » ثم زوجته « شجرة الدر، وابنه تورا نشاه » من بعده نصراً حاسماً على الجيوش الصلبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، حيث عادت هذه الجيوش تجر أذيال الخيبة والهزيمة بعد أن تكبدت أفدح الخسائر ، وبعد أن أسر قائدها لويس التاسع نفسه ، وقد استغل الشاعر المعطيات التراثية لهذه اللحظة بمهارة فنية واضحة ، واستطاع أن يوجد بينها وبين معطيات الواقع المعاصر فى رؤية شعرية شديدة الشفافية والعمق والبراءة ، ولا يكتفى الشاعر بمعطيات هذه اللحظة فيرفدها بمعطيات تراثية أخرى تزيد من نصاعتها وإشراقها[١] .

والمعطيات التراثية الأخرى التى أشار إليها د / على عشرى زايد ...، لم يفصل القول فيها ... يتمثل فى المعجم الشعرى الذى يستمد «حسين على محمد» لبناته من التراث الإسلامى مثل « الباحث عن نور الفجر ، مئذنة الفجر أراها تصرخ فى أفئدة الجمع صموداً ، هذا وعد الله لنا - لم يكتب فى اللوح الباقى للأبناء البررة غير النصر .

وتتمثل كذلك فى استدعاء الشاعر للشخصيات الإسلامية مثل « سعد بن أبى وقاص » و « عمر بن الخطاب .... فهم يشرقون فى الظلمة أقمارا ...... يقول الشاعر :

---

(١) أنظر المقدمة التى كتبها د/ على عشري زايد لديوان «شجرة الحلم» شعر حسين على محمد

« هذى شجر الدر .. فكم يشتاق الصالح للضمة ...

هذه قطع الليل القادم من دمياط .. العابر لجج المتوسط لم ترهبنا ...

.. لم تتبدل فى النقع وكانت حين التحم الجيشان كسد عات يحمينا من أسياف الأعداء ..

... وكانت تلثم هذا الجمع المتشرنق فى الليل ...

الباحث عن نور الفجر وأرض الباحة تمتلئ بخيل تصهل « ويصلبان ونواقيس ، ومئذنة الفجر .

أراها تصرخ فى أفئدة الجمع صعوداً ،

يشرق سعد وابن الخطاب الليلة فى الظلمة أقمارا

هذا وعد لله لنا ...

لم يكتب فى اللوح الباقى للأبناء البررة غير النصر[١] .

ولكاتب هذه الدراسة كثير من التجارب الشعرية فى هذا المجال .. ..ومنها « موقف أسماء » الحاسم ضد الحجاج انتصاراً لعبد الله بن الزبير؛ واستدعاء أسماء فى تجربة شعرية حديثة يعد سفراً إلى زمن أسماء والعودة بمعطيات الشخصية وأبعادها إلى زمننا أملاً فى العثور على هذا النموذج الأعلى للمرأة المسلمة فى عصرنا الحديث .

« أسماء .... فى لب الأغصان نداء إباء

لم يصغ لسيف الحجاج الغارق فى بركان دماء

لم تهتز جذور الحقل أمام الإعصار الأموى

...... المصبوغ بأشلاء ابن علىّ

عيناها اختزنت كل تجارب رحلتها لليوم الموعود

يا عبد الله ...... لا حاكم إلا الله ....

لا تعط السارق بستانك

لا تترك فى وجه الإعصار الأهوج أغصانك

صغ من أوتار هداك رماحًا تفنى من يخنق ألحانك

---

(١) ديوان شجرة الحلم ص [٢١]. حسين على محمد

واجعل من نبض يقينك صاعقة ......

تنقض على من يغتال اللحظة إيمانك[١] .

والسفر إلى الماضي يجسد الحس التاريخي الذى يتزود به الشاعر .. فى أسمى مفهوم له ، والذى لا يتضمن إدراك مضى الماضى فحسب . بل إدراك حاضره كذلك، فهو حس بما وراء الزمن ، وبالزمن ، وبهما معًا متحدين .....[٢]

وهذا الحس التاريخي يتكىء على جانب خصب من جوانب التراث المضيئة ، فأهم وأغنى ما يستطيعه التراث بالنسبة إلى شعرنا الحديث .... ليس أن يصبح واجهة منطوقة للعمل الفنى تضاف إليه من الخارج رغبة فى التدليل على ثقافة الشاعر وإلمامه بالتيارات العصريـــة فى الأدب والفـــن ، بل أن يحسّه الشاعر ، ويؤمن به بحيث يغدو جزءًا من صميم تجربته الشعرية ، وعبيراً من الماضى يصافحك حين تطـالع القصيدة فلا تدرى من أين مأتـــاه وذلك لما يمكـــن تسميته « التفكير بالتراث »[٣] .

ومن صفحات التراث ..... ، من عصر الفتوحات الإسلامية تنبثق لحظات المجد والعزة الإيمانية ، ومن هذه الأصداء المشعة بنبض الفتوة الإسلامية نسمع صوت القائد المسلم الشاب « محمد بن القاسم الثقفى » الذى قاد الفترحات الإسلامية فى بلاد « الهند والسند » فى عصر « الوليد بن عبد الملك » فى نهاية القرن الأول الهجرى ؛ وقد صور كاتب هذه الدراسة مأساة هذا القائد ... ومأساة الواقع الإسلامى المعاصر ... فى قصيدة « مشاهد من ملحمة العشق والبطولة » ، فعلى لسان القائد المسلم تأتى هذه الاستدعاءات التاريخية الناطقة بأبعاد الرؤية الإسلامية وموحياتها ، وهى أقرب إلى « الدراما الشعرية » وصوت ابن القاسم الثقفى ... وهو الواقع المسافر إلى الماضى .... للعودة بالصورة المثلى للقائد المسلم........... والإعلان عن حضورها فى حركة الواقع ، يقول ابن القاسم فى مفتتح هذه التجربة التى تكونت من سبع مشاهد ترصد الشـخصية من جميع

---

(١) أنظر نص القصيدة كاملة فى ديوان « المسافر فى سنبلات الزمن »

(٢) أنظر كتاب « الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر ص [٣٢١] د/ محمد فتوح أحمد

(٣) السابق ص [٣٢٥]

جوانبها وهى (افتتاحية - التكوين - التجربة - الاقتحام - الحقيقة - الصراع - أنا) .

من ثدى السيف تعذيب
وعلى صدر أمية غنيت
وبقلب الحجاج دخلت
ونزعت النقط السود السارقة الأضواء وسافرت
فى شريانى كلمات المصحف تهدر نهراً من نار وضياء

***

والهند بذاكرتى والسند أساطير وحقائق
وبعينى سيوف وبيارق
والله - محمد - ساريتان بأعلى عليان
فى ظلها رحت أقاوم عسف الزمن المتموج فى سنوات العمر
أستنبت من ضخر الحلم زهور الآتى المخضر
أنطلق كل الأحجار- الآلهة - بأقدس ما قال الشعر
فى ظلهما احترق السيف - الطغيان . وجف الرمح الكفر

وفى قصيدة « مدائن الفجر »[1] التى يهديها كاتب هذه السطور إلى الوطن الإسلامى الكبير وهو على أبواب الفجر الجديد ، يسافر الشاعر إلى الماضى رافضاً ما آل إليه واقع المسلمين فى العصر الحديث من ضعف وتشتت وانحلال ... ، وهذا الضعف تجسده هذه الصور الإيحائية .

وفى انكسـار المرايا حطمت سـفنى   وفى انحراف الزوايا غـاب إقدامـى
وضعــت يا وطنًا ضاعت هويتــه   والأرض تنبش عن أشـلاء أقــوام
هذا لســانـك مسجـون تقيــــده   مواقف الوهـم من زيف وإحجـام
وذى خطـاك بلا درب يصـاحبهــا   وذى رؤاك بلا لـــون وأعــلام

---

(١) نشرت القصيدة كاملة بجريدة « المسلمون » عام ١٤٠٨هـ ، ونشرت بمجلة اللواء الإسلامى عام ١٤٠٨ هـ

وكم سفتـك سلاف الذر طائفـة — من المجانين عاشوا مثل أنعـام
فى حمأة الطين لا يحلو لهم نغـم — سوى انفجار الرزايا فوق أيتـام
ودار فى فلك الشيطان موكبهم — يسقى بفكر لقيط النبـع هدام
لمركب الشمس طاروا وامتطوا لهبا — وأمطـروك بأحقـــاد وآثـام
وشوهت أوجه الأطفـال ياوطنـى — والموت طارد أطفـالاً بأرحـام

ويرى كاتب القصيدة أن خلاص المجتمع المسلم من هذا الهوان ، يكمن فى استعادة الزمن المشرق بالبطولات . ويصوغ هذه الرؤية فى قالب الاستفهام المجسد لحيرته وأمانيه ، يقول :

فهل نعود - كما كنا - بنى رحم — نقضى على هاتف النفس قسام
نعـود من غربـة للتيـه تطعمنا — ونرقب الفجـر يأتى بعد إظـلام
ونحمـل السيـف فى كف مُوحِّدَة — تذود عن وطـن فى فـك إجـرام
ترنو لبدر وفجـر الحق فى أحـد — تهفوا إلى «أسدٍ» للشرك قصام
فمن هنـاك تعـود الآن قافلتـى — وتبصـر الفجـر فى آفاق إسلامى
تعـود فى ثبـج الإيمـان سابحـة — والموج حول ضياهـا مثل أعـلام
ملأى حدائقهـا بالعشـق يسكننا — وفيه نسكـن قومـاً بعـد أقوام

والبنية اللغوية تجسد الإحساس بالزمن وتؤكد على الوجود الحاضر فى التجربة السابقة ... فعلى الرغم من أن الشاعر يسافر إلى الماضى فإن الأفعال المضارعة تسيطر على الزمن اللغوى فى هذه القصيدة ، ولنتأمل الجزء الأخير .. لنجد الأفعال كلها مضارعة تعانق الحاضر ... وتقتحم غياهب المستقبل ... وهى مفعمة بعبق الماضى وإشراقاته ... والأفعال تتوالى على هذا النسق (نعود - نقضى - تطعمنا - نرقب - يأتى - نحمل - تذود - ترنو - تهفو - تعود - يسكننا - نسكن).

ويلاحظ أن الأفعال كلها لم تقترن بأدوات تبعدها عن دائرة التحقق القريب ، وواقعية الحضور الحركى للقضاء على صورة الواقع الآسن ، فليس هناك السين أو سوف ، وليست هناك أدوات التمنى أو الترجى ، أو أدوات الطلب - وإنما الأفعال بمادتها اللغوية تفسر حركة الصراع الدائر ... وتنتهى الأفعال بمادة السكون - وهو ليس سكون الخمود والدعة ، وإنما السكون القائم على الطمأنينة والثقة والثبات

والوصول إلى الغاية المنشودة إلى مدائن الفجر .

***

.... والسفر إلى الماضي يكون في بعض التجارب الشعرية بحثًا عنْ قيمة سلوكية وحالة شعورية صبغها الإسلام بصبغته النفسية المتوازنة الثابتة الواقعية الإيجابية الموشاة بعبق التوحيد وندى الربوبية الذى يسمو بالنفس البشرية فوق الرغبات والأهواء الذاتية ، ومن هذه الرحلات الشعرية ... رحلة الشاعر « عمر أبى ريشة » إلى خالد بن الوليد (سيف الله المسلول)ورصده لموقفه البطولى حين نحّاه الفاروق عمر عن قيادة الجيش وهو فى قمه انتصاره ويذعن خالد ، ويعود جندياً يقاتل لإعلاء كلمة الحق .

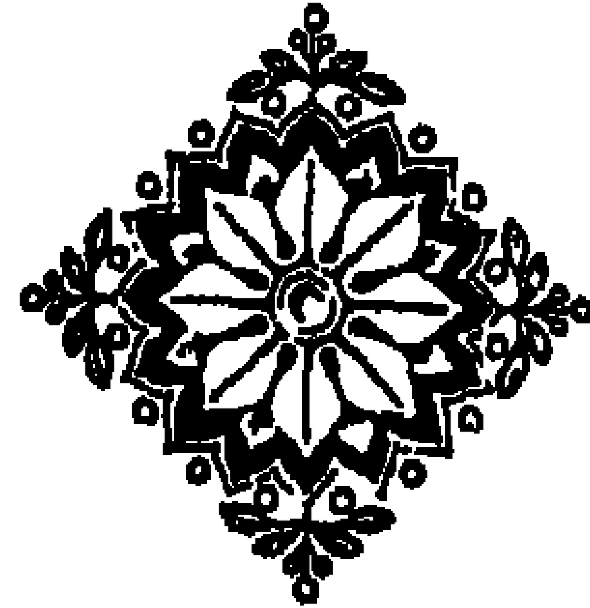
إن هذا القبس التاريخى ، وهذا الموقف النفسى يصوغه «أبو ريشة » بريشته الدقيقة فى أسلوب قصصى ، وعبارة مجنحة .، وخيال محلق ، وشعور صادق ، ورؤية إسلامية ناضجة موشاة بالمعجم الإسلامى شكلاً ومضمونًا يقول :

صدق العهد فالفتوح توالى	وصدى خالد بكل مكان
أينما حل فالمآذن ترجيـ	ـع أذان المهيمن الديان
وبدا الروم فى ضلال مناهم	شوكة فى معاقد الأجفان
فأتاهم بحفنة من رجال	عندها المجد والردى سيان
ورماهم بها وما هى إلا	جولة فالتراب أحمر قان
وضلوع اليرموك تجرى نعوشاً	حاملات هوامد الأبدان
هلل المؤمنون واهتزت البشـ	ـرى تروى حناجر الركبان
فإذا خالد على كل جفن	خطرات من الطيوف الحسان
سمر الغيد فى الليالى الكسالى	وهوى الصيد فى الزحام العوان
فتنة خيف أن يشيع بها الزهـ	ـو فتلوى بالقائد الفتان
فنحاه الفاروق فانضم للجنـ	ـد فخوراً بعزة الإذعان
وتراءى أبو عبيدة فى الفيـ	ـحاء يحمى قيادة الفرسان
وفتى النبل خالد يقتحم الأسـ	ـوار فى نخبة من الفتيان
لم تزعزع من عزمه إمرة الفا	روق بل فجرته فيض تفانى
وإذا راضت العقيدة قلباً	فمن الصعب أن يكون أنانى(١)

---

(١) ديوان « عمر أبو ريشة » ص [٥٤٥ - ٥٤٨] (المجلد الأول)

وبرغم صدق التجربة الشعرية « فإن الزمن اللغوى مقيد بصيغة الماضى ...» مما يوحى بأن الشاعر مازال أسير الرؤية التاريخية ، ولم يجعل من حسه التاريخى. مرآة تعكس ما فى الواقع من مشاهد مرفوضة ، وما فى الماضى من إشراقة الرؤى التى تضىء ذلك الواقع ، ووصف الصحابة المجاهدين بأنهم « حفنة » لا يوحى بعظمة هؤلاء الرجال الأشداء على الكفار الرحماء بينهم، ووصفهم بأنهم «عندهم المجد والردى سيان » لايعطى الصورة الحقيقة لهؤلاء الرجال ، فالموت فى سبيل الله شهادة ومجد خالد ، فلا تضاد بين المجد والردى فكلاهما ثمرة للآخر ، والتعبير بقوله « أنانى » غير مناسب لأن التعبير فيه سوقية وابتذال وبعد عن اللغة الشعرية الموحية المحلقة .



رابعاً : الرؤية الإسلامية ودور الطبيعة فى تشكيل التجارب الشعرية

الطبيعة كتاب مفتوح نقرأ فيه أسرار الكون ، ونستشف منه جمال الحياة ، وللطبيعة دور مؤثر فى تشكيل التجارب الشعرية ، ولكن توظيف الطبيعة فى الرؤية الإسلامية يختلف عن توظيفها فى التجارب الفنية المتحررة من التقيد بأى مذهب ، أو التجارب المنطلقة من خصائص مذهب أدبى .

فالكلاسيكيون تمثل الطبيعة فى تجاربهم مصدراً خارجياً ، حيث يكتفون بمرحلة الإشراف عليها من الخارج وصفًا أو استخدامًا فى تشكيل الصورة أو بناء التشبيه والاستعارة .

والرومانسيون يتحدون فى كثير من تجاربهم بالطبيعة ، ويوظفونها توظيفاً نفسياً ، فهى تمثل لهم مرآة لنفوسهم ، ومعادلاً موضوعياً لمشاعرهم ، وهم يصورون الطبيعة انطلاقاً من رؤيتهم النفسية للحياة ، ويصل بهم فناؤهم فى الطبيعة إلى درجة التقديس تأثراً بالفكر الوثنى القديم .

وهذا الاندماج بالطبيعة عند الرومانتيكين يظل فى دائرة إشراك الطبيعة ... ولا يفنى فى مشاهدها ومرائيها مثلما نجد عند الرمزيين « فالشاعر الرمزى » يحاول بعث الحياة فى أوصال الطبيعة بما يسبغه عليها من خصائص إنسانية ، كما يحاول تفتيت إطارها المادى وعلاقتها الحسية ، كى لا تقف عند حدود الدلالات الوضعية ، وهو لا يلحظ الثنائية بين عالم الأشياء ، وعالم الذات ، فإدراكه للأشياء هو فى الوقت ذاته إدراك لأسرار روحه وأشواقها »(١)

أما الطبيعة فى منظور التصور الإسلامى فهى مسرح التأملات ، ومصدر الجمال الكونى ، وترجمان القدرة الإلهية ، ومنبع السعادة الإنسانية .

وللطبيعة الكونية حظ كبير من التقدير الإلهى فى سر جمال هذاالكون ، وقد سخرت لإسعاد الإنسان ، وقد أقسم الحق سبحانه بمفرادات هذه الطبيعة المرئية

---

(١) أنظر « تشكيل الرمز ومصادره فى الشعر العربى المعاصر » وهو مبحث فى كتاب « الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر » د/ محمد فتوح أحمد ص [٣٠٤]

كالشمس والقمر والنجوم ، وأقسم بمفرداتها الزمنية كالفجر ، الضحى . والعصر . والليل ، وقد سخر الحق سبحانه البحر والأنهار للإنسان ، وكذلك سخر الشمس والقمر والنجوم ، وجعل الليل والنهار آيتين من آياته البينات ، وسميت سور كثيرة من سور القرآن الكريم ببعض ظواهر الطبيعة الكونية ... والنباتية والحية والجامدة.

والطبيعة الحية لها فى التصور الإسلامى منظور خاص ولذلك سميت بعض سور القرآن بأسماء الحيوانات مثل سورة البقرة ، وسورة الأنعام ، وسورة النمل ، وسورة النحل ، وسورة العنكبوت .

وانطلاقاً من هذا التصور الإسلامى جاء تعامل الشعراء وهم يخوضون غمار الرؤية الإسلامية مع الطبيعة ، فهى لا تمثل مصدراً خارجياً ، ولا تمثل حالة نفسية كابية ، ولا رمزاً واقعيا منفراً ، وإنما تعد الطبيعة فى الرؤية الإسلامية رافداً أساسياً فى حقل التجربة الشعرية ، وتعد نسيجاً فنياً يدفع بالتجربة الشعرية خارج دائرة الرصد المباشر ، والتقريرية النثرية ، والنبرة الوعظية، وتعطى للتجربة مذاقاً تأملياً إيمانياً ، وتدفع بها إلى رحاب الشمولية ، وبعيداً عن التقوقع داخل أسوار الذات .

وفى سورة ابراهيم ... نقرأ هذه الآيات البينات التى تفصح عن ثمرة التأمل فى ظواهر الكون ، وكائناته ، والثمرة هى الإيمان بالحق سبحانه ، والوصول إلى التوازن النفسى ، والبعد عن ظلم النفس وظلم الغير ، والنجاة من إغراءات الكفر، والاعيب الباطل ، ولكن هيهات !!! فالإنسان ظلوم كفار .

قال تعالى ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار** ﴾[1] .

ويحفل الشعر المعاصر بتجارب عديدة يتشكل منها هذا الاتجاه ومن هذه التجارب :

---

(١) سورة ابراهيم آية [٣٢ - ٣٣] .

أولا : [تجربة عبد العليم القبانى فى ديوان « لله وللرسول » .

وانطلاقا من الرؤية الإسلامية ، واتكاءً على دور الطبيعة فى تشكيل هذه الرؤية لمكونات الخطاب الشعرى ... يكتب الشاعر / عبد العليم القبانى ديواناً كاملاً عنوانه « لله وللرسول » وهو يموج بالرؤية الإسلامية، ونجده يبدأ الديوان بمقدمة ينوه فيها بدور الدين فى الحياة يقول :

إن الشعور الدينى شعور عميق متأصل فى الإنسان ، فقد لازم الإنسانية منذ نشأ الوعي والإدراك فيها ، فكان أول مظهر متكامل من مظاهر تفكيرها فى ما وراء الطبيعة ، وقد يختلف هذا الشعور باختلاف المكان والزمان والحضارة اختلافا نسبيا نظراً لتنوعه ، ولكنه ينتهى دائما بالإنسان إلى التسليم والوقوف فى خشية أو فى حيرة أمام هذه القوة التى قام بسرها هذا الوجود ، ومن ثم تنتهى هذه الوقفة إلى الإيمان بها وبسيطرتها »(١) .

وأمام « مشهد الغروب » يقف عبد العليم القبانى متأملاً لحظة الغروب فى الصحراء ، ويرسم لوحة إيمانية .... يصل من خلال تأملها إلى استجلاء قدرة الله فى الكون .

وقد بنى الشاعر معجمه الشعرى من كائنات الطبيعة السماوية والنباتية ، وأقام على دعائم هذا المعجم أركان رؤيته الشعرية .

يقول فى قصيدته « الغروب فى الصحراء »

الغروب المهيب يحنو على الآفـــ ـــق ويفضــى بروعة الصحـــراء
ويحيل الأصـــداء نفحة عطـــر من عبيـــر الحقيقـــة الغـــراء
فإذا الأنجم الوضـــاء شمـــوع تتـــلالأ على رحـــاب المســـاء
وإذا النخـــل أحـــرف من صلاة تتسامـــى فى نشـــوة ورجاء
والغمام الشفيف ينساب ســراً عبقريـــا من وحـى رب السماء
وإذا الكـــون معبـــد يتـــراءى فيـــه ســـر الحيـــاة والأحيـــاء(٢)

---

(١) ديوان « لله وللرسول » ص [٥] عبد العليم القبانى

(٢) المرجع السابق ص [١٦]

والخيال الشعرى لدى الشاعر يستمد عناصره من مفردات الطبيعة ممزوجة بالمعجم الإسلامى والألفاظ نفسها مستوحاة من روح الإسلام وعبق الإيمان .

وتأمل هذه الألفاظ والتراكيب « المهيب - يفضى - نفحة العطر - عبير الحقيقة الغراء - رحاب المساء - وحى رب السماء » .

وحاول أن تقترب من موحيات هذه الصور الشعرية « الأنجم الوضاء- شموع تتلألا على رحاب المساء - النخل أحرف من صلاة - الغمام الشفيف ينساب شعراً عبقرياً - الكون معبد يتراءى فيه سر الحياة والأحياء - الوجود نغمة حب - دعوة حامت وطافت بالقبة الزرقاء » .

إن هذه الخيالات بما تشعه فى نفوسنا من موحيات ومعطيات إيمانية تعيدنا إلى السباحة الإيمانية فى محيط النص القرآنى ﴿ **تسبح له السموٰت السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً** ﴾[1] .

وقد وظف الشاعر مظاهر الطبيعة الكونية فذكر تسعة مظاهر سرت فى جسم القصيدة مسرى الدم فى العروق وهى (الغروب - الأفق - الصحراء - الأنجم - المساء - النخل - الغمام - القبة الزرقاء - الليل)

ووقفة الشاعر أمام الغروب - كما قلت - وقفة إيمانية تأملية .

وإذا قارنا هذا الموقف بموقف أبى ماضى فى قصيدته « المساء » وموقف ناجى فى قصيدته « خواطر الغروب » .. نقف على تفرد الشاعر بالرؤية الإسلامية النابعة من الوجدان الإيمانى ، فأبو ماضى تجربته تجسد حيرته وقلقه ، وعدم اهتدائه إلى سر هذا الوجود الكبير ، ومطران فى تجربته أمام المساء متشائم يرى الشمس تسقط فى مأتم الغروب ، ويرى الكون يمشى فى جنازة الأضواء ، وناجى فى خواطر الغروب « هارب . خائف قلق وحزين على فراق الشمس ، فقد خلفت ليل الشك الأبدى والظلمة الخرساء »[2] .

---

(١) سورة الإسراء آية [٤٤]

(٢) أنظر هذه التجارب فى الدواوين الآتية :

- ديوان « الجداول » لإيليا أبى ماضى ص [٥٦ - ٦٣]
- ديوان المجموعة الكاملة » ابراهيم ناجى ص [١٠٤]
- ديوان خليل مطران

ولكاتب هذه السطور قصيدة بعنوان « هروب » تصف الكون لحظة الغروب وهى تنطلق من إحساس بالفناء ، فالغروب فناء للضوء ، وفناء للشمس ، وهو موقف رومانسى يتفق مع رؤية ناجى الهروبية ، ويقترب من رؤية أبى ماضى التأملية ، ويمتزج برؤية مطران النفسية للوحة المساء .....

وقفت والنفس فى هروب ... والشمس فى محنة الغروب
أسائل الضوء أين غابت ... عنى شموع الهوى الطروب
وأسأل الليل كيف تاهت ... خطاى فى عتمة الدروب
وأين ما شاده خيالى ... فى قلب وادى المنى الجديب
فكلها كلها تهاوت ... وبعثرت فى دجى المغيب
كالشمس لما اختفى ضياها ... سالت دماها على السهوب
ونحن.. ما نحنُ.. غير طيف ... يلوح فى غفوة الغروب ....؟
وكل شئ كمثل نفسى ... كالشمس فى محنة الغروب(١)

وهذه الرؤى الشعرية السابقة لمشهد الغروب تظل بمنأى عن رؤية عبد العليم القبانى ، فهو يذوب فى مشاهد الغروب والوجود إيماناً وحباً وصفاءً وإشراقاً ، وينأى عن الكآبة والقلق والوحشة ، وجنازة الأضواء ، وحيرة الوجود ، ومحنة الغروب ، وليل الشك والظلمة الخرساء .

وفى قصيدة « مالك الملك » يسبح الشاعر فى مشاهد الكون ، ويستجلى معالم القدرة الإلهية .

وتختلف التجربة هنا فى صيغتها الفنية عن التجربة فى القصيدة السابقة ، لأن التجربة هنا فى خطابها الشعرى جاءت رصداً مباشراً لمظاهر الجمال الكونى ، وإفصاح هذه المظاهر عن قدرة الخالق جل وعلا ، وتتمثل هذه المظاهر الكونية فى معالم الطبيعة المتضادة ، والضدية هنا ليست شاهداً على التناقض ، بل تعدترجمة لقدرة الخالق فى كونه ، وأن كل شىء فى هذا الوجود له وظيفته فى توازن الكون، فالشاعر يذكر هذه الثنائيات ، الشمس / والماء - النجوم / الدجى -

---

(١) ديوان « الحلم والسفر والتحول » ص [٨٩] لكاتب الدراسة

الجبال / التلال / الربا - المروج / الصحراء - البحار / الجداول - العواصف / النسيم - الصفر / الخضراء - التمرد / الاستحياء .

وكأن الشاعر استوحى هذا التقابل بين الأضداد الدال على قدرة الخالق من قوله سبحانه« **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم** » (١) .

يقول الشاعر :

الشمس فى ملكوتهـا من أمـره	والشمس حين يضمهـا الإمساء
وله النجـوم السابحات على المدى	فى كـل ناحيـة لهـا لألاء
وله الدجـى لا تستبين خلالـه	إلا الدجـى وله السنا الوضاء
وله الجبـال الشامخـات جلالـة	الصـاعـدات بروجها الشمـاء
وله التـلال الصفر رامضـة الثرى	من وقـدة ولـه الربـا الخضـراء
ولـه المـروج توشحت لعطائـه	وبسـره تتـوهـج الصحـراء
وله البحـار المائجـات تمرداً	فكأنمـا صـوب السماء سماء
وله الجـدوال لاتنى رقـراقـة	وكأنما يغفـو بها استحيـاء
وله العواصف تنحنى الدنيـا لهـا	من خشيـه ولـه النسيم رخـاء
وله الوجـود وما تضـم رحـابه	من معجـز لم تبده الأنبـاء (٢)

وانفعال الشاعر وصدقه يجسده تكرار لام الملكية المقترن بالضمير العائد على « مالك الملك » أكثر من عشر مرات ، وصيغة الغائب هنا لا تعنى أن الشاعر فى غياب عن بارىء الكون ، ولكن تصور استغراق الشاعر فى تأملاته واستجلاء آثارالله فى ذلك الكون العظيم ، وكأنه يقيم الحجة الدامغة على من يقولون « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، وهو فى القصيدة نفسها يقول مشيراً إلى ذلك :

---

(١) سورة الأنعام آية [٩٥ - ٩٦]

(٢) ديوان « لله وللرسول » من ص [١٨ - ١٩] عبد العليم القبانى

يا من له ما كان أو هو كائــن أو ما يكون وجلت الأسمـــاء
وله الزمـــان خفيــه وجليــــه إن كان ثمة للزمـــان جـــلاء

وجمال الطبيعة فى الرؤية الإسلامية من الدلائل الكونية على وجود الخالق - كما أشرنا سابقا - فليست الطبيعة مقدسة إلى درجة التأليه فى التصور الإسلامى، وانما هى من دلائل وجود الحق سبحانه ، فهو واجب الوجود ، وكثير من آيات الذكر الحكيم تنطق بذلك المعنى ، قال تعالى ﴿ **إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾ (١) .

...... وعبد العليم القبانى فى كثير من قصائد هذا الديوان يعزف على هذا الوتر الكونى . ،تصبح كائنات الطبيعة لبنات فى مخيلة الشاعر يستخدمها فى بناء تجاربه التأملية ، ويوظفها توظيفا فنيا مباشراً لا رمز فيه ولا غموض ، ولا أبعاد تحلق بها فى عوالم أخرى ، وكأن الشاعر يشعر أن مناجاته لربه ، واستجلاء معالم قدرته فى كونه ، والسباحة فى نهر الحب الإلهى ... أسمى من أى تفسير أو بعد يفصح عنه الرمز ، وقصائده الآتية تمثل هذا التصور خير تمثيل (الله اكبر - الليل والنهار - المعجزات - يارب)(٢)

إن رأيت الفجـــر نهـراً سبحت فيه النجـــــوم
ثم لاح الأفـــق تبـــراً فيه تختـــال الغيــوم
أو رأيـــت الزهـر يزهو فوق أغصــــان الربيــع
إذ يغنى البلبل الصـداح باللحـــن البديـــــع
فتذكـــر قدرة الرحمن من ســـوى وصــــور
وتأمــل صنعة البـــارى وقـــل « الله اكبـــر »

وعبد العليم القبانى فى ديوانه يوظف الطبيعة أحياناً فى تجاربه الشعرية التى صاغها ابتهاجًا بمولد المختار عليه السلام ... وهذا تصور تقليدى درج عليه كثير من شعراء المدائح النبوية وقصيدة شوقى تبدأ بقوله :

---

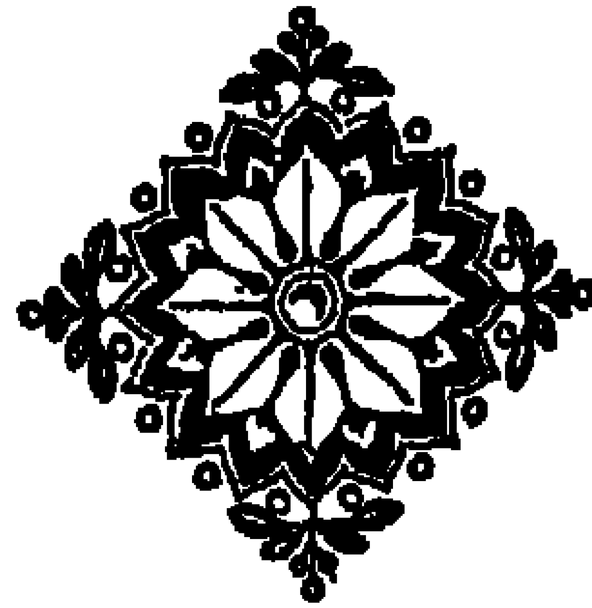
(١) سورة آل عمران آية [١٩٠.]

(٢) أنظر هذه القصائد فى ديوان « لله وللرسول » على التوالى ص [٢١ - ٢٢ - ٢٦ - ٢٨]

ولد الهــــدى فالكــــائنات ضياء   وفــم الزمــــان تبسم وثنـاء

يقول القباني :

الله اكبـــر هذا اليوم مبتســـــم   جلالـــه بهـدى المختـــار متصـــل
عجــبت للبحـــر رقراقـــاً أسرتـــه   سمحاء موجـــاته للــه تبتهـــــل
وللنجــوم تبـــارت فى معارجهـــا   يزهــو بهـــا الحب أو يغفو بها الخجل
يا أيها الكون تِهْ ماشئت واقـض بما   طـويت من صفحـــات خطهـــا الأزل
إن اليتيـم الذى ما ذاق عطـف أب   بعـطفــه الآن أضحى يضرب المثل(١)



---

(١) السابق ص [٣٦ - ٣٧]

ثانيا : محمد بنعماره وموقف الشاعر المسلم من الطبيعة رؤية وفناً

تجربة الشاعر « محمد بنعمارة » في ديوانه « مملكة الروح ، ونشيد الغرباء » تعد تطبيقاً فنياً صادقاً لموقف الشاعر المسلم من الطببيعة ، إنه موقف فنى إيمانى . فكل أدوات الشاعر الفنية يوظفها لخدمة تجربته الإسلامية ، وعنوان الديوان نفسه هو « مملكة الروح » فالروح هى اختيار الشاعر ومناره الذى أبحر إليه طويلاً حتى شيد لنفسه هذه المملكة أو اهتدى إليها .

وللطبيعة فى هذه المملكة شخوص تعد رموزاً لآفاق ومواقف لها تأثيرها فى الحياة الإسلامية ، وقد جمعت هذه الشخوص عناصر الطبيعة بمستوياتها المتعددة الكونية والنباتية والحيوانية والجامدة ، وحاول الشاعر أن يوظف بعض هذه الرموز توظيفاً أسطورياً ، ومن شخوص الطبيعة وكائناتها التى وظفها الشاعر لإثراء تجربتة العابقة بالرؤية الإسلامية .

(النخلة - الماء - الطين - الصحراء - الخضرة - النور - الكهف - البحر الغيم - النوارس - الشمس) . ونقف مع بعض هذه الرموز متأملين معطياتها الفنية فى إطار رؤية الشاعر الإسلامية :

أ - **النخلة** : وهى فى التصور الإسلامى معادل موضوعى للخصب والعطاء:

وفى سورة مريم تفسير هذا الرمز حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلى واشربى وقرى عيناً ﴾[1] .

وفى الحديث النبوى الشريف يشبه المؤمن بالتمرة .طعمها حلو وليس لها رائحة.

والنخيل فى تجربة « بنعمارة » لا يحصر فى رمز واحد بل تتعدد المعطيات الإيحائية له ، فالنخلة يرمز بها الشاعر إلى الروح الممتدة الباقية فى مقابل الجسد الفانى المفعم بالشرور ، وهذا الرمز تفصح عنه قصيدة «سلامًا يا نخل الصحراء »[2]

---

(١) سورة مريم آية [٢٥] وجزء من آية [٢٦]

(٢) ديوان مملكة الروح ص [٢٤ - ٢٦] محمد بنعمارة

يقول :

جسدى خابية ... والروح القطرة تنشر تسبيحى
انهما اثنان .... بينهما تنبت ذاتى كالنخلة
تستمطر غيم الصبوات
وترقى فى ليلة وحدتنا
أنت الجسد الموصول .... وأنت الماء
أنت الراء وأنت الواو .... وأنت الحاء
أنت النخلة فى جسد الصحراء
أنت المؤمن بحديث المهد الأول تحت جناح الغذراء

والنخل فى بعض التجارب التى خاضها « بنعمارة » يرمز إلى حلم الإنسان ورغبته فى عودة زمن الضياء ... وذلك حين يسيطر على الشاعر الشعور بالاغتراب الزمانى فيحن إلى زمن غير زمانه ، وهذا الحلم المغترب له ظلال تعذب الإنسان الكادح فى سبيل تحقيق هذا الحلم وإحالته إلى واقع مضىء .

يقول من قصيدة « هذا وقت تختار صلاتك فيه » :

أو تدرى من أين يمر اثنان .....
.... وبينهما شوق المشى الصاعد
إنهما يختفيان إذا طال السير
الأول يلج الوحشة
أما الثانى .. فهو العاشق عذبه ظل النخل
فهز الجذع ليسقط زمن ضوئى(١)

...... وبنعمارة فى رموزه الشعرية كثيراً ما يلجأ إلى « طرفى النقيض » أو التقابل بين الأضداد ، الأزمنة والأمكنة ، والمواقف والشخوص ، وكأنه بذلك يجسد تجربته وتحوله إلى القضية التى يدافع عنها دفاعاً فنياً ... مع مواكبة أحدث المنجزات الأسلوبية ، والتكنيكية فى بناء القصيدة الحديثة .

---

(١) السابق ص [١٨]

والنخل فى تجربة الشاعر يرمز أيضاً إلى الأمان والطمأنينة فى رحاب الإيمان ، يقول من قصيدة « باب الجسد ....حرفك أسرار الدنيا »[1]

يوم تعلمت صلاتى ..... كان الضوء جليساً
والهمـــــس نشيـــــــداً
والله قريـــــباً .. مولاى قريبـــــا
ينبت ريشـــــى تحت الإبطـين ..... .
فأكتب فى أسفل هذا النخل اسمى ... والحاء
... وتحتـــل الأرض حـــروفـــى
ثم تصيـــر دمًا ممزوجـــاً بدمـــى
هل للنخـــل يد تدفع عصف الريـــح ؟

والنخلة فى رؤية الشاعر ترمز إلى البكارة والعذرية . والفطرة النقية الخالصة ، وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وحين تتبدل هذه الفطرة فإن الطبيعة الإنسانية ستفسد ، وتغيب عن الروح ملامح الرؤية الإسلامية ، ويرحل عن الوجدان ضوء الإيمان ، وقد صور الشاعر هذا التحول المؤلم الذى أعطى لرمز النخلة بعداً سياسيًا حيث ذكر قرطبة فى وسط القصيدة . وقال فى ختامها « وبلاد الشام تتوج واليها الأموى » إنه يوازن كعادته بين صورتين متناقضتين ... صورة التوهج ، وصورة الانطفاء .

يقول مصورا الوجود الإسلامى :

كنت الأول فى الحب ..... وحرفك ينهل من دمك الشعرى
وكنت الأول فى الحـــرب ....
.... وسيفك خيمة أيـــام ...
... كنت أميـراً بحريـــاً ...
كان البحر ... يبايع فيك رحيلا بعد رحيل

---

(١) أنظر القصيدة كاملة بديوان « مملكة الروح » ص [٢٠]

والمشهد السابق يصور زمن المجد الذى كان ، والسياق الشعرى والشفرات الفنية تحيل الرؤية إلى تجربة فنية ، فالزمن الماضى ومادة الكينونة ، وتكرار هذه الكينونة الغاربة خمس مرات ممثلة فى الصيغة الزمنية الماضية المقترنة بتاء الخطاب فى أكثر حالاتها « كنت » .

هذا النسيج الفنى يجسد غروب ذلك الزمن / المجد ؛ ومقومات الحضارة المسلمة تنسجها هذه الخيوط المؤمنة (الحب / الأول - الحرف / الشريان - الحرب / النصر - السيف / الزمن - المأوى / السكن - الأمير / المنتصر - الرحيل / الفتوحات)

وبعد هذا المشهد المصور لمسيرة المجد الإسلامى وملامح الشخصية الحضارية المؤمنة ، يصور النقيض .. ويرمز لكل هذا التألق المنطفىء بسقوط النخلة الغذراء

يقول :

جوهرتـــان / ووجـــه / ومرايا
سقطـــت نخلتـــك العـــذراء
أأنـــت القـــــــاتل ؟
أأنـــت المقتـــــول ؟
لأن المطلـــق بين يديـــك
فيا من نام مختفياً فى الكلمـــات
استيقظ .. إن الغربة هاجسنـــا
وبلاد الشام تتوج واليها الأمـــوى(١) .

والطبيعة الكونية بمكوناتها المتعددة تعد منابع فنية لرؤية الشاعر وأخيلته « فالماء» سر الحياة ... وقد جعل الله تعالى منه كلَّ شىء حىْ ، وهو كذلك فى رؤية الشاعر ... ففى قصيدة « نجواك سقوطى وصعودى » نجد الشاعر يقابل بين موقفين ، موقف السقوط وموقف الصعود ، والموقف الأول تجسيد للهواجس النفسية التى تدفع بالإنسان إلى السقوط فى وحل الشك والإثم والريبة ،

---

(١) السابق ص [٤٨ - ٤٩]

والموقف الثانى هو صوت الحقيقة والمعاناه والمقاومة لمغريات النفس الأمارة بالسوء. يقول الشاعر موظفاً رمز - الماء » بموحياته الإسلامية ، مازجاً بين الحواس فى تراسل فنى دال موح ، ففى جملة شعرية واحدة يخلط بين مدركات الحواس الثلاث، الذوق والبصر واللمس . وهذا الخلط يفسر إيمان الشاعر فى أن الماء سر الحياة بما فيها من طعوم وألوان وماديات ومشاهدة ملموسة .

وهذه الرؤية لها سمة « الثبات » فى وجدان الشاعر ، والثبات من خصائص التصور الإسلامي ، وهذا الثبات تفسره لغة الشاعر وحسه اللغوي ، فقد اتكأ على صيغة الزمن الماضي في رصده لحركة النمو المتصاعدة في تجربته ، حيث توالت الأفعال الآتية : (ورأيت - وغرست - وناديت - أطفأت - نطق - قال -) ولنتأمل هذه اللوحة الشعرية ....

« ورأيت الماء لونـــاً ناعـــمًا
وغرست الحـــرف فى الملح ....
..... وناديت حبيبًا عاشقـــاً
ثم أطفـــــأت حروفـــى
نطـــق المـــاء وقـــال
أنت كهـــف ...... أنت طين
أنت نسل الماء إذْ صار رماداً »

.... والطين له فى الوجدان الإنسانى إيحاؤه ... فهو يرمز إلى التدنى والتسفل فى مقابل الروح التى توحى بالترفع والسمو ولكن يمكن أن يسمو الإنسان بنفسه وبكيانه إذا سما فوق الرغبات الدنيا - وهذا السمو بالجسد من خصائص الرؤية الإسلامية فالإسلام ينشد التوازن بين متطلبات الروح ورغائب الجسد ، وخاصية التوازن من خصائص التصور الإسلامى[1] .

يقول « بنعماره » ....

---

(١) أنظر « خصائص التصور الإسلامى » لسيد قطب .
ولكاتب الدراسة تحليل أدبى لهذا الكتاب بعنوان « معالم التجربة الأدبية فى ظل خصائص التصور الإسلامى . أنظر الدراسة الأولى بهذا الكتاب .

لا تسرع ... فالأرض عروسك لا تسرع
والطين غريق فى مائه
إنى أبحرت بلا معنى
فشربت معانى أسمائه

وموقف الشاعر من « الطين » وموحياته لا يجعله ينكر أن الطين أصل خلقة الإنسان ، ولكنه سلالة من طين أى خلاصة صافية كما قال تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ .

يقول الشاعر :

كان الصاحب يبكى قبل الغزوات وبعد الفتح
أتسأل من أعلى أبراج النبض
ألا تبصر تحت شقائق طين الأرض أصول النطقة
فيك الأدنى يوشك أن يفنى .

ثم يصور الشاعر النفس البشرية فى ترددها بين السمو الروحى وبين التردى فى سفوح الرغبات .

قبل الحسن تعود - كما كانت - عقرب أرض
تأمر فى مجلس فرعون السحرة
- هذا مطلبكم
لا تنتظروا الصبح وكونوا قدرة هذا العصر
- أو لم تتبع صاحبة الحسن !!
...وأنت الصلصال . الفخار . المنكر أمام رحيق دواليها .

والمتأمل فى صياغة الشاعر الفنية لتجاربه يجد أن الشاعر يكثر من تعدد الأصوات فى داخل االقصائد ، فهى قصائد حوارية يسيطر عليها الحس الدرامى ، وتحفل بموحيات تراثية لها تأثيرها فى الوجدان المسلم ، مثل مجلس فرعون والسحرة ، ومثل - الصلصال الفخار ، ويوسف والجب، وهى خيوط استمدها من نسيج التراث الإسلامى .

وأيضا يلجأ الشاعر إلى الصياغة الأسطورية المتأثرة بالتراث الشعبى

ويتأثر الشاعر كثيراً بالتجارب الصوفية ، وتشيع فى قصائده مفردات كثيرة من المعجم الصوفى ، وكذلك يوظف كثيراً من الرموز الصوفية مثل رمز « الكأس، والخمر ، والمرآة ، والبحر ، والماء .... » وهو برغم هذا التأثر يظل خارج دائرة التجربة الصوفية .

فالماء فى التجارب الصوفية يرمز إلى المعرفة ، والماء الجارى يرمز إلى البسط المستمر ، والمرآة ترمز الى النصر الإلهى رالعشق الكامل ، والبحر يرمز إلى عالم الوجود ،والاخضرار يرمز إلى الكمال المطلق ، والطائر يرمز إلى الروح ، والبستان يرمز إلى العالم الروحانى ، والسكر يرمز إلى الحيرة والوله »[1] .

ب - البحر

والبحر فى تجربة « بنعمارة » ورؤيتة الإسلامية تتعدد مدلولاته وموحيانه فهو يوظف رمز « البحر » فى سياق تجسيده لقيمة الحرية التى تعلى من قيمة الإنسان وتسمو بمشاعره ، وتنأى به عن الرغبات الدنيا .

. يقول فى لغة إيحائية رامزة يغلفها الغموض المشع

يا سيد هذا الأمـــر البحـــــرى ......
.... تـــزوج ألـــوان المـــــاء
... ليدخـل هـذا الأزرق أبـواب القانـى
هـا أنت السفر الهـــادىء فى المطلــــق
أنت البحـــر الغـــارق فى الفـــــانى
تـــــلك لغـــــــة أعلـــــى
إن الليـــــل رفيقــــك فى الحلـــم
... وترتيــــــلك همـس ضـوئى ...
يختـــرق سجـــون الدنيــــــا »[2]

---

(١) أنظر كتاب « التصوف عند الفرس » د / ابراهيم الدسوقى شتا وكتاب « الأدب الصوفى : اتجاهاته وخصائصه » لكاتب الدراسة

(٢) ديوان « مملكة الروح » ص [٤٦] محمد بنعمارة

وفى قصيدة « أسفار داخل إيقاع الموج » يصبح البحر رمزاً للتحول من رؤية إلى رؤية أو من قضية إلى قضية وربما كان للإبحار والترحال ...ومحاولة العبور إلى الشاطىء والانتصار على عنف الأمواج أثر فى اتخاذ الشاعر البحر رمزاً لهذا التحول الفكرى .

فالشاعر والأديب والمفكر يمر بتجربة المخاض فى لحظات التحول ... ويعانى ويقاوم .. ويصارع إنه ملاح تهدده العواصف وتهاجمه الامواج ...وتكاد تفتك به الرياح ، وقد رسم الشاعر مشاهد هذا التحول فى هذه اللوحات الفنية مصوراً نقطة الحدود الحاسمة بين عهدين متناقضين مطلقاً العنان لظلال الألفاظ ، وألوان العلاقات الخفية بين المعانى والتراكيب الدالة ، والأصوات والخيالات ، وكائنات الطبيعة البحرية .

يقول مستدعيا ذاكرة الماضى المرفوض ومستشرفاً الواقع / القضية .

« تحت الظلال سنلتقى
وطن وأنثى ورجل
حزن ثلاثى بدأناه قديماً
.... يحرس الأشباح والسفن المهاجرة التى
قد هربت من جلد هذا البر آلام العذارى
..... أنت زهر شائك الأشكال يتبعنى ...
فأبحث عن رفيق يمتطى وجه الفضاء ..
... ويرتمى فى حضن عاشقة المسافة ...
.... ربما كان الزمان خرافياً
والحرب فيه سحابة
والصخر ينبت فى السواحل
والصهيل البحرى الممتد
يناجى ألوان وجه الماء»[1]

---

(١) السابق ص [٥١]

...... والنوارس :

في معجم الشاعر ورؤيته ترمز إلى جنود الإيمان « ولأنها تعانق البحر دائماً فالبحر معادل موضوعي وشعورى لإرادة التحول والتغيير والثورة .

والسواحل رمز للنجاة والوصول إلى الثمرة / الحلم .

وفى اللوحة الشعرية التالية يصور الشاعر نبض الكفاح الإسلامى المعاصر تصويراً فنياً ممزوجاً بمشاعر الإحباط ... فالنوارس حزينة ، ولكنها لم تستسلم لأنها مازالت تغنى وتزف جرحها إلى عرس الشهادة .

يقول من قصيدة « غنائيات النوارس الحزينة » :

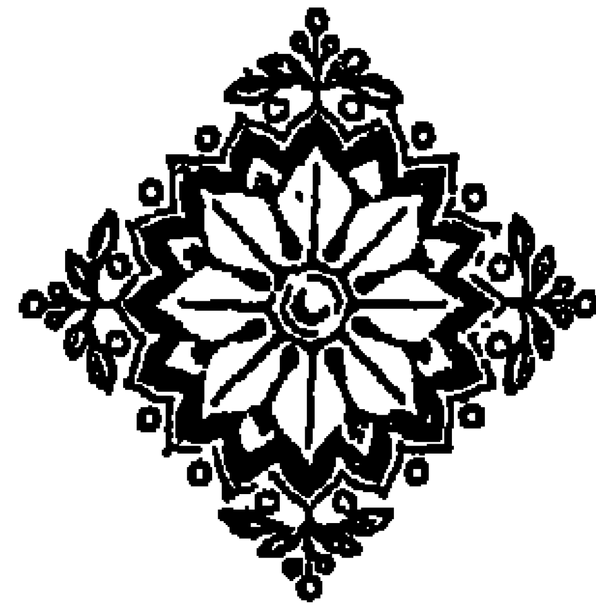
زفت نوارسك الحزينـة جرحهـــا
بالأمس عانقـــت السواحل غيمة
هـــــل أمطـــــرت ؟
الســـرب يتبـــع مركبـــا
المـــوج ينتظـــر النجـــوم
البحر من دمه يرتل بدء ثورتـــه

ولغة الشاعر وتشكيلات صوره تفصح عن إصراره على مواصلة طريق الكفاح .. فالجرح فى التجارب التقليدية مرتبط بالألم لكنه هنا قرين العرس - والنوارس تزفه ، والغيم فى لغة الشاعر وفى رؤيته لا يحجب الضوء ولكنه يعانق السواحل ... ويبشرها بالحياة ، ولم يشأ أن يعلن ثمرة هذا العناق فى صياغة خبرية تقريرية .... بل ساقة فى أسلوب إنشائى مثير للتساؤل والدهشة والانفعال « هل أمطرت » وأعلن اشتياق الموج إلى النجوم ... وما الموج إلا حركة الحياة المتدفقة ، .. وما النجوم إلا الضوء المبدد ظلمات اليأس والجمود ... ، والبحر فى هذا المهرجان الإيمانى يقدم دمه فداءً لجنود الإيمان ، وإيحاء الترتيل يصبغ التجربة الثورية هنا بصبغة الإيمان ، ويجعلها دائرة فى فلك القرآن.

وفى قصيدة « الطريق إليك حزن أوجهاد » يكمل الشاعر اللوحة ، ويوظف السحاب وهو من عناصر الطبيعة المعانقة للنوارس والبحر ، فهم دائرة متكاملة ، وهو فى هذا التوظيف الفنى يجعل السحاب رمزاً للأمل والعطاء ، وليس رمزاً لاحتجاب الرؤيا واختناق الضياء ، والأمل فيه خصوبة الحياة وقوة العزيمة .

يقول الشاعر :

يا رفيــــق الاتجـــاه فقدت ذاكرتـــى
لكنتنـــى مازلـــت أذكـــر كربـــلاء
إذن هنـــا .... وقفت خيـــول الفاتحين .. ..
. .. قبل بداية الأشياء نجتاز السواحل كالسحاب ...
..سحابتـــان .. تضيع واحـــدة وتمطـــر ثانية
يا أيها المستضعفون ... لنمتطى فرس الرهـــان



ثالثا : التجربة التأملية واضاءات الطبيعة فى ديوان « مسافر إلى الله »

والشاعر « أحمد فضل شيلول » يكتب ديواناً كاملاً أسماه « مسافر إلى الله» وهذا العنوان يفسر تجربة الشاعر ، ويصبغها بصبغة الرؤية الإسلامية ، ودلالة ذلك أنه صدر الديوان بالآيات القرآنية التى وردت فى آخر سورة الشعراء ، وتوضح هذه الآيات موقف القرآن من الشعر ومن الشعراء ..... ، وهى تتجلى فى قوله سبحانه :

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ... وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[1].

والإهداء ....يحمل عبق الرؤية الشعرية الإسلامية . يقول الشاعر فى إهدائه :

لا خلاص لإنسـان هذا العصـر
إلا بالرجـوع إلـى الله
والعـودة إلى الديـن
فإلى من ينكـر وجـود الله
وإلى من يشعـر بوجـود الله
وإلى من يؤمـن بوجـود الله
أهـدى « مسـافر إلى الله »

والحب الإلهى ذاق حلاوته الشعراء منذ انبثاق فجر الإسلام و وبلغ ذروته وقمته حين خاض هذه التجربة الشعراء الفلاسفة والشعراء المتصوفون مثل ابن سينا ، وابن الفارض . وغيرهم من رواد الشعر السابح فى سماوات الذات العلية[2] .

---

(١) سورة الشعراء الآيات [٢٢٤ - ٢٢٧]

(٢) أنظر الموضوع بالتفصيل فى كتابنا « الأدب الصوفى : اتجاهاته وخصائصه » دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤م

وحين نتأمل آفاق التجربة فى ديوان « مسافر إلى الله » نجد أن الشاعر فتح مشاعره على مشاهد الطبيعة ، وتنقل بين هذه المشاهد بحسه الإيمانى يتأمل قدرة الخلاق وجمال الكون ، وقد صاغ هذه التأملات الإيمانية صياغة فنية تتكىء على فن القص والحوار وتعدد والأصوات ، والتصوير الشعرى المحلق ، والطبيعة منبع فنه ، ومصدر أدواته الفنية ، ووسائله الجمالية ، وتوظيف الطبيعة هنا ينأى عن الرمز وعن الغموض، فلم تغلف التجربة هنا بالغموض وبالرمز اللغوى الذى يميز تجربة « بنعمارة » فى ديوانه « مملكة الروح » .

والطبيعة فى تجربة « أحمد فضل شبلول » تتعدد أبعادها التأملية الإيمانية . وهى فى كل هذه الأبعاد لوحة تشكيلية تتراءى فيها رؤى الشاعر المؤمنة عبر تصوير فنى مبدع ، تجسده مشاهد الطبيعة ومرائيها ومظاهرها الكونية - والنباتيه - والحية . ومن هذه الأبعاد :

(أ) البحر قراءة فى كتاب المستقبل ...

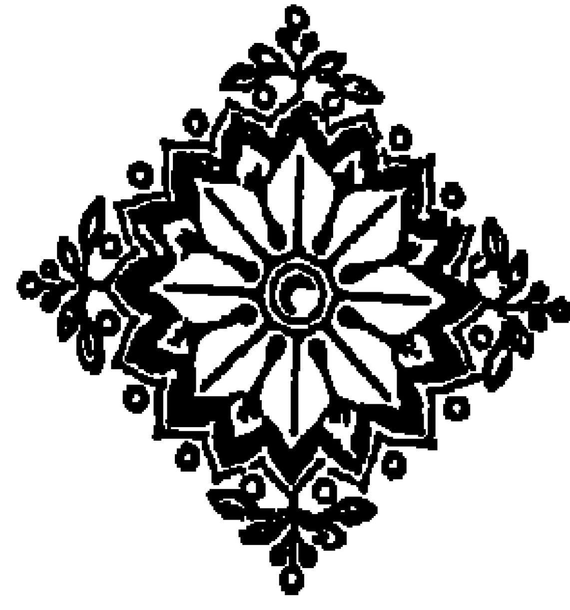
والبحر هنا يوظفه الشاعر بكل معطياته الدينية ، وبكل موحياته فى التصور الإسلامى ، ويستوحى القصص القرآنى وبخاصة قصة سيدنا موسى عليه السلام .

ولا يغيب فى أحلام الاستدعاء بل يقرأ كتاب المستقبل ، وشعوره مضاء بلحظة انتصار الوجود المؤمن المتمثل فى « موسى ومن معه » على الوجود الكافر المتمثل فى « فرعون وجنوده » يقول الشاعر معلناً نبوءته بانتصار الإيمان :

« حين انزلق التابوت إلى أحضـــان البحـــر
كان هناك رضيع يتأرجح بين ظـلال المـــوج
كان هناك رضيع يتأرجح فوق ظـلال المـــوج
.... ويحتضن الزبد النابض فى الأعمـــاق
لكـــن عنـــد مجىء السفـــــر
يصفع وجه الماء ... فينفلق البحـــر اثنين ..
.. وتنشطـــر الأرض اثنـــين
ويسافر فى قطرات المـاء الصاعد نحو الشمس

حيث يصير رصاصة إيمان .....

... تنفجر عند بلوغ القرن الحادى والعشرين[1] .



---

(١) ديوان « مسافر إلى الله » ص [٨] أحمد فضل شبلول

(ب) الطبيعة مملكة اليقظة الإيمانية وفى مرائيها تسافر الفطرة الإنسانية :

وقد اتخذ الشاعر من الشمس والقمر معبراً للنفاذ إلى أسرار تجربته ، ورمز للفطرة الإنسانية بالطفل ، وقد اتكأ على العنصر القصصى ، ورسم للطفل عدة مشاهد يتصاعد معها الرمز وتنمو التجربة ، فالطفل يولد .... وبعد ذلك يتساءل ...وبعد التساؤل لا يقع فريسة الحيرة والقلق بل يتحول التساؤل إلى حركة وفعل.

فالطفـــــل ...

« يجمع فى كفيه حصاد الشمس ....

.... أسرار الحرف ....

.... وأحلام الماء

.... وبعد الحركة والفعل تبدأ مرحلة العطاء .. فنراه

يهدى للخبز وللعشب النار

أغنية من نور

وبعد مرحلة العطاء تبدأ مرحلة الهجرة والسفر إلى الحقول الجديدة ..

لتبدأ الدورة من جديد

« ويهاجر فى مملكة اليقظة نحو حقول الدهشة فى الإنسان

طفل شال على الإبهام

جبل اليأس القتال

ورماه وراء بحار الظن

طفل فى عينيه تبرعم كون

من خلف حجاب الضوء

ويعود شعاعاً ربانياً

يزرع فى أعماق الدنيا

أشجار الرحمة .... ، وشموس الحب(١)

وتجوال الشاعر وسفره فى مشاهد الطبيعة يجعل وجدانه متحداً بهذه المشاهد

---

(١) السابق ص [١٠.]

فهو يصادقها ويتأمل فيها ويقبس منها كثيراً من هالات الإيمان، وفى قصيدة « صوفية الاسكندرية » تتكاثر مفردات الطبيعة مثل البحر والموج والرمل والفجر والشمس والتابوت والحوت .....، وهى مفردات يستوحيها الشاعر فى كثير من قصائد هذا الديوان ... وينوعها ويشكلها حسب لون التجربة .. يقول :

ماء البحر ترابى وشرابى فى هذا الصبح المتجلى
فليفطر معى شعاع الشمس وعدة أخشاب من سفن غرقى
ولنتصـــــادق منذ اللحظــة
هذا قلبى يا صوتـاً من نور الرحمـن
ولتمنـحنى أضعافاً من فتح وكـلام
هذا عقلى قطعة شمس تحبو فى نور الأنوار
فلتأخذ عقلى يا سمعًا يرحل نحو سماء الله »[1] .

(ج) النجوم التائهة خلف الغيم والبحث عن الحقيقة :

وبحث الشاعر عن الطريق وهو فى معاناة السفر يمتزج بخيال محلق ...... يميل إلى عالم الأسطورة ، فهو يحكى قصة السارى الذى لا يعبأ إلا بنجوم تاهت ، فكل ما حوله من مظاهر الحياة وصراعها ، وأشباح الرؤى وأوهامها ، وأشواق الروح وأحلامها ، كل هذا يصور نفسيته وما تمور به من صراع وقلق ..... ولكنه لا يعبأ إلا بنجوم تاهت خلف الغيم، فهو يرفض مغريات الحياة ، وينتصر على الفزع والحيرة والمعوقات التى تشدة بعيداً عن غايته الإيمانية ، وهذه المغريات يكشفها الشاعر « أحمد فضل شبلول» فى المشهد الأول من قصيدته (السارى).

وتتمثل هذه المغريات فى المشاهد الآتية :

(أسنان تصطك - شعر ثائر - أنف فى لون النـار - صخر يتراجـع نحو الشاطىء -) وهذه الصور تجسيد للإغراء والفزع والحيرة .

والمشهد الثانى يصور تذبذب النفس الإنسانية بين زمنين : (زمن الغيم ... . وزمن الصحو) .

والغيم فى رؤية الشاعر رمز لزمن التيه والضلال ؛ والصحو رمز للهدى والإيمان.

---

(١) السابق ص [١٢]

والتجربة كما قلت : مغلفة بالخيال الأسطورى والنزعة الدرامية .. والتنامى الشعورى ، والحركة الداخلية فى القصيدة : وقد كثف الشاعر التجربة كلها فى مشهد داخل القصيدة ... حيث يقول :

جلس السارى فوق السور الحجرى
جاءتـــه سيـــدة المـــوج
رقصـــت فى عينيه الأحـــلام
جاءتـــه سيدة الصحـــو
صغرت فى عينيه الأكـــوان
- جـــاء النـــورس
رفرف حـــول السيدتـــين
حط أمـــام الســـارى
نظـــر إلىّ يعاتبنـــى
لكنى ... كنت أحاول فك الطلسم ....»[1] .

(د) الطبيعة الحية والسباحة فى محيط الإيمان :

والشاعر يستوحى هذه الرؤية من قولة تعالى ﴿ وإن من شىء إلايسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

وهذا المنظور الإيمانى للطبيعة الحية يجسده الشاعر فى قصيدة «النمل يصلى ويبشر بالماء » ويوظف مشهداً من حياة الرعاة ... ، وكذلك يوظف التراث الشعبى فى إنجاح التجربة ، ويحدث توازنًا فنياً ومعادلة موضوعية بين جفاف البئر وجفاف القلب من الإيمان ، وحين يجف القلب تيبس الحروف !! ومكونات الطبيعة التى وظفها الشاعر فى تجربته هنا هى : الأغنام العطشى - الإبل العطش - النمل - الحادى - الحبل المتدلى - الدلو المتأرجح - قوافل النمل - البئر تجف ، وكل هذه المكونات تشكل مشهداً تصويرياً حركياً .

---

(١) السابق ص [١٨ - ١٩]

والقصيدة تتكون من ست مشاهد .... يختمها بهذا المشهد

أغنـــام نفقت ..... وفتاة تبكـــى
قافلة رحلت ..... ورمال تشكو .....
ودعـــاء يعلـو تلـــو دعـــاء
.... لكن النمل يصلى ويبشر بالمـــاء

واختيار النـمل فيـه تأثـر بماجـــاء فى القـرآن الكــريم فى قصـــه « سليمان » ؛ وحديث النمل الهامس ، وحذره من سليمان وجنوده ؛ ... فكل ما فى الطبيعة يصاب بالعطب ... والفتاة تبكى ، والقافلة ترحل ...والدعاء يتوالى ... وأصغر ما فى هذا الوجود .. مازال يصلى ويبشر بالأمل والخصب والحياة فسر الحياة يكمن فى الماء صوت البشارة ... واخضرار الوجود .

(هـ) إضاءات الوجود :

ويوظف « أحمد فضل شبلول » ظواهر الطبيعة الكونية فى صياغة تجاربه الشعرية .. ؛؛ وكل ظاهرة كونية يشكل من موحياتها قصيدة مستقلة ، وكأن الظاهرة تضىء طريق الإنسان الباحث عن المعرفة ... ودروب الإيمان .

فقصيدة « إضاءة الجبل » يصدرها الشاعر بقوله سبحانه ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على الجبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله ﴾(١)

ويبدأ القصيدة بتأثره بالأسلوب القرآنى فى قوله تعالى ﴿ يا جبال أوبى معه والطير ﴾ فيقول :

جبل صلى للأسماء الحسنى
فانفلقـــت ذرة .....
وارتفعـــت صخـــرة
« نحو سماء الدنيا ... وأضاء الجبل قرونا »(٢)

---

(١) سورة الحشر آية [٢١]

(٢) ديوان « مسافر إلى الله » ص [٢٦]

ويوظف الشاعر مكونات الجبل المادية وهى تتوارى أمام طغيان الآلة مصوراً اصطدام فطرة الإيمان بمقومات الحضارة المادية الحديثة ... حيث يقول :

جـــــــاء المدفـــــــع
حـــط مكـــــان الصخـــره
طـــارت من عينيـــه الطلقـــه
بـــاتت فى أحشـــاء الطفـــل
فتـــراءى للجبـــــل الظـــل
أشبـــاحاً تسكـــن فى رئتيـــه[1]

وقصيدة « إضاءة الماء » يصدرها الشاعر بقوله سبحانه ﴿ وجعلنا من الماء كلَّ شيء حيٍّ ﴾ .

وإضاءة الماء تصور اتحاد الوجدان المؤمن بمشاهد الطبيعة ، وتفصح عن الإذعان الكامل لقدرة الخالق ؛ وصياغة التجربة هنا فى القسم الأول منها صياغة خبرية تعتمد على التوازى الأسلوبى ، والتنغيم الشعرى، والتكرار الموحى بالتماثل والتوازن .

يقول الشاعر ....

الماء خليلـــى ...... منذ اليـوم الأول من أيام الخلق
والموج رفيقـى ..... منذ دوائـــر تكوينـــات الأرض
والرمل صديقى ..... منذ بدايـــة ترنيمات الضـــــوء
والشمس طريقى ..... نحو الحب ونحو الدفء ونحو الشوق

وتتوالى بعد ذلك إضاءات الشاعر ، وهى متداخلة متشابكة ... تلجأ أحياناً إلى الإسهاب وعدم التكثيف .. فالمفردات فى كل قصيدة تتكرر ؛ فالموج والضوء والرمل والشمس وغيرها من ظواهر الوجود لبنات أساسية ، ، وهذا التكرار الملح لمفردات المعجم الشعرى يصبح عبئاً على تجربة الشاعر ، وقد حاول الإفلات من تهمة التكرار والثرثرة ... فجاءت الصياغة فى تجاربه متنوعة ، ففى إضاءة الجبل

---

(١) السابق ص [٢٧]

اتسمت الصياغة بالنزعة الوصفية القصصية ، والأفعال تدفقت فى إطار حركة الزمن الماضى ، وفى إضاءة « الماء » طغت النزعة الخبرية التى تؤكد واقع الشاعر، وجاءت الصياغة فى إطار الزمن الثابت حيث طغت الجملة الإسمية .

وفى القسم الثانى منها حينما أراد الشاعر أن يدفع بهذه الرفقة وذلك الصدق فى معانقته للطبيعة إلى مشارف التفاؤل لجأ إلى الصيغة المستقبلية ... ليبث الخصوبة والخضرة فى شرايين الصحراء .... وفى إضاءة الضوء ....كانت الصياغة مستقبلية .. لأن الضوء سائر بخطى الإنسان دائماً إلى اقتحام السدود ، والانتصار على المعوقات ؛ ولذلك جاءت أبيات الشاعر كلها تبدأ بالفعل « وليكن » فكأن هذه الإشراقات الضوئية أمنيات يصوغها الشاعر فى هذا القالب المستقبلى ..

يقول :

فليكن الضوء طريقاً ...... نعبر فوقـــه
كى نتلاقـــى يا روحـــــى ....
وليكن الرمـــل صديقاً نجلـــس عنده
كى نتباهى بالمـــاء وبالشفــق الـــوردى
وليكن الموج رسولاً ..... نسبح فى صوته
كيمــــا نتسامــــى نحــــو الله

ثم يقول فى نهاية القصيدة : وليكن القلب مرايا للضوء وللحب وللقرآن

وفى إضاءة « الموج » ينأى الشاعر عن التكرار وعن الإسهاب ، ويوظف الموج ليصبح معادلاً موضوعياً لحركة الحياة ... فكائنات الطبيعة هنا تمتزج وتتداخل ... وتصبح ظواهر الوجود متشابكة ويمكن أن نطلق على أى ظاهره منها اسم ظاهرة أخرى فالموج شمس ، والرمل أقمار ، والبحر شباب ، والرمل ضياء .

والكون بهذا المزج الشعرى دوائر متداخلة تتعانق فيها العوالم الأرضية والعوالم السماوية ، والعوالم النباتية نجدها ممتزجة بالعوالم الإنسانية .

وهذه الدوائر الكونية تشع بطاقات الإيمان ، وتتفجر من خلال تداخلاتها ينابيع الغفران ... ، يقول الشاعر :

ويظل البحر شباباً .... يدعو كل قصيد للشعـراء
ويظل الرمل ضياء ... .يزهو فوف أهازيج الشطآن

وفى إضاءة « الرمل » تتكرر الرؤية المنبثقة من إضاءة الموج حيث الوحدة الكونية المجسدة لقدرة الخالق .

وفى إضاءة « الحب » تتكرر الرؤية ... ولكن فى تصوير جديد .. يقول :

.... ماذا لو أدركت ... يا مبحرة القلب
أن الدنيـــا لو أشرقـــت .....
....لـــو أحببـــت
ستكـــون طريقـــاً نحو الدفء ....
.....ومعراجـــاً نحـــو الله .....

وفى نهاية الرحلة يختم الشاعر ديوانه « مسافر إلى الله » بقصيدة الإيمان وكأنه يعلن أنه خلال رحلته الطويلة فى مشاهد الوجود وظواهر الكون .... وصل إلى مبتغاه ، وقطف ثمرة السفر ، وأشرقت فى نفسه شمس الإيمان ، والقصيدة لا تكتب مبتورة ... بل لا بد من تسجيلها كلها ... فهى مفتاح رؤية الشاعر ، وهى نموذج جيد للرؤية الإسلامية فى شعرنا المعاصر .

وقد كشف الشاعر رموز الطبيعة في هذه القصيدة ، وجعلها تنطق بجمال الكون، وقدرة الخالق وصوت « الإيمان »[1]

أجئ الآن ... بلا ضجه ... بلا استئذان
أجئ الآن .. فمن منكم ..... يغنى لى
ومن منكم ... يعادينى
أنا المرئى فى الأسحار
فمن منكم يصاحبنى
ومن منكم ينازلنى

---

(١) أنظر ديوان « مسافر إلى الله » (قصيدة الإيمان)

أنا المنثور فوق الرمل .... فوق الماء .... فوق النار
فمن منكم يداعبنى
أنا المسموع فى الأحجار
تصادقنى قباب الفجر تحت النور ...
تسامرنى شموس الأرض فوق الدوز
ترافقنى مياه الحب نحو الجذر
فمن منكم يشاهدنى
أنا السباح فوق البحر
أنا المرسوم فى الراحة

أنا المبذور عند النهر
أنا المنقوش والمزروع فوق الصخر
أجئ الآن .. بلا ضجة ... بلا استئذان
أجئ الآن
لأسكن فى عيون الودق
وأمرح فى أيادى الرزق

فمن منكم يصادقنى
ومن منكم يرافقنى
أنا المكتوب فى القرآن
أنا الإيمان

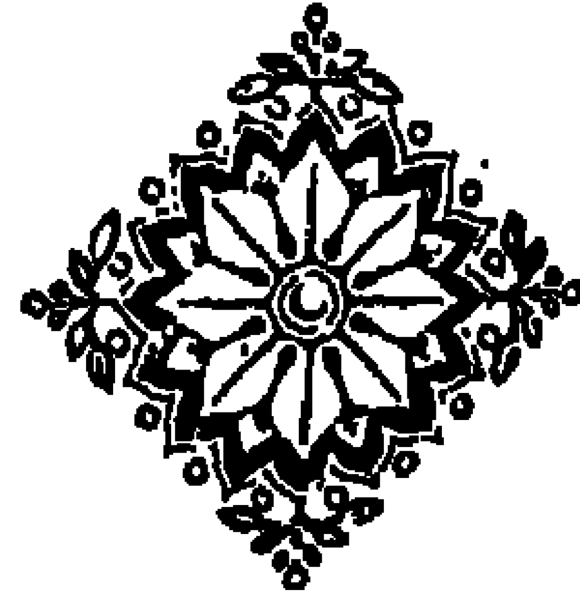
***

وبعد ....

فهذه الأبعاد الفكرية والجمالية للرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر ليست إلا إشارة البدء لارتياد آفاق التجربة الأدبية فى ظل التصور الإسلامى ، وهى تزداد تألقاً - وصدقاً ... كلما كان الأديب صاحب رسالة ، متمسكاً بالمنهج ، وحريصاً على أن يظل قابضاً بكلتا يديه على شعلة الإبداع .... مجتازاً دروب الفن العصية ، محققاً إسلامية الرؤية ، وتوهج الأداء الفنى ، غير مبتور الصلة بقيم

العصر ومنجزاته وأساليبه ورؤاه ولغته وآفاقه الفنية .

وديوان الشعر الحديث يعبق بالتجارب الإسلامية رؤية وأداءً ، وما على الأدباء والنقاد إلا أن ينقبوا جادين ... فاحصين متأملين ، وسيعودون بعد رحلة التنقيب في مفازات الأدب ، ورياضه الغن وحدائقه الفيح بأثمن الكنوز وأسمى التجارب ..... ، والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .



ثالثاً : يا أدباء الإسلام انتبهوا ... هذه هى ملامح الواقعية المحزنة *

يحلو لطائفة غير قليلة من الأدباء العرب فى العصر الحديث أن يتفاخروا بأنهم واقعيون ، وإذا ما لاحت فى خيال أحد الأدباء بارقة من خير ، أو توسطت أفقه سحابة من أمل ، اتهموه بالتخلف ... والتقوقع .. والسذاجة ، وذلك لأن الواقعية التى تشربوها من غير أن يدركوا عناصرها .... ترى الحياة من خلال منظار أسود، وترى أن بذرة الحياة تكونت فى حقل الشرور ... وأنبتت شجر اليأس ، وثمارها القلق والخوف والفزع والتمزق النفسى وفقدان الثقة فى الحياة وفى الأحياء.

وسيان فى هذا المنظور للحياة - على خلاف فى التصور والأداة والنتيجة- الواقعية الأوروبية ، والواقعية الاشتراكية ، والطبيعية .. والوجودية .

فالواقعية ممثلة فى « بلزاك » وفى الفيلسوف الانجليزى « هوبز » وفى « فولتير » الذى مهد لها بقصائده المسماة « أحاديث عن الإنسان » وفى « أميل زولا » الذى يرى أن الإنسان حيوان تسيره غرائزه وحاجاته العضوية .

هذه الواقعية التى أغرت عقول المفكرين والأدباء العرب والمسلمين. فإذا بهم يهربون من تقليد التراث العربى إلى تقليد الواقع الغربى ... وكانت عاقبة هذا التقليد أن رأيناهم يصطنعون فى أدبهم « شعراً ونثراً » صوراً لا تمت بصلة إلى أعرافنا الأدبية ، وتقاليدنا الإسلامية .... ومنظور ديننا الحنيف إلى واقع الحياة .

لنتأمل معًا مبادىء هذه الواقعية المحزنة لنرى إلى أى مدًى جرفتنا هذه المبادىء حتى أصبحت من البديهيات فى رؤيتنا للحياة ... وابتعدنا باعتناقنا لهذه الرؤية الواقعية المستوردة .... عن آفاق رؤيتنا الخاصة النابعة من تراثنا وحضارتنا وديننا وظروف بيئتنا .... ولون حركتنا فى الحياة التى صبغت بصبغة الإسلام .

---

* نشر بالمجلة العربية بالسعودية عدد ربيع الثانى ١٤٠٦ ه

« ومن أحسن من الله صبغة »

هذه المبادىء يصوغها « بلزاك » فى صورة حديث يتوجه به « فوتران » وهو مجرم عات فار من السجن ... إلى « راستنياك » طالب الحقوق الشاب الذى تنمو في وجدانه صورة خيرة عن العالم ؛ وتتجمع فى استعدادته خيوط الدفاع عن الحقوق الإنسانية .

« راستنياك » إذن صورة للخير القادم ، لوحة الضوء النابع من قلب جبال الظلام و « فوتران » صورة مكبرة للواقعية القاسية البائسة التى تدمر كل شيء !!!!

ماذا قال « فوتران » لراستنياك » ؟

قال « أتدرى كيف يشق الناس سبيلهم فى هذه الدنيا ؟ يشقونه ببريق العبقرية أو بالمهارة فى الخسّة !!! » وبريق العبقرية لا ينكره إلا من به رمد فى العين ومرض في القلب !! ولكن ... ما معنى المهارة فى الخسة ؟ وما ثمرتها ؟ وما صورة المجتمع الذى تشيع فيه ؟

ويرسم « فوتران » طريق الوصول للهدف فى الحياة من أقرب منحنى وبأسرع وسيلة .... والهدف هو الثروة العاجلة ... والمركز الكبير الذى يأكل الناس فى سبيله بعضهم البعض الآخر !!

« كالعنكبوت الذى يجتمع فى زهرية واحدة »

قال « يجب أن تسقط بين صفوف البشر كقنبلة أو أن تتسلل بينها كوباء . أما الشرف فلا فائدة فيه » !!

وهكذا النجاح فى الحياة فى منظور الواقعيين صراع .... وخداع ..؛ جراد منتشر يأكل الأخضر واليابس ، أو نمل يغزو الأنوف والعيون ... لحظة الغفوة !!!

ويتابع « فوتران » قائمة المبادىء أمام مخيلة « راستنياك » فيغريه بأن يكون مخادعًا حتى يستطيع أن يكون ثرياً .... يقول :

« إذا كنت تريد أن تثرى سريعاً فمن الواجب أن تملك شيئاً ... أو تتظاهر بأنك تملك شيئاً » .

ولا يكتفى بالخداع والتمويه بل يرشده إلى ممارسة الفعل فى غيبة عن العيون اليقظى ....

« يجب عليك أن تلوث يديك إذا أردت أن تثرى ، ولكن يجب عليك أن تعرف كيف تشطفهما بعد ذلك . ففى هذا جماع الأخلاق فى عصرنا !! » .

ولنتساءل : أى متعة فى الحياة هذه التى تنبت فى أرض ملوثة ... وتثمر ثمراً قاتلاً ؟

أى سعادة فى الحياة .... وأى واقع ... هذا الذى يتسلل بين الناس كوباء يمتص أحاسيهم ويوقعهم فى شرك الخداع ؟ .

ثم يختتم « ڤوتران » وصاياه إلى « راستنياك » وينصحه أن يكون « إمعه » فيقول : « وإذا كانت لى نصيحة أهديها إليك فهى ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك عند أقوالك !!!

وعندما يسألك أحد عن رأى بعد له !!

والرجل الذى يفتخر بعدم تغيير رأيه هو أبله يعتقد أنه معصوم من الخطأ !!!

وليست هناك مبادىء ..... وإنما هناك ظروف !!! »

.... وبعد ....

فهذه صورة للواقعية أعرضها أمام الشباب المسلم المفكر الغيور على قيمه وتراثه .

فليتأمل خطوطها العريضة .... وألوانها المعقدة .... وخيوطها المتشابكة ، ويحلل ما وراء كل كلمة وكل عبارة ... وكل مبدأ.. من هذه المبادى التى ظن أصحابها أنهم قد سبروا غور الحياة .

وفى زعمهم أن أى تصور للحياة غير هذا زائف وساذج ... وباطل !! وبئس ما زعموا .....

وأول ما يجب أن يستقظ له أدباء الإسلام هو موقف الواقعية من دور الدين

فى تهذيب النفس البشرية وإصلاح المجتمع .... فالدين فى منظورهم غير قادر على تغيير النفس التى انطوت على هذه القيم الفاسدة التى يقرها « ڤوتران » قائلا « ولم يستطع الوعاظ تغييرها » .

والزواج الشرعى ... وهو قيمة اجتماعية سامية شوه صورته الواقعيون انطلاقاً من مفهومهم الفاسد للحرية ... ، يقول « بلزاك » على لسان امرأة لم توفق فى حياتها الزوجية .

« الزواج على نحو ما يطبق اليوم يبدو لى دعارة مشروعة تنبع منه كل آلامنا » و چوستاف فلوبير » فى روايته (مدام بوڤارى) يشوه صورة الدين ودور رجاله فى الحياة !!! و « ديدرو » فى قصة (الراهبة) ينظر إلى الدين من المنظور نفسه الذى يشكل رؤية الحضارة الحديثة وكذلك « موليير » فى مسرحيته «(المتزمت) و (طرطوف) وأيضا « شوسر » فى قصة (صاحب الطاحون) يتجهان إلى هذا المنحنى فى فهمهم المبتور لرسالة الدين فى الحياة !!!

وهذا الاتجاه الذى يشكل سمات الفكر الحديث منذ قيام النهضةالعلمية فى أوروبا ..واتكاء الأدب على حقائق العلم بتوجيه من « أرنست رينان » و «وتين» و « جاستون بارى » و « يرونتيير » وغيرهم .

.... يعد هذا الاتجاه أخطر قنبلة توجهها الواقعية إلى مجتمعنا الإسلامى. بل أشرس وباء يتسلل فى كيان الشخصية الإسلامية ، ومن العجيب أن هذا الوباء الفكرى والنفسى تزامن مع هجمة الاستعمار الشرسة على كيان الأمة العربية والإسلامية !!!

فهل نعالج أنفسنا أم نستسلم للوباء ؟ ونحيا كالعناكب تلتهم بعضها البعض الآخر كما قال « ڤوتران » : إننا فى فهمنا للواقع يجب أن ننطلق من قيمة كبرى أرساها الإسلام متمثلة فى قول الحق جل وعلا ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى** ﴾ .

ويجب أن ننطلق من أمره الإلهى ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾

فالتكامل ... والتسامح ... والعمل الصالح ... والإخلاص ... والإيمان .... مصابيح وهاجة فى طريق الحياة تضىء لنا زوايا الواقع وآفاقه ... وتجمله ... وتفتح مغاليق النفوس والقلوب لتفكر فى صياغة المستقبل ....

حتى نغرس شجرة مكان التى اقتلعتها الريح العقيم .. أو أكلتها السنون أو قطعتها أيدى أعداء الحياة .

حتى نعمق مجرى النهر الذى تراكمت فيه الرمال والصخور ... وعششت فيه الطحالب ...

حتى نحيى موات النفوس والأرض ... بانفعالاتنا المسيطرة على ما تنفعل به ... وبما تجود به من حب وسخاء وسمو .. وتضحيات ، وبعرقنا الصادق فى إعادة البهجة والخضرة إلى وجه الحياة .

هذه هى واقعيتنا - نحن المسلمين - وما أبعدنا فى منهجنا عن هذه الواقعية الغربية التى ترى الشجاعة والاستهانة بالموت يأسًا من الحياة !!!! وترى الكرم أثرة تأخذ مظهر المباهاة !!!

وترى المجد تكالبا على الحياة وإيهامًا بدوامها واستمرارها !!!
وترى القيم الأخلاقية كلها أغلفة نخيلة لاتكاد تخفى الوحش الكامن فى الإنسان !!!

إن هذه الواقعية المريضة ليست صورة صادقة لواقعنا الاجتماعى أو النفسى أو الأخلاقى . فكيف نشاهدها مجسمة فى آثارنا الأدبية من شعر وقصة ومسرح ورواية ؟ .

وقد كادت تتشبع بهذه المبادىء أفكار عامة الناس . وعقول الناشئة من شبابنا وذلك ما نشاهده فى المسلسلات - والمسرحيات .. والأفلام التى راجت فى وطننا العربى والإسلامى ......!

إن الرؤية الأدبية تنبع من استقلال الشخصية ....

فهل نلمس بصمات الشخصية الإسلامية والعربية فى أعمالنا الأدبية؟

هل نعيد صياغة فكرنا بما يتفق مع ملامح هذه الشخصية ؟

حتى لا تفترسنا الواقعية المريضة المحزنة ....؟؟

القسم الثانى

دراسات نصية تطبيقية

ويتضمن ثلاث دراسات :

أولاً - من أسرار البيان اللغوى فى خطبة الوداع .

ثانياً - غزوة الخندق بين شاعرين .

ثالثاً - أبعاد التجربة الإسلامية فى شعر السنهوتى .

أولاً - من أسرار البيان النبوى فى خطبة حجة الوداع

إن البيان النبوى يعد النموذج الأعلى للبلاغة العربية بعد البيان القرآنى الكريم ،فهو قبس من أضواء الذكر الحكيم ، ونموذج سام للبيان العربى الدال المفيد .

وكان الصحابة يدركون تفوق النبى ﷺ فى بيانه ، ومعرفته بلهجات العرب ، وبغريب مصطلحاتهم وألفاظهم ، ودقائق معانيهم وأفكارهم ، يقول أبو بكر لمحمد ﷺ لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك . فمن أدبك ؟ « أى من علمك » فقال عليه السلام « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وصدق الحق سبحانه إذ يقول :

﴿ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هوى إلا وحى يوحى ﴾[1]

وقد وصف الرافعى بلاغة المصطفى ﷺ وصفاً دقيقاً سبر فيه أغوار أسرارها التعبيرية وارتاد بعض آفاقها الفكرية والنفسية ولا غرو فهو أديب متمكن يدرك أسرار العربية ، ويعرف قيمة الكلمة المؤثرة ، وبلاغة المصطفى ﷺ بلغت من الجودة مبلغاً لا تسمو إليها بلاغة بشرية مهما بلغت رقياً وكمالاً ، حيث ابتعد بيان النبوة عن التكلف ، ونأى عن الصنعة التى كثيراً ما يلجأ إليها المفتنون فى أصول البيان ، والمبدعون فى ساحات الكلمة بغية ارتقاء أساليبهم ، وأملاً فى سمو أفكارهم ، فإذا بهم إلى السفح مرتدون ، لأنهم خالفوا الفطرة النقية ، وابتعدت بهم أساليبهم عن ارتياد آفاقها الصافية .

أما ألفاظ النبوة ومعانيها فمنبعها القلب المتصل بجلال خالقه ، فهى لا تصدر إلا عن صدق ويقين ، لا يشو بها زيف ولا يكدرها رياء ، إنها صورة سوية لنفس صاحبها ﷺ .

يقول الرافعى « هذه هى البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهى من الأحكام كأنها مصنوعة ، ولم

---

(١) سورة النجم الآيات من [١ - ٤]

يتكلف لها وهى على السهولة بعيدة ممنوعة ، ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه . فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها دليل فقد كانت هى من دليله ، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول ، حتى ليس فيها كلمة مفضولة ، وكأنما هى فى « اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هى فى سموها مظهر من خواطره ﷺ »

وفى خطبة « حجة الوداع » تتجلى معالم البيان النبوى ، وتتألق أبعاده ، فالخطابة فن أدبى كاد يندثر فى عصرنا الحديث ، وما أحوجنا إلى تأمل النماذج العليا من هذا الفن الأدبى الراقى ، إنه فن الإلقاء ، وفن صياغة الكلمة صياغة آسرة تؤثر فى المتلقى ، وتأسر أحاسيسه ، وتثير انفعالاته ، وتمتع عقله ، وتشبع عاطفته !!

وحين نتأمل هذه الخطبة - نجدها كنزاً من الأساليب المضيئة بالإيمان ، والناطقة بأدق أسرار لغتنا العربية الفصحى لغة القرآن الكريم .

والخطبة تبدأ بمقدمة حرص الرسول على ذكرها كثيراً فى افتتاح خطبه ، وهذه المقدمة تعد صورة صادقة لمكونات الشخصية الإسلامية ، وتبياناً لعلاقة المسلم بالله والكون والإنسان ، ومن هنا تنأى المقدمة فى « الخطبة الإسلامية » عن الترف اللفظى ، والحشو الزائف فما ورد فى المقدمة يعد من أدق صفات وسلوكيات المسلم.

فالمقدمة تعلن عن خمسة مبادىء إسلامية تحدد علاقة المسلم بربه وهى : الحمد - الاستعانة - الاستغفار - التوبة - الاستعاذة .

وقد وردت هذه المبادىء فى صيغة الجمع المتكلم ... لتوحى بأنها حالة شعورية صافية يموج بها الوجدان الإسلامى كله ؛ وإعلانه عن علاقة ثابتة بين المسلم وربه فى إطار هذه المبادىء،وزمن هذه المبادىء - حين نتأمل البنية اللغوية - نراه قد صيغ فى قالب المضارعية ، وفى ذلك إيحاء يتجدد هذا الشعور واستمراره فهو هتاف المؤمنين فى كل زمان ومكان ، يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ،

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » .

والإقرار بالتوحيد يأتى فى ختام المقدمة ليصبح سمة من سمات الخطابة فى الإسلام ، وليميزها عن الخطابة الجاهلية . فشهادة التوحيد هى مفتاح الجنة ، وبرهان الإيمان .

والخطبة دستور إسلامى متكامل بين فيه الرسول عليه السلام موقف الإسلام من التقاليد والعادات الجاهلية وهو موقف الرفض ما عدا خدمة الكعبة وسقاية الحجيج.

ثم يبين الرسول عليه السلام .. الأحكام التشريعية بتنظيم المجتمع الإسلامى فيما يتعلق بالحقوق والواجبات .

ثم يحدد العلاقة بين الرجل والمرأة . ويوحى بضرورة تحقيق المساواة وتآزر المسلمين ، والعمل على تحقيق الأخوة فيما بينهم ، ومعيار هذه الأخوة هو العدالة والحفاظ على حدود الله ، ويخص النبى عليه السلام الميراث بذلك لأنه باب التناحر والشقاق حين يخالف الناس فيه شرع الله عز وجل .

وهذه القيم الإسلامية يصوغها الرسول عليه السلام فى أسلوب سهل واضح مبين لا عوج فيه ولا التواء ؛ إنه كما قال الجاحظ « كلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام » .

وقد فاضت هذه الخطبة بالأسرار التعبيرية والقيم الجمالية والأساليب الموحية ومنها :

أولاً : النداء

وقد تكرر النداء فى الخطبة ثمانى مرات . ويتمثل هذا الأسلوب فى قوله عليه السلام « أيها الناس » ؛ والنداء هنا يكشف عن حرص المصطفى عليه السلام على هداية العالمين جميعاً .. ولذلك جاء التعبير بلفظ « الناس » فالإسلام دين البشرية جمعاء ، وقال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .. وبين كل نداء ونداء يبث السراج المنير شعاعًا من نور الحق ليضيء به دروب

النفوس التى أظلمت قروناً عديدة ، ويظل النداء سارياً فى ضمير الأجيال المؤمنة عبر القرون المتعاقبة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثانيا : التكرار

ويمتزج التكرار بالنداء فى قوله « أيها الناس » كى يوقظ الحواس الغافية ، والقلوب الغفل ، والآذان الصم .

ويمتزج التكرار بالتوكيد فى قوله عليه السلام « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » ، وتكرار اسم الإشارة يفسر لنا حرص الرسول عليه السلام على حرمة الأماكن المقدسة ؛ وثمرة ذلك الحرص المحافظة على أمن البلد الأمين واستقراره بما فيه من أناس وطير وشجر وحيوان فكلها من خلق الله ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ .

ويتكرر اسم الإشارة فى موضع آخر للدلالة على التعظيم والتحديد وأيضاً لتنبيه المخاطبين إلى اكتمال الرسالة ... وبلوغها الدرجة المثلى .. وكأنها تهيئة نفسية للمسلمين من أجل ألا يفزعوا حين يلقى المصطفى ربه .. راضياً مرضياً .. إنه يقول « اسمعوا منى أبين لكم . لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقعى هذا » .

ويكرر المصطفى عليه السلام قوله « ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد » ست مرات فى خطبته الرائعة . وهو بهذا التكرار يلقى على المسلمين عبء المسؤولية ، ويشهد عليهم الحق سبحانه وهو خير الشاهدين ، وهذا التكرار يأتى فى قالب الاستفهام المثير للانتباه ، والراصد للمشاعر المؤمنة ، التى لن تجيب إلا بالقبول والإقرار ، ومن هنا تكون الحجة على المخالفين المعاندين قال تعالى ﴿ **فإن تولوا فقل حسبى الله لا اله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** ﴾ .

ثالثاً : التأكيد

ويتكرر التأكيد فى هذه الخطبة تسع عشرة مرة ، والمؤكدات هنا أداتها حرف « إن » أو « أنَّ » وكثرة التأكيد له علاقة بمدى أهمية الأمر المؤكد ، وأى أهمية

أكبر من إقامة المجتمع الإسلامى على دعائم الحق والخير والعدالة والمساواة والتآخى، فقوله عليه السلام :

« إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم » تأكيد للمحافظة على النفس والمال ، وقوله « إن ربا الجاهلية موضوع » تأكيد لرفض السياسة الجاهلية الاقتصادية مهما كان زمنها . وقوله « إن دماء الجاهلية موضوعة » تأكيد لرفض التصور الجاهلى للمحافظة على النفس أو الثأر لها ، وقوله « إن مآثر الجاهلية موضوعة » تأكيد لرفض التصور الجاهلى لأسس التفاضل بين الناس ، وقوله « إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه تأكيد لوجوب مقاومة الشيطان بكل مغرياته وموحياته ، وقوله « إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق» تأكيد لاقامة البنيان الأسرى على أسس عادلة ثابته ، وقوله « إنما المؤمنون أخوة » تأكيد لاستمرار حيثيات الأخوة وترجمتها إلى سلوك إسلامى ، وقوله « فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله » تأكيد لوجوب الحرص على العمل بالكتاب والسنة حتى تكون النجاة من تيه الضلال وعماية الفساد .

إن القيم السابقة تعد معالم أساسية فى حياة المسلم . وهى من جوامع كلمه ﷺ ، ولن تفقد معناها وخصائصها حين تنفصل عن كيان الخطبة الكلى ، ومن هنا يختلف البيان النبوى عن غيره من بيان الخطباء والبلغاء والأدباء ، فالحقائق توشيه ، والجمال يغشاه من جميع جوانبه ، وهو كما قال هند بن أبى هالة حين سأله « الحسن بن على » عن منطق رسول الله ﷺ « يتكلم بجوامع الكلم فضلا لا فضول فيه ولا تقصير » .

رابعًا : أسلوب الشرط والجواب

ويتكرر هذا الأسلوب فى الخطبة ثمانى مرات ؛ ومواضع ورود هذه الأساليب تشير إلى منهج الإسلام فى الثواب والعقاب ، فالجزاء من جنس العمل ، فلكل عمل صالح ثواب ، ولكل عمل مخالف عقاب . فالسماع شرط البيان فى قوله عليه السلام « اسمعوا منى أبين لكم » . والأمانة من أخص صفات المسلم ولذلك يقول عليه السلام : « فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها » .

وجواب القسم هنا جاء فى صيغة الطلب إعلاناً عن حتمية الأداء وعدم التهاون والتقصير فى هذا الشأن .

وقد حسم الرسول عليه السلام قضية « التنبى » فى الإسلام حين قال : « من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه ... فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل » .

ومجيء هذه القضية فى أسلوب الشرط والجواب يرشد إلى عظم الفرية ، ويفسر التركيب اللغوى تفاقم خطرها فى خلط الأنساب ، وتشويه صورة المجتمع الإسلامى ، ولذلك جاء الجواب فى أسلوب القصر، فعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين .

خامساً : التوازن

وهذه الخاصية من سمات الأدب النبوى فهو يخاطب العاطفة قدر ما يخاطب العقل ، ولا يجور فيه الخيال على الحقيقة ، ولا يطغى فيه المحسوس على المعقول ، ولا يتجه إلى قوم دون آخرين ، ولا يخضع لمؤثرات بيئية ، ولا لحيثيات زمنية ، إنه خطاب شامل للبشرية جمعاء وهى تستظل بظلال الإسلام فى كل زمان ... وفى كل مكان ، مهما اختلفت اللغات ، ومهما تباينت الأجناس ، وتعددت البيئات ، فالشعور الإيمانى هو الدائرة التى يتحركون فى فلكها ، وهو المنبع والمجرى والمصب ، منبع العقيدة ، ومجرى السلوك ، ومصب الرؤى والإشراقات

والتوازن فى هذه الخطبة يتألق فى مبانيها وفى معانيها... عبارةً وفكراً وأداءً جمالياً مشرقاً ؛ .. وتناسق التراكيب من سمات ذلك التوازن . فالعبارات متناسقة متوازنة كأنها صورة لنفس المسلم فى توازنها . وتناسقها السوى ، ففى مجال رفض قيم المجتمع الجاهلى المتطرفة التى نأت عن التوازن بكل أبعاده يقول المصطفى عليه السلام :

إن ربا الجاهلية موضوع ... وإن أول ربًا أبدأ به ربا عمى العباس ابن عبد المطلب .

وإن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية .

فالتصور الإسلامي لقيم العصر الجاهلي محدد وواضح .. ولذلك جاء التعبير عن ذلك التصور فى بيان الرسول عليه السلام متناسقًا فى عباراته ، متزنا فى مبانيه ، فصياغة الأحكام ومتعلقاتها جاءت فى صور متشابهة من حيث البناء اللغوى ، وقد اتحد خبر إن فى الأحكام الثلاث وهو لفظ « موضوع » ومعناه « ساقط ومحرم » ودلالة هذا اللفظ تخالف ما تعاهد عليه المتحدثون بالعربية فى العصر الحديث ، وتوافق ما تعارف عليه رواة الحديث والشعر فى قضية « الوضع والانتحال » فيقولون : هذا حديث موضوع ، وهذا شعر موضوع ، أى غير صحيح النسبة إلى قائله .

..... ومن سمات التوازن فى الأدب النبوى مطابقة الكلام للحقيقة ، فهو ليس استعراضاً أسلوبياً ، وليس زخرفة لفظية ، وليس تهويمًا فى أودية الخيال ، ومسابح الظنون ، بل هو حقائق تلبس أردية الجمال . وأحكام تناصر فيها الأفعال الأقوال ، فالمصطفى عليه السلام يقول «إن ربا الجاهلية موضوع « ثم يوازن بين الحكم - القول - وبين القدوة « الفعل » فيبدأ بربا عمه العباس . فيسقط عن رقاب المدينين له رباه وحين قال « إن دماء الجاهلية « بدأ بعشرته وأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

فأى عدالة حاسمة بعد هذا ؟ وأى توازن نفسى واجتماعى وسلوكى بعد هذا ؟ وأى قدوة حسنة مضيئة مشرقة بعد هذا الذى أعلنه المصطفى عليه السلام .

إن نكبة المسلمين فى العصر الحديث تفاقمت أخطارها بسبب انفصال المسلمين عن واقع دينهم المحكم ، فأصيبت شخصيتهم بالانفصام والازدواجية ، وفقدوا خاصية « التوازن » فنصوص الكتاب والسنة فى وادٍ ، وهم فى وادٍ آخر ، قدوتهم فى سلوك أعدائهم !!! ودواؤهم فى مكمن دائهم !!!! ورجاؤهم مقطوع الأسباب ، وطريقهم موغل فى التيه بلا إياب !

وكأن المصطفى عليه السلام يشاهد واقع المسلمين اليوم ، فيوصيهم بالتآخى

والوئام والبعد عن التناحر والخصام ، ويناديهم فى لحظة الوداع. نداء من بالمؤمنين رءوف رحيم « أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ... ولا يحل لا مرىء مسلم مال أخية إلا عن طيب نفس منه ... ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدى كفاراً ... يضرب بعضكم رقاب بعض .

إن هذه الوصايا المحمدية تشخص الداء وتعطى الدواء الناجع المفيد ؛ وهى تمثل حالات متعددة يمكن أن تجثم على واقع الوجود الإسلامى .. ولذلك تنوعت أساليبها وتآزرت تراكيبها اللغوية ... فهنا أسلوب النداء ...، وبعده يأتى أسلوب القصر ليؤكد الأخوة الإيمانية الثابتة ، وثباتها نطقت به اسمية الجملة « إنما المؤمنون إخوة ، ويأتى النفى مقرونا بالفعل المضارع فى قوله « لا يحل » إشارة إلى تجدد ذلك النفى واستمراره ... حيث يظل المال فى منطقة الحرمة لا يعتدى عليه سارق أو مغتصب أو مختلس أو محتال، ويأتى الاستفهام مقيمًا الحجة على السامعين والمخاطبين فى كل زمان وفى كل مكان ، ويأتى الدعاء وطلب الشهادة من الله ، بعثًا للرهبة فى النفوس التى يطوف بها الإثم ، وتمكينًا للطمأنينة فى النفوس المؤمنة المفعمة بزاد التقوى وبرد اليقين .

ويرشد المصطفى عليه السلام المسلمين إلى أفق الرجاء ، وباب النجاة فيقول مؤكداً قوله الذى صاغه فى أسلوب الشرط والجواب :

« فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده .كتاب الله»

فهل يدرك المسلمون أسباب النجاة ؟ هل يعودون إلى مشرق الأمل ومنارة التوحيد ؟

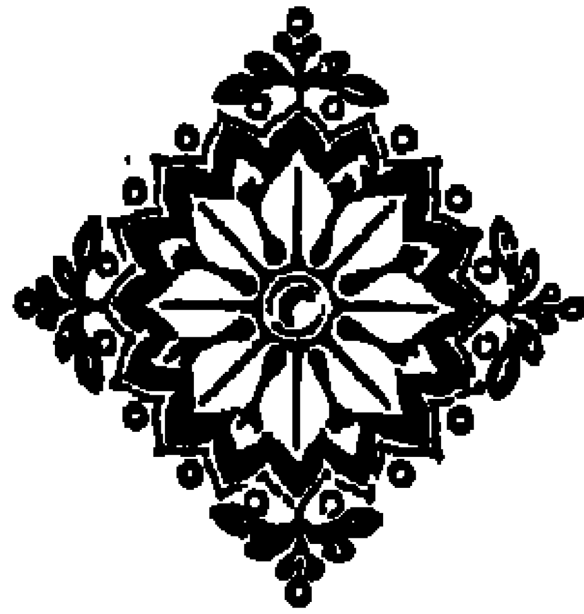
هل يتواصون بالحق وبالصبر .. ويبلغ الشاهد الغائب ؟

هل يجعلون من وقفة « عرفات » موسمًا للذكر والمكاشفة والتناصح والتآلف ؟

فهم فى حاضرهم كما قال شوقى يضرع إلى ربه فى يوم عرفة :

شعوبـــك فى شرق البـــلاد وغَربها إليــك انتهـَوا مـن غُـربـة وشتـــات
تساوَواْ .. فلا الأنسابُ فيها تفاوتُ لديك .. ولا الأقـدار مختلفاتَ
بأيمـــانهم نـوران : ذِكـْـرٌ وسُـنَّة فمـا بالـهـم فى حالـك الظـلمـات !!!

وبعد .... فهذه بعض الأسرار التعبيرية فى خطبة حجة الوداع ، وأعظم سر فى بيان المصطفى عليه السلام أنه لم يزل مشرقًا بالمعانى الوضيئة والألفاظ المبينة، ولم تزل النفوس الظمآى تجد فيه ريّها ، والقلوب الحيرى تجد فيه هديها ، ولله در « الجاحظ » حين قال لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ .



نص خطبة الرسول ﷺ فى حجة الوداع

قال رسول الله ﷺ : « الحمد لله . نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله .

أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير .

أما بعد أيها الناس !! اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا، آلا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها .

وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[١] ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة ،غير السدانة والسقاية [٢] والعمد قود[٣]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائه بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

---

(١) يقول ابن هشام فى السيرة النبوية : وكان مسترضعًا فى بنى ليث . فقتلته هذيل .فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

(٢) السدانة : خدمة الكعبة ، والسقاية : سقاية الحجاج

(٣) العمد : القتل العمد ، والقود : قتل القاتل بمن قتل

أيها الناس : « إنما النسيء[1] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله » .

إن الزمان قدد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض ، منها أربعة حرم » ثلاث متواليات وواحد فرد . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان[2] ألا هل بلغت ؟ . اللهم اشهد .

أيهـــا النـــاس ! إن لنسائـكم عليـكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، ولكم عليهن أن لايوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وإنما النساء عندكم عوان[3] لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده :

---

(١) النسيء : شهر المحرم .. كانوا يحرمونه عامًا ويحلونه عامًا آخر إن أرادوا الإغارة فيقولون إنه بعد شهر صفر .

(٢) فى رواية ابن هشام عن ابن اسحاق « ورجب مضر » وقد قال النبى ص ذلك كما ورد فى هامش « السيرة النبوية » لأن ربيعة كانت تحرم شهر رمضان وتسمية رجباء من وجبت الرجل ورجبته . إذا عظمته ، فبين عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعه .

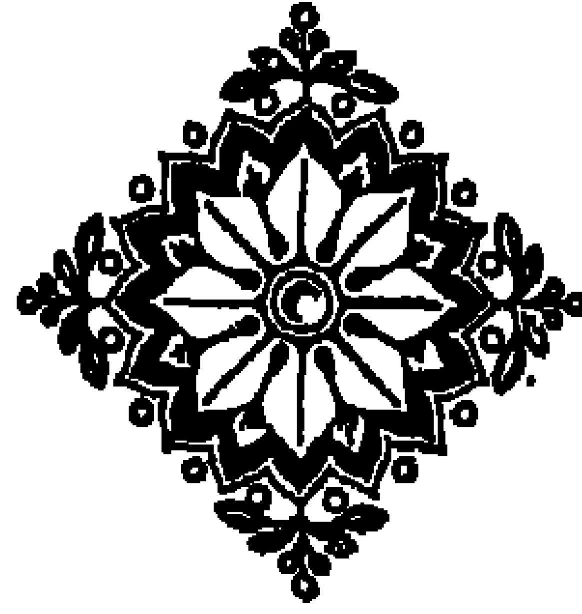
(٣) عوان : أسيرات أى عندكم بمنزلة الأسيرات

كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، قالوا : نعم، قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر[1] .

من أدّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنةٌ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2]



---

(١) للفراش : أى لصاحبه ، وللعاهر أى أن هذا مقضى به رغم أنفها

(٢) فى رواية ابن هشام جاء فى آخر الخطبة هذا النص :

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوا تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخية إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم ... اللهم هل بلغت ؟

ثانياً - غزوة الخندق بين شاعرين (حسان بن ثابت وعبد الله بن الزبعرى)

الشعر فى ظلال الإسلام قد أدى دوراً لا ينكر فى مسيرة الدعوة الإسلامية حين واكب الفتوحات الإسلامية ، ونافح شعراء الإسلام عن حياض الدعوة ، بكل ما أوتوا من فصاحة وقدرات بيانية ولغوية ، وبما استقر فى نفوسهم وقلوبهم من أضواء اليقين ، وإشراقات الإيمان .

ومواقف المصطفى ﷺ من شعراء الإسلام دفعت بهم إلى شحذ ملكاتهم وصقل مواهبهم ، والوقوف فى وجه أعداء الإسلام بالكلمة المؤمنة المشحونة بكل طاقات الانفعال الإيمانية التى تزلزل الجبال وتهز الرواسى .

فقد روى أن نابغة بنى جعدة أنشد النبى ﷺ هذا البيت :

بلغنا السما مجداً وجوداً وسؤدداً ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فقال النبى ﷺ : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة بك يا رسول الله قال : نعم إن شاء الله فلما أنشده :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له النبى ﷺ : لا فض الله فاك :

« ويروى أبو زيد محمد بن الخطاب القرشى أن بنى جعدة يزعمون أنه كان إذا سقطت له سنٌ نبتت مكانها أخرى ؛ وغيرهم يزعم أنه عاش ثلاثمائة عام ولم تسقط له سن حتى مات »[1] .

وغزوة الخندق من الغزوات الكبرى فى الإسلام التى تجلى فيها نصر الله لرسوله والذين معه من كتائب الإيمان .... من المهاجرين والأنصار ، وسورة الأحزاب تصور وقائع هذه الغزوة وأحداثها تصويرا دقيقا يجعل المؤمنين فى يقين دائم من نصر الله لهم .... وما أحوجنا فى هذا العصر إلى ذلك الوهج الإيمانى الذى يحيى موات القلوب ، ويوقظ ما خمد فى نفوسنا من ومضات اليقين ...... قال تعالى

---

(١) أنظر جمهرة أشعار العرب ص [٣٣]

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾

وفى هذه الغزوات حدثت عدة نقائض شعرية بين شعراء الإسلام وشعراء المشركين فى ذلك الوقت ، وقد أورد بعض هذه النقائض الشعرية د/حسن الكبير الأستاذ بجامعة أم القرى فى كتابه القيم « النقائض فى عهد البعثة المحمدية » جمع ودراسة وموازنة .[1]

ومن هذه النقائض ما دار بين عمرو بن ود ... وعلى بن أبى طالب . حين تحدى عمرو بن ود « المسلمين ونادى : أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها... أفلا تبرزون إلى رجلاً ؟ وقال أبياتاً يعلن بها ذلك التحـــدى ، ثم رد عليه على بن أبى طالب رداً قوليا وعمليـاً حيث رد عليه أبياته بأروع منها وأصدق ، وصرعه بعد مبارزة عنيدة قوية ، واستجاب الحق سبحانه لضراعة حبيبه ونبيه محمد ﷺ قائلاً وهو يشهد المبارزة بين الحق والباطل « اللهم إنك أخذت منى حمزة يوم أحد، وعبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم علىّ علياً ، ربِّ لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين[2] .

وقال « ضرار بن الخطاب بن مرداس « قصيدة فى الإشادة بجيش المشركين فى غزوة الخندق ، ورد عليه « كعب بن مالك » رداً مفحماً .

وبين « عبدالله بن الزبعرى السهمى » وبين « حسان بن ثابت » دارت مناقضة شعرية فى هذه الغزوة .. «وهى موضع هذه الدراسة » . فابن الزبعرى يمثل العصبة الجاهلية ، ويدافع عن أحزاب الشرك ، وحسان بن ثابت يدافع عن راية الإسلام ، ويشيد بنصر الله للمؤمنين المجاهدين الصابرين .

والنماذج الآتية تصور عنف هذه المعارك الشعرية فى ذلك العهد .

قال عبدالله بن الزبعرى السهمى يبكى قتلى بدر ، وتروى للأعشى بن زرارة بن النباس أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم . . حليف بنى نوفل بن عبد مناف وقيل حليف بنى عبد الدار كما قال ابن اسحاق .

يقول عبدالله بن الزبعرى[3] من قصيدة تتكون من سبعة أبيات :

---

(١) الكتاب يقع فى ٢٩٤ [مائتين وأربع وتسعين صفحة من القطع المتوسط ط١ ١٤.٥ ، - ١٩٨٤م القاهرة .

(٢) النقائض فى عهد البعثة المحمدية . د / حسن الكبير

(٣) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ المجلد الأول ت / محمد فهمى السرجانى

ماذا على بدر وماذا حوله	من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيّها خلفهم ومنبها	وابنى ربيعة خير خصم فئام[1]
والحارث الفياض يبرق وجهه	كالبدر جلى ليلة الإظلام ..

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

ابك .. بكت عيناك ثم تبادرت	بدم تعل غروبها سجام[2]
ماذا بكيت به الذين تتابعوا	هلاّ ذكرت مكارم الأقوام
وذكرت منا ماجداً ذا همة	سمح الخلائق صادق الإقدام
أعنى النبى أخا المكارم والندى	وأبر من يولى على الإقسام[3]
فلمثله .. ولمثل ما يدعو له	كان الممدّح ثم غير كهام

وقال « حسان » أيضا من قصيدة له على نفس الوزن والقافية فى الإشادة بأبطال غزوة بدر والسخرية من هزيمة المشركين .

طحنتهم ... والله ينفذ أمره	حرب يشب سعيرها بضرام
لولا الإله وجريها لتركنه	جزر السباع ودسنه بحوامى
من بين مأثور يشد وثاقه	صقر إذا لاقى الأسنة حامى
ومجدل لا يستجيب لدعوة	حتى تزول شوامخ الأعلام

وفى غزوة أحد يروى ابن هشام عن ابن اسحاق أن عبدالله بن الزبعرى قال فى يوم أحد من قصيدة تبلغ ١٦ ستة عشر بيتاً[4]

يا غراب البين أسمعت فقل	إنما تنطق شيئاً قد فعل
إن للخير وللشر مدًى	وكلا ذلك وجه وقبل
أبلغت حسان عنى آية	فقريض الشعر يشفى ذا الغلل
كم ترى بالجر من جمجمة	وأكف قد أترّت ورجل[5]
وسرابيل حسان سريت	عن كماة أهلكوا فى المنتزل

---

(١) فئام : الجماعات من الناس

(٢) تعل : مأخوذ من العلل وهو الشرب مرة بعد أخرى ، غروبها : مجارى الدمع

(٣) يولى : يحلف ، كهام : الضعيف .

(٤) أنظر « السيرة النبوية لابن هشام ج/٣ مجلد/٢ ص [٧٠- ٧١ - ٧٢]

(٥) أترت : قطعت

فأجابه حسان بن ثابت بقوله :

ذهبت يا بن الزبعرى وقعة كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحيانا دول
نضع الأسياف فى أكتافكم حيث نهوى عللا بعد نهل
إذ تولون على أعقابكم عربا فى الشعب أشباه الرسل[(١)]
إذ شددنا شدة صادقة فأجاناكم إلى سفح الجبل[(٢)]
بخناطيل كأمذاق الملا من يلاقوه من الناس يهل[(٣)]
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه وملأنا الفرط منا والرجل[(٤)]
برجال لستم أمثالهم أيدوا جبريل نصراً فنزل[(٥)]

***

قصيدة حسان بن ثابت

قال حسان بن ثابت : يرد على « عبد الله بن الزبعرى »

١- هل رسم دارسة المقام يباب متكلمٌ لمحاور بجواب
٢ - ولقد رأيت بها الحلول يزينهم بيض الوجوه ثواقب الأحساب
٣ - فدع الديار وذكر كل خريدة بيضاء آنسة الحديث كعاب

---

(١) الرسل : الإبل المرسلة وراء بعضها
(٢) فأجأناكم : ألجأناكم
(٣) الخناطيل : الجماعات من كل شيء
(٤) الفرط : سفح الجبل ، والرجل : المطمئن من الأرض
(٥) أى أيدوا بجبريل ؛

* هذا النص ورد فى شرح ديوان حسان ثابت ، وضعه وصححه « عبد الرحمن اليرقوقى - دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م

المفردات والتراكيب

١ - اليباب : الذى ليس فيه أحد ، المحاور : من يجادلك فى الكلام ويحاورك وبعد البيت الأول ورد فى السيرة النبوية لابن هشام هذا البيت

قفر عفارهم السحاب رسومه وهبوب كل مطلة مرباب

٢ - ثواقب الأحساب : أى أحسابهم نيرة مشرقة متوقدة ، والحسب ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه

٣ - الخريدة من النساء : البكر التى لم تمسس قط ، وقيل الحيية الطويلة السكوت ، والكعاب هى التى نهد ثديها .

٤ - واشك الهموم إلى الإله وما ترى من معشر متألبين غضاب
٥ - أمُّوا بغزوهم الرسول وألبسوا أهل القرى وبوادى الأعراب
٦ - جيش : عيينة وابن حرب فيهم متخمطين بحلبة الأحزاب
٧- حتى إذا وردوا والمدينة وارتجوا قتل النبى ومغنم الأسلاب
٨- وغدوا علينا قادرين بأيدهم ردوا بغيظهم على الأعقاب
٩- بهبوب معصفة تفرق جمعهم وجنود ربك سيد الأرباب
١٠- وكفى الإله المؤمنين قتالهم وأثابهم فى الأجر خير ثواب
١١ - من بعد ما قنطوا ففرج عنهم تنزيل نص مليكنا الوهاب
١٢ - وأقر عين محمد وصحابه وأذل كل مكذب مرتاب
١٣ - مستشعر للكفر دون ثيابه والكفر ليس بطاهر الأثواب
١٤ - علق الشقاء بقلبه فأرانه فى الكفر آخر هذه الأحقاب

---

٤ - متألبين : متجمعين

٥ - أموا : قصدوا ، ألبسوا : أى خلطوا وشبهوا . أى شككو اضعاف القلوب فى أمر الرسول علية السلام

٦ - عيينة : هو عينية بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى ، كان يقود غطفان فى غزوة الخندق ، وابن حرب هو أبو سفيان بن حرب وكان قائد قريش في غزوة الخندق ، متخمطين أى شداد الغضب ، حلبه : الخيل المعدة للسباق .

٧ - الأسلاب : جمع سلب وهو ما يأخذه أحد القرنين فى الحرب من قرنه

٨ - الأيد : القوه ١١ - قنطوا : يئسوا

١٣ - مستشعر للكفر : صفة أخرى لمكذب : ومن المجاز استشعر الخوف والهم ، والشعار فى اللغة ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب

١٤ - الرين : ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب .

قصيدة « عبدالله بن الزبعرى السهمى » يوم الخندق - رواها ابن هشام

١ - حى الديار محا معارف رسمها ... طول البلى وتراوح الأحقاب
٢ - فكأنما كتب اليهود رسومها ... إلا الكنيف ومعقد الأطناب
٣ - قفراً كأنك لم تكن تلهو بها ... فى نعمة بأوانس أتراب
٤ - فاترك تذكر ما مضى من عيشة ... ومحلة خلق المقام يباب
٥ - واذكر بلاء معاشر واشكرهم ... ساروا بأجمعهم من الأنصاب
٦ - أنصاف مكة عامدين ليثرب ... فى ذى غياطل جحفل جبجاب
٧ - يدع الحزون مناهجًا معلومة ... فى كل نشر ظاهر وشعاب
٨ - فيها الجياد شوازب مجنوبة ... قب البطون لواحق الأقراب
٩ - من كل سلهبة وأجرد سلهب ... كالسيِّد بادر غفلة الرقاب
١٠ - جيش : عينية قاصد بلوائه ... فيه وصخر قائد الأحزاب

المفردات والتركيب :

١ - ورد هذا البيت فى سيرة ابم هشام مصدراً بلفظ حتى

٢ - الكنيف : حظيرة الماشية ، المعقد : الوتد ، والأطناب : التى تشد بها الخيام ٣ - الأتراب : جمع ترب وهو المماثل فى السن وأكثر ما يستعمل فى المونث

٤ - يباب : ليس فيه أحد

٥ - الأنصاب : الأوثان

٦ - الغياطل : الأصوات ، جبجاب : كثير الأرض

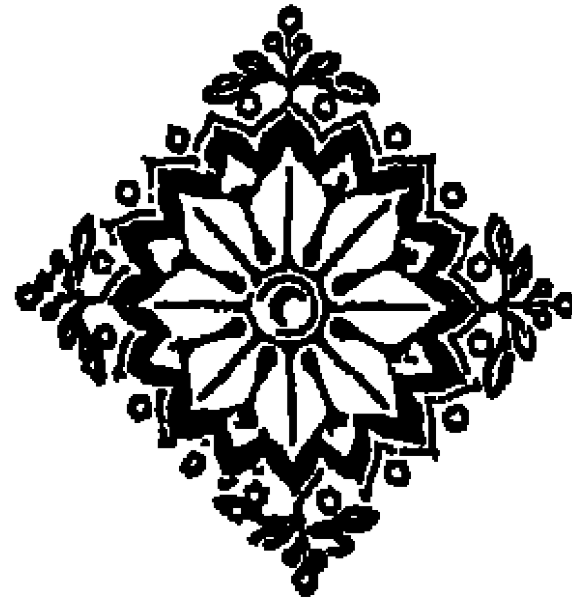
٧ - الحزون : مفردها حزن وهو ما غلظ من الأرض ، المناهج : الطرق الواضحة ، النشر : ما ارتفع من الأرض ، الشعاب ما أنخفض من الأرض

٨ - الشوازب والقب : معناهما : الضوامر ، الأقراب : الخواصر

٩ - السهلب : الطويل ، بعامة : وقيل هو الطويل من الخيل والناس ، ويقال : فرس سلهب وسلهبة للذكر إذا عظم وطال

١٠ - عينية وصخر : قائدا جيش الأحزاب

١١ - قرمان كالبدرين أصبح فيهما غيث الفقير ومعقل الهراب
١٢ - حتى إذا وردوا المدينة وارتدوا للموت كل مجرب قضاب
١٣ - شهراً وعشراً قاهرين محمداً وصحابه فى الحرب خير صحاب
١٤ - نادوا برحلتهم صبيحة قلتم كدنا نكون بها مع الخياب
١٥ - لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتلى لطير سُغَّبٍ وذئاب



---

١١ - قرمان : مثنى قرم وهو السيد ، ومعقل الهراب : الملجأ
١٢ - قضاب : قطاع ، ورد فى لسان العرب قوله : سيف قاضب وقضاب أى قطاع
١٣ - ....
١٤ - ....
١٥ - سغب أى جائعة

الموازنة بين القصيدتين

قصيدة « حسان بن ثابت » تبلغ أربعة عشر بيتا ، وقصيدة ابن الزبعرى تبلغ خمسة عشر بيتاً ؛ وقصيدة « حسان » جاءت رداً على ابن الزبعرى ... حيث نقض معانيه .. وأفكاره معنى معنى ، وفكرة فكرة[1] .

وفى رصد الرؤية الفكرية والجمالية لهذين النصين سأركز على قصيدة حسان ثم أوازن بينها وبين قصيدة ابن الزبعرى ... لأن مبتغانا هو الوصول إلى النص الإسلامى الفنى الفياض بالرؤية الإسلامية فكراً وفنا .

أولا : البناء الهيكلى والبعد الفكرى فى قصيدة « حسان بن ثابت »

القصيدة فى بنائها الشكلى لم تخرج عن الإطار التقليدى للقصيدة العربية فى العصر الجاهلى حيث تبدأ بوصف الأطلال ، وتذكر أهل الديار الدارسة بما فيهم من رجال أشداء بيض الوجوه ، ثواقب الأحسان ، وكذلك من فتيات ناعمات آسرات بيض كواعب .

يقول :

هل رسم دارسة المقام يباب　　متكلم لمحاور بجواب

ولقد رأيت بها الحلول يزينهم　　بيض الوجوه ثواقب الأحساب

وفى هذه المقدمة الطللية نرى الشاعر مازال أسير بعض التصورات الجاهلية مثل الافتخار بالحسب والنسب ، ولكن برغم ذلك نلمح ظلالاً إسلامية فى تقويمه للشخصية الإنسانية ، وذلك ما يوحى به وصفه للرجال بأنهم « ثواقب الأحسان » فالحسب الثاقب هو « النير المشرق المتوقد » ، أى ليس فيه ما يعيبه ، ولا يشينه ، وإنما هو صافٍ صفاء الضوء ؛ وكلمة « ثاقب » توحى بنفاذ ذلك الحسب وتحدى كل المعوقات، وتمزيق كل الاتهامات ووصفه للقوم بأنهم « بيض الوجوه » ليس وصفًا خارجيًا للون البشرة ، ولكن بياض الوجه يوحى بالمروءة والشرف والبعد عن المثالب ، كما جاء فى الحديث الشريف .

---

(١) أنظر نص قصيدة حسان فى ديوان « حسان بن ثابت الأنصارى » شرح عبد الرحمن البرقوقى .. دار الكتاب العربى - بيروت

وأنظر نص قصيدة ابن الزبعرى فى كتاب « النقائض فى عهد البعثة المحمدية د/ حسن الكبير والبداية والنهاية لابن كثير

« بيض الله وجهك كما بيضتنى » وفى القرآن الكريم يقول سبحانه فى سورة آل عمران ﴿ **وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾[1] .

وينتقل الشاعر إلى المحور الأساسى فى القصيدة رافضاً البكاء على الأطلال ورافضًا التعلق بالفتيات الكواعب ، وكأن ذلك عهد قد مضى أو تقليد فنى لا يساير البيئة الجديدة .

« فدع الديار وذكر كل خريدة بيضاء آنسة الحديث كعاب »

وينتقل الشاعر إلى رصد حركة جيش الأحزاب فى صورة شكوى مؤمنة إلى الحق سبحانه فيقول :

« واشك الهموم إلى الإله وما ترى من معشر متألبين غضاب »

ووراء كلمة « الهموم » إيحاءات كثيرة وتتفجر بانفعالات تجسم معاناة الشاعر وتصور شعوره الأسيان فى هذه اللحظات الحرجة ، حيث تكاتفت قوى الشرك من قريش وغطفان وبنى قريظة ، وتحزبوا ضد رسول الله ﷺ وأرادوا أن يهزموا المسلمين فى عقر دارهم : وقد وصف «حسان » هؤلاء الأحزاب بعدة صفات من شأنها أن تشكل صورة كريهة لهم وتجعلهم فى دائرة الرفض من كل من يدرك هذه الصفات أو يسمع بها أو يراها فهم « متألبون - غزاة - يريدون القضاء على الإسلام - يثيرون التشكيك فى نفوس الناس من أهل القرى وأهل الحضر - وهم ثائرون غاضبون لهم هياج وصراخ - متحزبون ضد رسول ﷺ » .

ثم ينتقل الشاعر فى أسلوب قصصى إلى تصوير عاقبة هؤلاء الأحزاب ... قائلاً :

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا قتل النبى ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم ردوا بغيظهم على الأعقاب

والتعبير بلفظ « حتى » يوحى بالحركة والسباق ، ولكن هذه الحركة الصاخبة المائجة ....تنتهى بالخيبة والفشل فيقول الشاعر « ردوا بغيظهم على الأعقاب ».

---

(١) سورة آل عمران الآية [١٠٧]

والتعبير بالفعل « ردوا » وبناؤه للمجهول ، يجسم لنا أن هزيمة المشركين جاءتهم من كل حدب وصوب ، فلم يعرفوا من أى الجهات تأتيهم النذر والهزائم .

وإذا كان المشركون يجهلون أسباب هزيمتهم فإن المسلمين يذكرون نعمة الله عليهم ويدركون أن الله وعدهم بالنصر المبين ، فأرسل على المشركين رياحًا عاصفة، وبعث الله عليهم صباً باردة كما يقول « الزمخشرى » :

« فى ليلة شاتية فأحصرتهم وسفت التراب فى وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها فى بعض ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، وكبرت الملائكة فى جنبات عسكرهم ، فقال طليحة بن خويلد الأسدى : أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء . النجاء ... فانهزموا وكفى الله المؤمنين شر القتال »[1] .

ثم ينتقل الشاعر إلى تصوير مشاعر النصر لدى المؤمنين وإحساسهم بالعزة والفخار بعد اليأس والقنوط ، .... وفى آخر النص يمزج الشاعر رؤى المشهدين . مشهد النصر . ومشهد الهزيمة فالمسلمون قرت عيونهم بالنصر ، والمشركون أذلهم الله فهزموا ومزقوا شر ممزق ، ومن خلال تصوير المشهدين المتضادين نعثر على حقيقة الصراع الدائر بين حزب الرحمن وحزب الشيطان ... وهو صراع لم يزل يشتد أواره بين الحين والآخر .... وقد أذل الله الكفار وأعز المؤمنين ... فإليه الأمر من قبل ومن بعد ، وبيده الحول والطول : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾[2]

وقد آثر الشاعر أن يختم قصيدته بالصور القاتمة التى ترسم صفات المنهزمين، و كأنه يضع مبررات هزيمتهم المتمثلة فى السلوكيات والأبعاد النفسية التالية (الكذب - الارتياب - الكفر المخالط للحم والدم - الشقاء الذى غطى على القلوب طيلة الدهر . وهو بهذه الخاتمة يجعل من هزيمة الأحزاب قصة تحكى إيلامًا لنفوسهم ...ورغبة فى إيقاظ عزائم المسلمين حتى يحافظوا على هذا النصر

---

(١) أنظر شرح ديوان « حسان بن ثابت الأنصارى » ص [٦٦]

(٢) سورة المنافقون آية [٨]

... ويجاهدوا أعداء الله حتى تتوالى الهزائم عليهم ، فلا تعلو لهم راية ولا يستقر لهم سلطان .

يقول حسان :

وأقـر عـين محـمد وصحـابه ... وأذل كـل مكـذب مرتـاب
مستشـعر للكفـر دون ثيـابه ... والكفـر ليس بطاهر الأثواب
علقِ الشـقـاء بقلبـه فأرانـه ... فى الكفـر آخر هذه الأحقاب

ثانيا : ظواهر فنية وأسلوبية :

أ - الاستفهام في البيت الأول يجسد حيرة الشاعر وصراعه النفسى بين عهدين .... وقد يكون هذا الأستفهام إنكاراً من الشاعر لذلك العهد القديم أو اعتراضًا على صوره القائمة ، ومقاييسه الفاسدة ، ومعاييره الفنية المرفوضة من البيئة الجديدة .

ب - الحنين إلى ماضى هذه الديار المتمثل فى جانبه المشرق ... حيث الرجال الكرام ، ثواقب الأحساب .... يشكله أسلوب الشاعر واستعمالاته اللغوية فى قوله « ولقد رأيت بها الحلول يزينهم » فالـواو تشعر بالقـسم ، واللام للتأكيـد ، وقد للتحقيـق ، ولفـظ « الحلول » يوحى بالحل والإقامة ، ولا يخفى - كما أوضحت سابقاً - ما فى وصفه لهم « بيض الوجوه » « ثواقب الأحساب » من إيحاءات مشرقة .

ج - التمسك بالواقع الإسلامى الجديد ، والحرص على معالم البيئة الجديدة يفصح عنه تعامل الشاعر مع الزمن اللغوى .... ومع الدلالة اللغوية لهذا الزمن ، ويتضح هذا التعامل فى اتكاء الشاعر على استقبالية الزمن فى الفعل « دع » فى قوله : فدع الديار ، وهذا الترك موصول بارتباط أكثر أمانا بزمن جديد إنه زمن الإيمان ، والدعاء الصاعد من واقع الشاعر إلى ربه مع دلالة ذلك الدعاء المتمثل فى الشكوى . والذى صورته الصياغة الزمنية للفعل « واشك » هذا الدعاء ... يعطى ثمرة التحول فى حياة الشاعر فقد أصبح يستمد قوته وعزته من الحق سبحانه وتعالى ، وليس من القبيلة أو العشيرة .

د - تخصيص الرسول بالغزو فى قوله « أموا بغزوهم الرسول » فيه إثارة

لمشاعر المسلمين ورسم صورة قبيحة للغزاة تتناقلها الأجيال وترويها الأزمان ، لأنهم لم يكونوا يقصدون سوى القضاء على محمد عليه السلام . وكان جزاؤهم الخسران المبين .

هـ - تحديد الشخصيات ووصفهم مثل « عينية بن حصن ، وأبى سفيان بن حرب » يحدد موقف حسان من زعماء الغزاة فهم قوة لا يستهان بها ، ومن هنا يجب الوقوف أمامهم بكل بأس وقسوة ، ولفظ « متخمطين » فى قوله « متخمطين بحلبة الأحزاب » يرسم بالكلمة والوظيفة النحوية حال هؤلاء الغزاة . فهم فى كل لحظاتهم هائجون ... صارخون .. غاضبون ... متحزبون ضد الرسول وأصحابه ، والتعبير « بحتى » كما قلت يوحى بالغائية والسفر وانتظار الغنائم والفعل « وردوا » فى قوله « حتى إذا وردوا المدينة » يصور ما فى نفوس الغزاة من ظمإ لدماء المسلمين ، فالورد فى الأصل اللغوى هو الذهاب للسقيا من آبار المياة - فهم يردون المدينة ليطفئوا ظمأهم من دماء المسلمين !!! وقد صرح « حسان » بذلك فى الشطر الثانى فأوضح أن مقصدهم كان قتل النبى وإحراز الغنائم !!!

و - التأثر بالبيان القرآنى العظيم وتأصيل المعجم الشعرى الإسلامى .... وحين نتأمل شعر حسان نرى معجمه الشعرى يمثل المعجم الإسلامى أصدق تمثيل ... ففى هذه القصيدة نرى الشاعر يقتبس كثيراً من الألفاظ والمعانى القرآنية ، وتصويره لهزيمة الأحزاب مقتبس من سورة الأحزاب ، ولنتأمل هذه التعابير لندرك عمق التأثر بالقرآن الكريم أسلوبا ومعنى .

« واشك الهموم إلى الإله - حى إذا وردوا المدينة - ردوا بغيظهم على الأعقاب » والأبيات التالية اقتباس من الذكر الحكيم ...

بهبوب معصفة تفرق جمعهم ... وجنود ربك سيد الأرباب
وكفى الإله المؤمنين قتالهم ... وأثابهم فى الأجر خير ثواب
من بعد ما قنطوا ففرج عنهم ... تنزيل نص مليكنا الوهاب

والشاعر برغم تأثره بالبيان القرآنى السامق لم يستطع أن يرصد أبعاد الانتصار وثماره وكذلك لم يتأمل دلالات الهزيمة وآثارها ... وإنما سيطر عليه الانفعال ،

وشغل بالرد على ابن الزبعرى رداً عفوياً سريعاً نأى به عن تأمل الموقف بكل أبعاده وآفاقه .

ز - والقصيدة تخلو من الصور الشعرية الجزئية .. ولا يطغى عليها الخيال البدوى وما فى البيئة من معالم ومشاهد ، ولم يسهب الشاعر فى الوصف ، ولم يستغرقه التأمل فى الحدث ، وإنما جاءت قصيدته - كما قلت - رصداً مباشراً لما حدث من تطورات فى غزوة الخندق بدافع الإيمان والخوف على مستقبل الجماعة المسلمة أما الصنعة الفنية المتقنة فلم تكن غرض الشاعر أو غايته ، وبرغم عدم تصنعه فإننا نرى أن صدق التجربة عنده أكسب الألفاظ والتعابير طاقات إيحائية تفسر المواقف ... وتتفتح عن آفاق من المعانى والصور الدالة ، وتلك سمة الفطرة الشعرية الخالصة .

ثالثا : الموازنة بين قصيدة حسان وقصيدة ابن الزبعرى « رؤية وفنا » .

أ - القصيدتان قيلتا فى غزوة الخندق ، ولكن الرؤية الشعرية فى كل منهما تصادم الأخرى فقصيدة « حسان » تنطلق من رؤية إيمانية تدافع عن عقيدة الإسلام وجيش المسلمين وقصيدة « ابن الزبعرى » تنطلق من رؤية وثنية مشركة تدافع عن مقومات الحياة الجاهلية وعن عقائد الجاهليين

ب - البداية فى القصيدتين متفقة فنيا حيث الوقوف على الأطلال وتذكر الأهل والأحباب ولكن بداية حسان الاستفهامية توحى بتشككه فى هذه الوسيلة الفنية ، وكذلك توحى بتشككه فى زمن هذه الديار الذى ولى وأدبر ، وكذلك قال: فدع الديار وذكر كل خريدة أما بداية ابن الزبعرى فتنبىء عن حبه لهذه الأطلال زمانًا وأناسًا ، ولذلك يبدأ بقوله « حى الديار محا معارف رسمها طول البلى وتراوح الأحقاب » وحينما ينتقل إلى الغرض الأصلى يقول « فاترك تذكرما مضى من عيشة » ولم يقل كما قال حسان « فدع الديار » ولذلك كان الانتقال

---

* بعد فتح مكة أسلم ابن الزبعرى وحسن إسلامه وقال شعراً يعتذر فيه إلى رسول الله ﷺ عما بدر منه فى عهد الضلال . وكذلك أسلم « ضرار بن الخطاب بعد فتح مكة .

الى الغرض الأصلى لدى الشاعرين متفقًا فى الوسيلة مختلفاً فى الرؤية، فحسان يجعل الأطلال فى دائرة الترك والرفض وابن الزبعرى يجعلها فى دائرة التذكر والحنين .

ج - تفوق ابن الزبرى فنياً على حسان فى وصفه لجيش الأحزاب ، بينما لم يصف حسان جيش المسلمين واكتفى بالشكوى إلى الإله ووصف عتو المشركين وطغيانهم ، ولا ضير على حسان فى ذلك فجيش المسلمين كان محاصراً بالمدينة « وزلزل المؤمنون زلزالا شديداً وكان نصر الله لعباده المؤمنين ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً .. وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾[1] .

د - تصوير « حسان » لنتيجة المعركة كان أكثر إيحاء . وأصدق احساساً بنعمة النصر ، ونشوة التفوق من تصوير ابن الزبعرى ، حيث لم يذكر الأخير من نتيجة المعركة شيئًا سوى ما يوحى بالحسرة والاحساس بلذع الهزيمة .. حيث يقول فى أسى « لولا الخنادق لجعلنا المسلمين طعامًا للطيور والذئاب ، وأداة الشرط لولا ... ودلالتها اللغوية تؤكد الإحساس بمرارة الهزيمة وفشل النهاية .

و - معجم البيئة البدوية وصورها يسيطر على نص «ابن الزبعرى» فالبداية طللية . ووصفه لمسيرة جيش الأحزاب مصبوغ بالصيغة البدوية لفظا وصورة ومعنى وخيالا ، ورؤيته وثنية .

يقول ابن الزبعرى ......

واذكر بلاء معاشر واشكرهمو	ساروا بأجمعهم من الأنصاب
أنصاب مكة عامدين ليثرب	فى ذى غياطل جحفل جبجاب
يدع الحزون مناهجاً معلومة	فى كل نشر ظاهر وشعاب

أما معجم حسان الشعرى فهو مزيج من موحيات البيئة البدوية وموحيات الجو الإسلامى ، وينفرد حسان عن ابن الزبعرى » فى هذا النص بتأثره بالبيان القرآنى الكريم ، ورؤيته الشعرية الإسلامية .

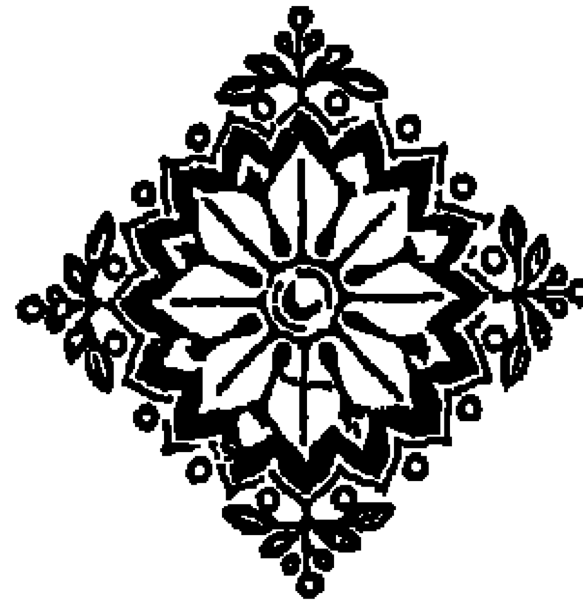
---

(١) سورة الأحزاب الآية [٢٥]

وبعد ....

فقد نصر الله جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً.

....ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .



ثالثاً - ابعاد التجربة الإسلامية فى شعر السنهوتى *

(أ) الرؤية

الشاعر « محمد السنهوتى » متعدد الاتجاهات فهو قد قضى فترة طويلة من حياته معلماً مربياً للنشىء . وهو خطيب تنفذ كلماته إلى القلوب قبل الآذان ، وهو شاعر يتجه فى شاعريته إلى النماذج القوية فى شعرنا العربى ويحاول أن يقترب منها ويعيش فى عالمها ، وله خطراته الصوفية ، وسبحاته الوجدانية ، ورؤاه التى تنم عن شفافية الحس ، وصفاء العاطفة ، وشعره متعدد الاتجاهات فمنه الذاتى .. والاجتماعى ... والوطنى.... والدينى..... والتأملى .

وشاعرنا « محمد السنهوتى » انطلق من الإيمان بعقيدة الإسلام ، فهى حجر الأساس فى التكوين الإنسانى ، ومن ثم أصبحت هذه القضية منبع روافده الشعرية أو مصبها ، فهو إما أن يبدأ منها ، وإما إن يعود إليها إذا ضل البداية، إنه يتحرك فى قلب هذه الدائرة ، فالشاعر اقتصر بشاعريته أو اقتصرت هى به على هذا الجانب ، وليس ذلك بعيب فى حد ذاته ، ولكن العيب يكمن فى الأسوار التى تحول بين الشاعر وبين اكتشاف آفاق جديدة ، أو أبعاد غير مرئية تثرى التجربة ، وتفسح لها الآماد لعطاء أكثر خصوبة وأعم تنوعًا رؤية وأداءً .

وقضية الإسلام متصلة بتكوين الشاعر ومزاجه وطموحه فى الحياة ، ومفتاح هذه القضية نعثر عليه فى قصيدته « إنسان » فهذه القصيدة تمثل خير تمثيل « هوية الشاعر » ورحلته فى البحث عن ظله المفقود عن إلفه الضائع عن الغريب الذى ينتظر عودته ، ... ويمكن أن تدرج هذه القصيدة فى الاتجاه الاجتماعى فى شعره .

تُرى هل النماذج الإنسانية التى يبحث عنها يفتقدها مجتمعه ، وأظن ذلك داخلا فى دائرة اليقين لأن الشاعر يكرر فى هذه القصيدة التى جاءت فى هيكل

---

* من شعراء مصر المعاصرين ومن مواليد محافظة الشرقية عام ١٩٠٩م وله عدة دواوين مخطوطة وقد شارك بشعره فى المهرجانات والمؤتمرات الثقافية . وشعرة ملتزم بالمنهج الإسلامى .

« المقطوعات » يكرر فى نهاية كل مقطوعة « إنسان يا من يعلمه ؟ أنا أبحث عن معنى الإنسان !! » وفى أول كل بيت يكرر كلمة « إنسان » بصيغة النكرة المضافة للمعرفة أحياناً إيحاء بالأمل فى العثور على هذا النموذج الإنسانى.

وفى آخر المقدمة يقول « الإنسان » معرفًا دلالة على تحديد هوية هذا النموذج.

إنســان يرجــى مقدمــه   إن شام ضعيفــاً يرحمــه
إنســان يــا من يعلمــه   أنا أبحـث عن معنـى الإنسان

ومن هنا أثقلت الشاعر الغربة فناء بها فاتجه إلى الله ، ومن هنا وجد أمنه وخلاصه أو أن هذا الهروب إلى الله ، كان ثمرة تجربته الفاشلة مع الإنسان المزيف الذى يرتطم بالأرض وهو مثقل بغرائز الطين ، فاتجه الشاعر إلى الله ينشد المثالية الإنسانية ولكن لم يعثر عليها بعد !!!

إن الإنسان الذى يطلبه الشاعر يشكل ملامحه تشكيلاً إيمانياً إسلامياً إنسانياً تجعل الشاعر مثالياً فى تفكيره . مصطدمًا بالواقع المريض ، ولذلك مازال يبحث عن هذا الإنسان

إنســـان الغضبــة للعــــانى المغلـــوب
إنســـان النـــور يفيـــض على وجه المكروب
إنســـان لا يطغيـــه شـروق أو يخـزيه غروب
إنســـان البسـمة نبـع الرحمــة والإحســـان
إنســـان من يعلمه .. أنا أبحث عن معنى الإنسان
إنســـان فى حجـم الإنســـان وعزم البحر الموار
فى بأس الشمس وطهر الضوء ترقرق فى المـاء الجارى
إنســـان فى عين الدنيـــا يرتـــاح له الســـارى
إنسان أنى كان وحيث يكون يفيض نداه على الأكوان
إنســـان يا مـن يعلمــه أنـا أبحـث عـن الإنسـان(١)

ومن منطلق الإيمان بالله توهجت كل أشعة الشاعر الفنية وتضوأت اتجاهاته الشعرية فهو فى تجاربه الوطنية يقول « يارب ساعد بلادى » ويدعو الله فى نهاية قصائده أن يحقق النصر ويحلل أسباب الهزيمة وأسباب النصر ويردها إلى البعد عن الله أو القرب منه(٢)

---

(١) قصيدة إنسان « محمد السنهوتى » من ديوانه المخطوط
(٢) ص [٤] ديوان السنهوتي «مخطوط»

ويتعمق هذا التيار أيضا فى تجاربه الاجتماعية والذاتية والتأملية والوطنية والدينية .

ففى قصيدة « نداء الفجر » يقول

هذه الدنيـــا كفـــاح
بســـواه تصبـــح الدنيـا ملالاً
وتصفينـــا الريـــاح
إن بعـدنا عن حمى الله تعالى
فاحملـوا كل ســـلاح
وتعالوا نملأ الدنيا صياحـاً
يا شباب العـرب هيا يا شباب
ارفعوا النصر على نور الكتـاب
إن نـــور الله عـــز وتقى
ومع الغفلـــة ذل وعـــذاب

وفى قصيدة « العيد لى » تتضح فلسفة الشاعر الإنسانية لكنها لا تخرج عن الشعور بسلطان الله يقول :

العيـد لى مـادام يحيـاه ويبصـره الضرير
والخبـز لى مادام مبذولاً لإطـعام الفقيـــر
والنصر لى مادام يرفـق بالجريـح وبالأسير
والحـق لى مادام يرعـاه ويحرســه الضميـر
والظـل لى ما إن تفيـأه ضعيـف يستجير
والعيـد لى ، ومصانع الإيمـان تبدع كل عيـد
والمجد مجدى خالداً يسعى الطريف إلى التليد
ماضر لو سـرنا مسير النجم فى الأفـق البعيـد
ماضر لو عشنا حياة النحل فى الطلع النضيد
وأخـذت سمتـك لم تمل وأخـذت حقى لا أزيـد
والله قد قسـم الحظـوظ فلن تقسـم من جديـد

وفي قصيدة « عودة الأفراح » ويهديها إلى الفلاح فى عيده السعيد يقول :

هـاك يا فـلاح أفـراح المنى | عشت عمر الصبر عش عمر الهنا
إنه عيـدك يـا من فأسـه | مست الأرض فشبت أغصنـا
إنـه اللحن الـذى عشنـا لـه | وانتظرنـاه بشـوق زمنـا
كـم دعونا اللـه من أعماقنـا | أن يـرى النصر على أيامنـا
وحمـدنا اللـه أن رد إلى | يـدك الحـق فحققت المنى

وفي قصيدة « أسألوه أن يعود » يبكى على شباب قلبه الذى هام فى سحر الورود وسحر النهود ومضى يسأل عن ظبى شرود ، وعن رشيقات الخدود فهن

خدعـوه بوعـود ومنى | والغـوانى ما يوفـين العهـود

ثم يقول مؤنبا قلبه :

لسـت أدرى . لم لا يسمع لى | لم لا يجزى صـدوداً بصـدود
إن قلبـى شاحب مثل السـنـا | فاسألـوا بالله قلـبى أن يعود

فبؤرة التجارب السابقة تركز على قضية الإيمان بالله ، وكان بإمكان الشاعر أن يثرى هذه التجارب ويربطها ربطاً فنيا بالرؤية الإيمانية أعمق من ذلك لو ابتعد عن الرؤية المباشرة وتعامل مع التاريخ الإسلامى ، والتراث العربى ، أو لجأ إلى الرؤى الرمزيه فى بعض تجاربه أو التقط من حياة الرسول اللحظات التى يرى فيها نفسه، وأمانه ، أو خوفه ، أو تمرده فنبرة الشاعر العالية فى كثير من الأحيان تقلل من كثافة التجربة وشمولية الرؤية ولنأخذ مثالاً واحداً على ذلك يقول الشاعر في قصيدة « حديث مع الربيع » وهى فى ذكر المولد النبوى الشريف يقول :

يا هـذه الدنيـا اسمعى وتجمعى | هـذا لـواء محمـد فتسلمى
وامضى بعـزم مضـائه واقضى | بعـدل قضائه ، وهذى الكتاب المحكم
ضمى وجـنـودك تحتـه ، صفى | جنودك حوله ، إن شئت أن تتقدمى
واستمسكى بسبيلـه إن شئت ألا | تخـطئى ، أو رمـت ألا تأثمى

فهذه الأبيات الأربعة ورد فعل الأمر فيها ثمانى مرات وأعتقد أن العقيدة ليست أمراً بل لبها الإقناع والاقتناع ، بعد عرضها عرضًا فنياً لا يجور على

التجربة الشعرية .

والحب الأول والأخير عند الشاعر هو « حب الله » سبحانه وتعالى . والشاعر يكاد يكون منفرداً في هذا الاتجاه وبخاصة في واقعنا الهارب دائما من لحظة الإيمان.

ومقومات هذا الحب تتضح فى ملامح متعددة ، وربط الشاعر نفسه بخالقه من خلالها . وهذه الملامح تختلط ببعض معتقدات الصوفيين أحياناً ، وفى أحيان أخري نراها وعظاً مباشراً وأحياناً تكون وسيلة لرفض القيم الاجتماعية المريضة ، وأحياناً تمتزج بالإحساس الوطنى والشعور القومى .

فالشاعرلا يشعر بشيء سوى الله ، والله سر السعادة والتآلف مع الزمن ، وفى قصيدة « أنت الحبيب » يصرح الشاعر بهذا وهو يكاد يقترب من فكرة المتصوفين القائلة بالفناء المطلق فى الذات الكلية .

يقول الشاعر :

عرفت فيك زمـــانى كيف أحيـــاه وكيف أرضيه عن نفسى وأرضاه
لا كنت إن كان شيء عنك يشغلنى أو كنت أرجو سوى ربى وأخشاه

فالتجربة الإيمانية هنا تكتسب بعداً أمنيا حيث القلق يرحل عن عالم الشاعر وينعم بالاطمئنان فى كنف الله عز وجل . ويقتحم العثرات ويتآلف مع الأحداث .

وهذا الاطمئنان الروحى تكون من معتقد الشاعر فى ربه فهو يداوى النفوس ويعفو عن المعاصى ، وفلسفة العفو هنا عند الشاعر لها ثمرتها، فالإنسان لا يظل طريد القلق من جراء الإثم ، ولكن عفو الله يطارد هذا القلق ويزرع اليقين فى وجدان الشاعر . والعفو لا يلغى العقوبة لمن أصر على مخالفة المنهج ، وللشاعر قصائد كثيرة تنحو هذا المنحنى وأخص قصيدتين هما « جميلك عندى ، وإليك الأمر » .

يقول :

جميـلك عندى يا إلهى وسيـدى ومالى ما أرجو لديـك فأفـــــرح

ويبقى رجائى منك فضلاً ورحمة   وأنك تعفـو عن كثير وتصفـح

ويتعمق حس الشاعر تجاه ربه وتجاه مجتمعه وسلوك الناس من حوله فيقول فى قصيدة « إليك الأمر »

إليك الأمـر لا تـدرى وتـدرى   وتمهل لا تعاجل من عصاكا
وحاشـا أن أضـام وأنت ربـى   تعيد اللاجئـين إلى حمـاكا
وأركض في هوى نفسى فأشقى   وأحرم من نعيمى فى هواكا

والبيت الأخير « وأركض .. الخ » يتفتح عن شعور مكثف ، ويكشف عن معاناة ومجاهدة فى سبيل الوصول إلى منطقة الأمان ، فى حمى الله سبحانه ، والبيت برغم هذا يحتاج إلى إيضاح أكثر وفى رأيى يمكن أن يصاغ بهذا الشكل :

وأركض فى هوى نفسى فأشقى   وأنعم إذ أعذب فى هواكا !!.

والله يرعانا أجنة وأحياء وأمواتًا ويوم القيامة ، وهذا المفهوم شائع ومعتقد عام.

وفى قصيدة « يا حب » صرح الشاعر بهذا فى صورة تقريرية مباشرة قائلاً :

من كان يرعـانـا ونحن أجنـة   هل للجنـين هنـاك إلا ربـه
وإذا رحلنـا هل لنا من مرفإ   نرجـو النجـاة لـديه إلا حبه

وقصيدة «الحب في عيد القمر» تنضح بهذا الشعور الديني برغم ما فيها من غزل حسي ، والغزل الحسي لم يكن واقعاً بل أمنية مستقبلية تجسدت في أفعال الأمر.

(والله موجود ، وصنعته دليل وجوده ،) وقد أجاد الشاعر في رصد هذا البعد من أبعاد التجربة الإيمانية . فأشرك الطبيعة ترد معه علّى الملحدين وتناقش معه أفكارهم والآيات الكونية أدلة مجسدة على قدرته ووجوده .

والقصائد التالية تفصح عن هذه المعانى (يا مبدع الفجر ، يا خالق الليل ، يا صانع الورد ، موجود بلا حدود ، شهود من ورود ، لله حبى، يا صاحب الفضل ، خلق بلا عقل ، يا هادى النجم ، رأيت الله ، يا خالق الإنسان).

يقول :

يا صانع الورد كم صورت من طين   وأنت تبدع فى رسم وتلوين
معطر بأريج راح ينشره   مع النسائم من حين إلى حين
شتى طعوم وألوان وألف شذى   طبعتها يا جميل الصنع من طين
ويدعى البعض علماً لست تعرفه   ويكفرون فهم حرب على الدين

وفى قصيدة « لله حبى »

يناقش الشاعر الملحدين وقد استطاع الشاعر أن ينأى عن الذهنية التى تصيب التجربة بالجفاف فى كثير من الأحيان . وذلك حين لجأ إلى الحوار الشعرى واستخدم فى البيت الواحد الادعاء والرد عليه ، ولم يرد عليهم رداً مباشراً بل أحالهم على الكائنات فهى أسماء الله الحسنى كما عبر فى إحدى قصائده وقد أجاد فى ذلك أيما إجادة ، واستخدم مع المناوئين والمنكرين لوجود الله ، أسلوب الحكيم وهى الإجابات غير المتوقعة لكنها مقنعة ، ولم يفقد الشاعر شاعريته وهو يناقش مثل هذه القضية البالغة الخطورة .

قالوا : أتعرفه ؟ صفه ، فقلت لهم   سلوا المحيط أتدرى قطرة ما هو
قالوا : فأنى نراه ؟ قلت : واعجباً   وأين كان ولا موجود إلاه
قالوا : فهل من دليل ؟ قلت صنعته   دلت عليه كما دلت عطاياه
الأرض والبحر والأفلاك دائرة   الكل يهتف جل الخالق الله

والشاعر « محمد السنهوتى » يؤمن بأن العزة فى حمى الله والذلة فى البعد عنه وقصائده « كيف يضام ، وغنيت بالله ، والقريب البعيد ، وحابس الضوارى » تنطق بهذا الملمح من ملامح التجربة الإيمانية عند الشاعر .

يقول من قصيدة « القريب البعيد » :

يا من تحجب بالسنا   وإليه تتجه المنى
بالباب عبد خائف   لم يلق دونك مأمنا
يا من بك استغنيت   عن أهلى وعن كل الانا

ومن قصيدة « حابس الضوارى » يقول فى شفافية آسرة ، وصدق فنى رهيف :

يا من به قام الوجود   ونوره فى الكون سارى

زينــــت كونك للـــورى ونشرت فى الأفـــق الدرارى
حاشـا أراع وأنـــت لى حاشـــا أضـــام وأنت جارى
عوذتنى بك أن تعذبنى بنــــــارك أو بنـــــارى

وفى قصيدة « ظمآن لا يرتوى بماء » يؤمن الشاعر بتفرد الله فى الصفات .

وفى قصيدة « أفق المعرفة » يؤكد الشاعر أن القرآن مصدر المعرفة وذكر الله عطر أنفاسه .

والتوبة تجربة إيمانية صادقة وقد خاضها الشاعر ، وعبر عن ذلك فى قصيدته « من أجل حبك » ، وقصيدته « عودة قلب » .

والشاعر فى ذروة الصدق حين يعبر عن هذه التجربة . فهى تجربة ذاتية نابعة من أغوار شعوره وليست تجربة تقليدية برغم أنها قاسم مشترك بين كل القلوب المتفتحة على الدرب السوى .

وفى رحلة العودة إلى الله يقدم الشاعر صفات الله التى تتواءم مع جو التوبة والعفو فالله حبيب يملأ الكون حباً وهياماً ، وجميل يلبس الدنيا جمالاً وابتساماً، والله رحيم يكتب الأحكام عدلاً لا انتقاماً .

وبعد هذه النداءات يا حبًا - يا جميلاً - يا رحيماً .....يحس الشاعر أنه أشرف على باب المليك محصنًا بالحب ، والجمال والعدل ، فيعرض مشاهد قضيته .

كنت قد صافيتنى يومًا وليت الصفو داما
ساعةٌ مرت أمامى فاحتوت عقلى سحابة
وانطوى ليل على عينى فغشتنى كآبــة
يا حبيبى إن قلبى قد نجـا مما أصـــابـه
عاد للحــب الذى كان يــدق اليــوم بابــه
عاد فاقبـله وكفكف دمعـه واسمـع نـداهُ
خطـوه لحن خجـول يعـرف الكون صداهُ
هاتـف باسمـك يا من ذكـره سرٌ عــلاه
عاد فـاجمع شمـله واقبـله يا كـل منـاه

وقصيدة « المحو إثبات » وهى مكونة من بيتين ، فقط لكنها تحمل شحنة هائلة من الحس الدينى ، وفيها المفارقة الموضوعية واللغوية ، مما ينبىء عن معاناة الشاعر والمجاهدة فى سبيل الترقى والتسامى الروحى .

يقول :

السابحـون ببحر النور آهـات   لم يشعروا هل هم الأحياء أم ماتوا
الحب يأخذ لا يبقى على دنف   شرع الهوى فيه محو الصب إثبات

وكل ألفاظ البيتين من نسيج البناء الفنى للتجارب الروحية ، مما يجعل شاعرنا فى طموح دائم إلى الاقتراب من السر ، ومحاولة الكشف الدائبة ، والحرص على معرفة السر الكائن !!!

(ب) الطبيعة ودورها فى إثراء تجربة الشاعر :

للطبيعة دور فى إثراء التجربة عند شاعرنا وفى مقدمتها الطبيعة الزمانية فالفجر، والصباح ، والليل ، تمثل هذه الثلاثية شريط الزمن المتصل ، وقد ربط الشاعر هذه الظواهر الطبيعية بقضية الإيمان ،فالفجر بداية الانطلاق وهو صحوة الكون .

يا مبـدع الفجـر أفـراحًا تجليهـا   تغـدو فتسبح أرواح الـورى فيهـا

والفجر عند الشاعر يأخذ بعداً قومياً ، وأعتقد أن بعده الإيمانى أعم وأشمل .

أذن الفجـر فقومـى نتـملـى   دفقة النـور على هـام الظـلام
ونرى موكـب أفـراح تجـلى   هاتفاً يسـعى على درب السـلام

والليل مرتبط بالأسرار والأشواق والأرواح والنجوم ، وهو تصور إيمانى لليل ، والشاعر فى هذا التصور فيه استيحاء لقوله تعالى : **﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقامًا محموداً ﴾** .

والليل عندما يقترن بالصباح يأخذ بعداً مخالفًا للبعد السابق فهو رمز الضيق، والصباح رمز الفرج ، والصباح صحوة القلب من الغفلة ، وبداية رحلة العودة إلى الله فالليل هنا مرادف للإثم ، والصباح مرادف للطاعة . يقول الشاعر :

يا رب سامحني فأنت الله أهل للسماحْ
إني جهلت وكل ليل في نهايته صباح

وكذلك تصبح الشمس عند الشاعر معادلاً موضوعيا للإيمان ، والليل معادلاً موضوعياً للهزيمة والبعد عن الله ، فالفجر والصباح والشمس كلها تتلاقى وتتجمع لتكون نسيج بعد واحد ، هوالأمل والفرح من الله والانتصار على النفس .

والماء سر الحياة والشاعر يقر بذلك لكن الماء في غياب التصور الإيماني لا يبل غليل الشاعر.

يا من خلقت الماء يحيى أنفسا ويهيج دلَّ زروعنا لتميلا
إني ظمئت وما بشيء أرتوى الماء دونك لا يبل غليلاً

والماء في غياب التصور الإيماني يمكن أن يصبح أجاجًا يشوى الوجوه ويصهر الأمعاء . ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء لجعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾[1].

وانسجام الظواهر الكونية دليل على قدرة الله ويتخذ الشاعر من الطبيعة وسيلة للوصول إلى عفو الله وحبه

بغير نداك لا يحيا فؤادى فبر الأرض من فيض السحاب

والطين أصل الحياة حتى الورد وفى ذلك نظرة من الشاعر إلى ضرورة تساوى الناس فى الحقوق والواجبات . وهو يلتقى مع النهج الإسلامى أو يلتقى مع شوقى حين يقول :

لا يقولن : أحد أصلى فما أصله مسك وأصل الناس طين

ومن الطين ينطلق الشاعر ليعمق قضية المساواة بين البشر ، وفى قصيدته « الغنى والفقير » يتجلى هذا البعد بصورة واضحة ، والقصيدة تتلاقى مع قصيدة الطين » لإيليا أبى ماضى ، لكن السنهوتى يهاجم الفقير ويهاجم الغنى وأبا ماضى يجعل المتحدث الفقير مهاجمًا الغنى المتكبر .....يقول السنهوتى :

---

(١) سورة الواقعة

لك ملك الحياة لو كنت تدرى عش قوى الجنان طلق العنان
هذه الفأس لو تأملت فيها راية النصر أو عصا الصولجان
إن تكن غنت الغنىُّ الغوانى فلك الطير أبدعت فى الأغانى
ومن النهر نشرب الماء عبا وهو يسقى بالكأس أو بالدنان
ولك الزهر فى البساتين غضا وله الزهر ذابلاً فى القنانى
ويكفيك كل شىء حياة والذى فى يديه لاشك فان
فلماذا تنام فى الشوك والكو ن ملىء بالورود والريحان
إنما أنت قوة فى يد الديا ن تبنى روائع البنيان

(ج)١ - المعجم الشعرى :

وحين نطالع قصائد الشاعر مجتمعة نجده يركز على مفردات الطبيعة مرتبطة بتجربتة الإيمانية . ولا شك أنك ستعثر على مثل هذه الألفاظ فى معظم قصائد الشاعر وقد وردت في قصيدة « يا مبدع الفجر» هذه الألفاظ (الفجر - تسبح - الطير - الشدو - التسبيح - زهور - الروض - الخمائل - الموج - النغم - الزهر - الطير - الأنسام) ، وهذه الألفاظ أيضا (الليل - الأنجم - أشواق - أرواح - النور - الورد - النهر - الغصون) .

وتمثل هذه الألفاظ المواد الخام التى يبنى منها الشاعر تجاربه مهما كان نوع هذه التجربة لكنها فى دائرة الإيمان ؛ وهكذا تتشكل التجارب الإيمانية التى تعمق مجرى الشعر الإسلامى فيأخذ طريقه إلى القلوب .

٢ - المعجم الشعرى والنزعة الصوفية :

وإذا كان معجم الشاعر تسيطر عليه الألفاظ الإسلامية بمفهومها الدينى المعروف وذلك خط واضح فى أغلب قصائده .

وفى ثنايا هذا الفيض الهائل من الألفاظ والمصطلحات التى تشارك فى تكوين أبعاد التجربة الإيمانية تبرق بعض الإشارات الصوفية ففى قصيدة « هو الأول » ترد هذه العبارات « علم الحقائق » سدت طرائقى » ، والحقائق جمع حقيقة ، والطرائق جمع طريقه ، والحقيقة مصطلح صوفى فهم يعتقدون أن العقيدة تنقسم إلى حقيقة وشريعة ، فعلم الحقيقة هو علم الباطن والأسرار ، وعلم الشريعة هو البحث

في الظاهر والمألوف والأحكام الحسيّة .

والطريقة تشير إلى هيكل الصوفيين فهم يقسمون إلى طرائق ولكل طريقة شيخ ومريدون ..... وتفصيل ذلك في موضع آخر لا مجال له هنا ، والتعبير بقوله « سرا سرائرى » مستمد من معجم المتصوفين .

وقوله في قصيدة « جميلك عندى »

وحولى نداء الكون يدعوك منعمًا	بألطافه الأملاك طاروا وسبحوا

يومىء إلى حس الشاعر الصوفى واستخدامه لمعجمهم ، فاللطف والأملاك والطيران ، والسباحة من المصطلحات التى تأخذ مدلولات رمزية عند الصوفيين .

وحين يعبر عن الليل بأنه غيب يطلعنا على رؤيته الصوفية لجزء من الزمن لا ندرك كنهه .

وقصيدته « موجود بلا حدود » من بدايتها إلى نهايتها تمثل الجو الصوفى فكرة وأداءً وروحًا ولفظاً ، وحتى العنوان يشرق فيه هذا الحس وهى من روائع الشاعر التى تعد مفخرة من مفاخره وفى طليعة مآثره الفنية .

فتحت عليه قلبى لست أدرى	إلى أى الجهات فتحت بابى
سوى أنى رأيت النور يسرى	فيجتاح الأباطح والروابى
سوى أنى سمعت الكون يشدو	بألحان منورة عذاب
سوى أن المواكب فى الأعالى	تسبح فى الذهاب وفى الإياب
سوى أن الوجود بدا كتابا	وكل الخلق آيات الكتاب
وطرت إلى فضاء لؤلؤى	تضىء الشمس فيه بلا حجاب
هنالك لا سماء تظل أرضا	ولا ظل ينام على التراب
وانست الحبيب بعين قلبى	فكاد يطيش من فرح صوابى
وصحت أقول يا من لا أراه	ويعلم كل سرى كل مابى
تهاوت كا أسبابى فكن بى	رحيما يوم عرضى للحساب
بغير نداك لا يحيا فؤادى	فبر الأرض من فيض السحاب

(د) الموسيقى وتعدد الإيقاعات :

يصوغ الشاعر معظم نتاجه الشعرى فى قالب الشعر الموزون المقفى ... إيماناً منه بقيمة هذا الشكل الفنى فى الأداء الشعرى ، وهو لا يسير على نمط واحد فى أدائه الشعرى .... بل نراه يعدد أشكاله وزنا وقافية على النحو التالى :

١ - أوزان شعره يستخدم فيها أغلب البحور الشعرية ..... فيما عدا بحر المنسرح ... والسريع والمقتضب والمضارع ......

٢ - ويميل الشاعر أحياناً إلى مجزوء البحور .... والأوزان القصيرة : مثل قصيدته « سأراك » وهى قصيدة جيدة يصب فيها الشاعر كل آماله .. وأحلامه .. ويشكل موقفه من الحياة حين يفصح عن هذه المحبوبة / الأمل - فى نهاية القصيدة بعد تكرار مادة « الرؤية » ومشتقاتها الحركية التى تصنع الأحداث ثمانى وعشرين مرة .... وكل مرة يصور فيها الشاعر معلماً من معالم رؤيته لهذه الحبيبة ... ثم يقول فى ختام القصيدة :

يا راية الوحيد يا	رمز الأمانى الدافقة
عودى لأمجاد البطولة	فى العصور السابقة
قد كنت فيها نضرة	وحضارة متألقة
قد كنت فيها قمة	فوق الذرى متأنقه
إنا بحبك سوف نجتاز	الدروب الضيقة
ومنى انتصرنا فاجمعى	كل الحمام لنطلقه

٣ - نظام المقطوعات الشعرية ....

وهو يقترب من فن الموشحات . كما فى قصيدة « دعنى أسير » فالقصيدة تبدأ برباعية قافيتها رائية ، ثم تتوالى بعد ذلك خمس مقطوعات .... كل منها على قافية ولكنها جميعاً ينتهى كل منها برباعية على نظام افتتاحية القصيدة . وهذا تشكيل موسيقى مؤثر ... وقد اتفق العروض والضرب فى حرف الروى وذلك بالمقطوعة الأولى ... واختلفا فى باقى المقطوعات ولو حافظ الشاعر على هذا النظام لاصطبغت القصيدة بصبغة موسيقية إيحائية مؤثرة .

وفى المقطوعة الرابعة جعل « القفل » ثلاث أبيات ... مما يدل على أن

الشاعر لم يتعمد تقديم موشحة شعرية أو تشكيلاً موسيقياً منظماً فى كل أجزاء القصيدة .

هـ - الرمز الشعرى ......

ويلجأ الشاعر فى صوره الشعرية إلى توظيف الطبيعة الحية . رامزاً إلى معان وقيم يحاول تقديمها ولكن رمزه ليس مستغلقاً ... ويحرص الشاعر على إضاءة الرمز وتوضيحه . كما فى قصيدة العصفور الطريد .. فالبيت الأخير يكشف الرمز ويحدده ...

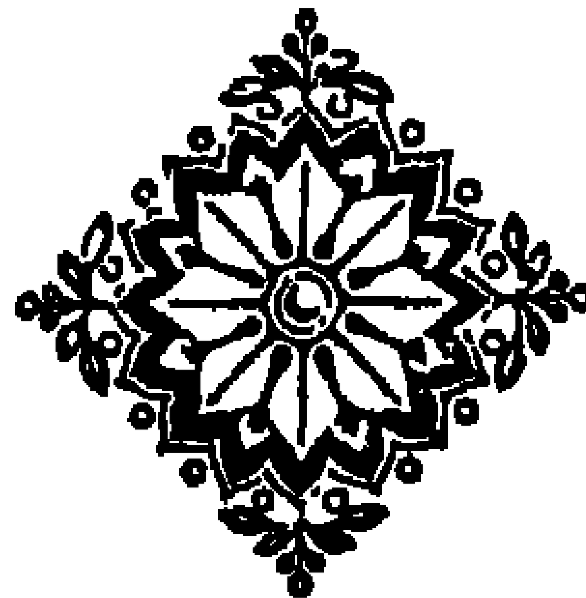
يا أيها العصفور حالك حالنا　　فاليوم لا طير ولا أدباء

وهذا الرمز امتداد للرمز الشعرى عند أدباء المهجر وبخاصة فى شعر أبى ماضى كما فى قصيدته « التينة الحمقاء » وقصيدة « الفليسوف المجنح » وقصيدة « دودة وبلبل » ونجد هذه الظاهرة لدى الشاعر القروى .

وشوقى فى قصصه على ألسنة الحيوانات والطير - كان رائدا فى هذا المجال .

ولكن الشاعر محمد السنهوتى له رؤيته التى تتكىء على التصور الإسلامى .... وتنشد تحقق العدالة والمساواة ... والأمن والإيمان ...

فهو شاعر مسلم يمتلك أدوات الفن ، وإسلامية الرؤية ، فرموزه ومعجمه الشعرى .. وإيقاعاته .. كلها .. تتآزر فى توصيل مادته الشعرية فى لغة آسرة وتراكيب متينة .. وألفاظ منتقاة .. وانفعال صادق ... ومشاعر صفية نقية ....



خاتمـــــــــــة

أحمد الحق سبحانه على أن وفقنى وهيأ لى السبل لإخراج فكرة هذا الكتاب إلى الوجود ، وهو كما أشرت فى المقدمة « إشارة خضراء على درب عصىٍّ جديد »

وهناك جهود كثيرة تآلفت وتآزرت فى هذا المضمار ، ولا يخفى على المتابع لنمو وتطور نظرية الأدب الإسلامى جهود الباحثين فى هذا المجال .

وقد ضاعف من حماسى لإخراج هذا الكتاب انتمائى أولا إلى عقيدة الإسلام **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾** .

وفى دائرة هذا الانتماء العقدى شرفت بالانتماء إلى رابطة الأدب الإسلامى العالمية بالهند ، وهى تحمل على كاهلها عبء الدعوة إلى الأدب الإسلامى فى جميع أنحاء العالم .

وكانت لدراستى برحاب الأزهر المعمور آثار محفورة فى الوجدان دفعتنى إلى التنقيب والتحليق فى هذه الآفاق نقداً وإبداعًا ؛ وكان لمقامى وعملى بمكة المكرمة أثر جليل فى مضاعفة الحماس ، وشحذ العزيمة لإخراج هذا الكتاب .

وآمل من العلى القدير أن يوفقنى إلى إتمام ما بدأت ، وأن يوفق الباحثين إلى استخراج الكنوز الأدبية والفنية الدائرة فى فلك التصور الإسلامى من تراثنا القديم ، ومن ابداعنا الجديد ، وغير خافٍ على القارىء وعلى شداة الأدب ونقدته أننى لم أتعصب لشكل شعرى محدَّد ، وأرفض ما سواه ؛ فقد استشهدت بنماذج من الشعرين « القديمَ والجديد » أو شعر الشطرين وشعر التفعيلة ، ووجدت فى كلا الشكلين نماذج رائدة ورائعة ، تنبض بروح الإسلام وقيمه .

فرؤية الشاعر تنطلق محلقة لا تحدها أسوار الشكل ، وإنما يكون الالتزام فى إطار المضمون الهادف ، والنبض الإسلامى المؤثر فى واقع الحياة وفى مستقبل الإنسان .

كذلك لم تحصر الدراسات نفسها فى إطار زمنى محدد ، لأنها ليست دراسات تاريخية أدبية ، ولكنها دراسات تعالج قضية مازالت فى حاجة إلى التحليل

والمناقشة والتنقيب ، ولب هذه القضية هو النص الأدبى الناطق بأبعاد الرؤية الإسلامية .

ولم تغفل الدراسات التطبيقية العنصر الجمالى فى النص الأدبى ، ومن خلال تحليل النماذج التى وردت آنفًا استطيع أن أرد ردًا علميا على الذين يتهمون الأدب الإسلامى بالجفاف والجمود ، وعدم التحليق .

وتجسّد ذلك الرد نظريا فى الدراسة الأولى « معالم التجربة الأدبية » وتجلى عمليا فى الدراسة الثانية « أبعاد الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر » .

وإذا كان هناك من ضعف فى بعض الإبداعات الأدبية فى هذا المجال، فالعيب يكمن فى المبدع ، ولا يكمن فى الإبداع ، ولا الرؤية التى يتبناها .

والأدب المعاصر بفنونه المتعدده بعبق بشذا الرؤية الإسلامية التى تشكل واقع الحياة ، وتقدمه فى إطار فنى بالغ الجودة ، ولكن هذا التيار لم يتعمق مجراه بعد !!!! ولم يفرض تقاليده على الساحة الأدبية بعد !!!

والأمر يحتاج إلى تضافر ملكات المبدعين ، وإلى تآزر جهود الباحثين والناقدين، حتى يتأصل ذلك التيار ، ويؤتى ثماره طيبة مباركة ، ولا يعود غريبا - كما كان - فى ساحة تتنازعها الأهواء الفكرية ، وتبهرها الأشكال الفنية ، وتغيب عنها المعالم الحقيقية !!!!

فهل نعثر على هذه المعالم ؟

وهل نكتشف مدارات جديدة للإبداع فى آفاق التصور الإسلامى ؟ .

.... إننا جادون فى مسيرتنا ... محاطون بتوفيق الله ورعايته

فهو الموفق ... وهو الهادى إلى سواء السبيل !

د/ صابر عبد الدايم

المحتـــوى

القسم الأول «من معالم التأصيل»

دراسات تنظيرية

القسم الثانى: من ثمار التطبيق

دراسات نصية تطبيقية

المراجع والمصادر

(أ) الكتب

١ القرآن الكريم

٢ الأدب المقارن د/ محمد غنيمى هلال - دار العودة - بيروت - ١٩٦٢م

٣ البداية والنهاية لابن كثير - دار الفكر - بيروت [٧] مجلدات

٤ البهائية وتاريخها وعقيدتها دار المدنى للطباعة والنشر والتوزيع بجده - ط٢ - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م

٥ التصوف عند الفرس د/ ابراهيم الدسوقى شتا - دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧م

٦ الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر د/ محمد فتوح أحمد - دار المعارف بالقاهرة ط٣ ١٩٨٤م

٧ الرومانتيكية د/ محمد غنيمى هلال - دار العودة - بيروت ط٦ ١٩٨١م

٨ السيرة النبوية لابن هشام - دار التوفيقية للطباعة بالأزهر / تحقيق د/ محمد فهمى السرجانى

٩ العلمانية د/ سفر بن عبد الرحمن الحوالى - دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع - نشر مركز البحث العلمى وإحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى بمكة - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

١٠ النقائض فى عهد البعثة المحمدية د/ حسن الكبير ط١ بالقاهرة ١٩٨٤م

١١ النقد الأدبى سيد قطب - مطبعة الشروق - بيروت « بدون »

١٢ النقد الإسلامى المعاصر- د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة - بيروت -١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م

١٣ الواقعية الإسلامية فى الأدب والنقد - دار المنارة بجدة - السعودية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

١٤ تاريخ آداب العرب ج٢ - مصطفى صادق الرافعى / دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان

١٥ تاريخ الطبرى - دار المعارف بالقاهرة الطبعة السادسة ١٩٨٧م

١٦ تاريخ النقد الأدبى عند العرب - طه حسين - مطبعة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٣٧م

١٧ جاهلية القرن العشرين - محمد قطب - دار الشروق بالقاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م

١٨ جمهرة أشعار العرب - أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى - دار بيروت للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

١٩ خصائص التصور الإسلامى - سيد قطب - أصدار الاتحاد الإسلامى للمنظمات الطلابية عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م

٢٠ رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا - محمود شاكر - كتاب الهلال العدد [٤٤٢] - أكتوبر سنة ١٩٨٧م

٢١ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوى : إصدار الاتحاد الإسلامى للمنظمات الطلابية .

٢٢ محمد صلى الله عليه وسلم فى الشعر الحديث د/ حلمى محمد القاعود - دار الوفاء المنصورة

٢٣ مذاهب الأدب فى أوروبا - د/ عبد الحكيم حسان - دار المعارف بالقاهرة ط٢- ١٩٧٩م

(ب) الدواوين

٢٤ ديوان ابراهيم ناجى - دار العودة - بيروت - ١٩٧٣م

٢٥ ديوان أبى نواس « الحسن بن هانى » تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى ط شركة مصر بالقاهرة - ١٩٥٣م

٣٦ ديوان أصداء الذكريات - د/ محمد عبد المنعم خفاجى - رابطة الأدب الحديث - ١٩٨٩م

٢٧ ديوان الآثار الكاملة - لأودونيس - دار العودة بيروت - ١٩٨٧م

٢٨ ديوان البيعة المشتغلة - محمد على الرباوى - المطبعة المركزية - وجدة المغرب - ١٩٨٧م

٢٩ ديوان الجداول - إيليا أبو ماضى - دار العلم للملايين - بيروت ط١٣ - ١٩٧٩م

٣. ديوان الحلم والسفر والتحول - د/ صابر عبد الدايم - سلسلة مواهب - قطاع الأدب والفنون بمصر ١٩٨٢م

٣١ ديوان الرحيل على جواد النار - حسين على محمد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٥م

٣٢ ديوان السفر فى أنهار الظمأ - د/ محمد أبو دومة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م

٣٣ ديوان المرايا وزهرة النار - د/ صابر عبد الدايم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧م

٣٤ ديوان المسافر فى سنبلات الزمن - د/ صابر عبد الدايم - مطبعة الأمانة بالقاهرة ١٩٨٣م

٣٥ ديوان بشار بن برد - نشره وقدم له / محمد الطاهر بن عاشور - ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر - ١٩٦٦م

٣٦ ديوان تموت العصافير لكن تبوح - جميل محمود عبد الرحمن - المجلس الأعلى للثقافة بمصر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٣٧ ديوان حسان بن ثابت / شرح عبد الرحمن البرقوقى - ١٩٨١م - دار الكتاب العربى بيروت

٣٨ ديوان خليل حاوى - دار العودة بيروت - ط٢ - ١٩٧٢

٣٩ ديوان خليل مطران - خليل مطران

٤٠ ديوان شجرة الحلم - حسين على محمد - سلسلة مواهب - ١٩٨٠م

٤١ ديوان على درب الله - محمد المنتصر الريسونى - مطبعة ديسبريس - تطوان بالمغرب

٤٢ ديوان عمر أبو ريشة « المجموعة الكاملة » عمر أبو ريشة - دار العودة بيروت - ١٩٧١م

٤٣ ديوان لله وللرسول - عبد العليم القبانى - دار لوران للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٨١م

٤٤ ديوان مدائن الفجر - د/ صابر عبد الدائم - تحت الطبع بنادى مكة الثقافى

٤٥ ديوان مسافر إلى الله - أحمد فضل شبلول / كتاب فاروس مايو - ١٩٨٠م

٤٦ ديوان مملكة الروح - محمد بنعمارة - منشورات المشكاة بالمغرب ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

٤٧ ديوان نشيد الغرباء - محمد بنعمارة - وجدة المغرب - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

٤٨ ديوان نهر الحقيقة - محمود حسن اسماعيل - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م

(ج) الدوريات

٤٩ جريدة « الندوة » السعودية - الملحق الأدبى - عدد ٢ شوال ١٤٠٧هـ

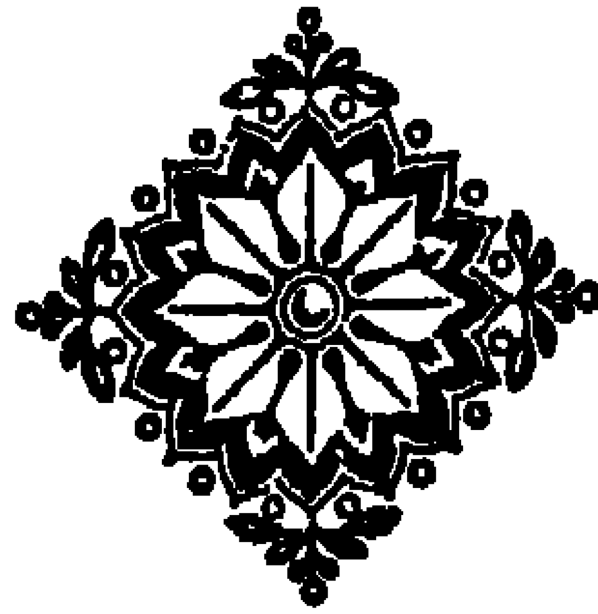
٥٠ جريدة « المسلمون » جريدة المسلمين الدولية - السنة الرابعة - العدد ٣٤٧٦ - ذو القعدة ١٤٠٨هـ - ١٧ يونيو ١٩٨٨م

٥١ المجلة العربية بالسعودية - عدد ربيع الثانى سنة ١٤٠٦هـ - يناير ١٩٨٦م

٥٢ مجلة الأزهر - عدد رمضان سنة ١٤٠٢هـ - يونية ١٩٨٢م

٥٣ مجلة المنهل « السعودية » عدد رجب ١٤٠٧هـ - مارس ١٩٨٧م

٥٤ مجلة لواء الإسلام - عدد ربيع الأول سنة ١٤٠٩هـ



كتب أخرى للمؤلف

١- مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر - دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢م .

٢- محمود حسن إسماعيل بين الاصالة والمعاصرة - دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٤م .

٣- الادب الصوفى : اتجاهاته وخصائصة - دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٤م .

٤ - من القيم الإسلامية فى الأدب العربى- مطابع جامعة الزقازيق سنة ١٩٨٨م .

٥ - فن كتابة البحث الأدبى والمقال بالأشتراك مع د/ محمد داود - مطبعة الامانة بالقاهرة سنة ١٩٨٤م .

٦ - الشعر الأموى فى ظل السياسة والعقيدة . ط أولى سنة ١٩٨٤م.

٧ - التجربة الابداعية فى ضوء النقد الحديث / نشر دار الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٨٩م .

* ديوان « الحلم والسفر والتحول » سلسلة مواهب / قطاع الأدب والفنون سنة ١٩٨٢م .

* ديوان « المسافر فى سنبلآت الزمن » مطبعة الامانة بالقاهرة سنة ١٩٨٣م .

* ديوان « المرايا وزهرة النار » الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م .

* ديوان « مدائن الفجر » تحت الطبع بنادى مكة الثقافى بالسعودية .

* قصيدة « البردة » لكعب بن زهير « رؤية نقدية معاصرة »

* « الأدب المقارن » دراسات فى المصطلح والظاهرة و التأثير .
مطبعة الأمانة بالقاهرة سنة ١٩٩٠م

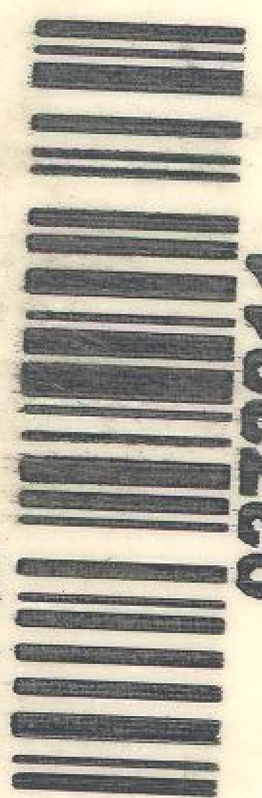
رقم الإيداع
بدار الكتب
١٩٩٠/١٨٤٣

يرصد المؤلف فى هذا الكتاب معالم التجربة الأدبية فى ظل خصائص التصور الإسلامى ويلقى الضوء كذلك على أبعاد الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر فالأديب المسلم كما يقول المؤلف :-

تنطلق تجاربه من نبع إيمانه الفياض بالتسليم المطلق لخالق الكون جل وعلا ، وهو يمزج هذه الانطلاقة الإيمانية بالتأمل فى مشاهد الكون ، والنظر فى ملكوت السماوات والأرض ، واستجلاء معالم القدرة الإلهية فى صنعة هذا الكون البديع المتناسق وهو فى غمرة تجاربه الإيمانية والتأملية لا يكون بمعزل عن واقع الحياة ، ومشاغل الإنسان وآماله وأحلامه فهو فى إيمانه يتأمل ما خفى من أسرار الكون ، وهو فى تأملاته يستجلى أسرار الحياة ، ويبحث عن منافذ الخلاص للإنسان عبر رؤية إسلامية متميزة تصاغ معالمها فى قالب فنى مؤثر .

وفى معرض إرساء هذه الخصائص فى حقل التجارب الأدبية ناقش الباحث كثيراً من المواقف والآراء التى شاعت فى حقل النقد القديم والحديث ، وكشف كذلك عن زيف بعض القيم الفنية والموضوعية التى خلفتها المذاهب الأدبية والنقدية

د. صابر عبد الدايم





للطباعة والنشر والتوزيع
١٦ شارع منصور (مولد النبى) الزقازيق
ص . ب : ٢٠٣ ت : ٣٢٠٦٨٣ (٠٥٥)